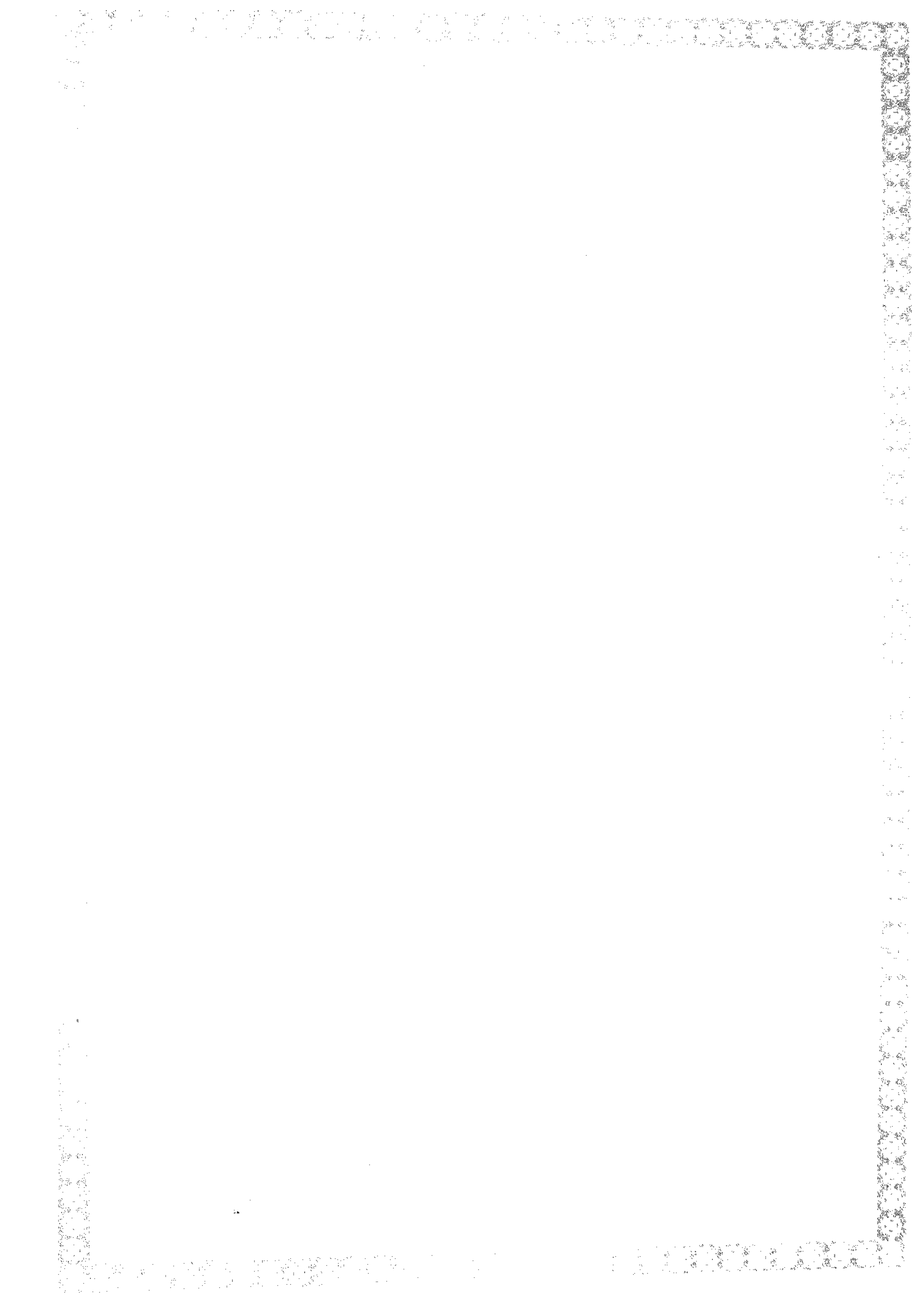


المجلد الأول

المركز الثقافي اللبناني



موسوعة
الإمام علي(ع)

الطبعة الثانية
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المركز الثقافي اللبناني
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - الحدث هاتف: ٠٥/٤٦١٧٧٧ - ٠٥/٤٦١٨٨٨
خليوي: ٠٣/٧٥٣٦٦٣

موسوعة الإمام علي(ع)

حياة الإمام علي عليه السلام وحروبه

د. علي صادق البيلاني

الجزء الأول



المركز الثقافي اللبناني



الإمام عليّ بن أبي طالِب

عن رسول الله ﷺ أنه قال للإمام علي: «حبك إيمان، وبغضك نفاق، وأول من يدخل الجنة محبك، وأول من يدخل النار مبغضك»

[حديث شريف]

هو علي بن أبي طالب (واسمه عبد مناف) بن عبد المطلب (واسمه شيبة الحمد) بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمه المغيرة) ابن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان.

مولده:

ولد عليه السلام بمكة داخل البيت الحرام، في يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة - ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله سواه - وفي ذلك يقول السيد الحميري:

ولدته في حرم الإله وأمنه ... والبيت حيث فناؤه والمسجد

بيضاء طاهرة الثياب كريمة ... طابت وطاب وليدها والمولد

في ليلة غابت نحوس نجومها ... وبدت مع القمر المنير الأسعد

ما لف في خرق القوابل مثله ... إلا ابن آمنة النبي محمد

وفي ذلك يقول أيضاً عبد الباقي العمري:

أنت العلى الذي فوق العلا رفعا ببطن مكة وسط البيت إذ وضعا

وقد سمته أمه: حيدرة ـ والحيدرة الأسد ـ ويدل على ذلك خبره يوم برز إليه مرحب، وارتجز عليه:

قد علمت خيبر أبى مرحب
شاكى السلاح بطل مجرب
أنا الذي سمتني أمي مرحبا

فأجابه عليّ عليه السلام:

أنا الذي سمتني أمي حيدره ضرغام آجام وليث قسوره
عبل الذراعين شديد القصره كليث غابات كريه المنظره
أكليلكم بالسيف كيل السندره أضربكم ضرباً يبين الفقره
وأترك القرن بقاع جزره أضرب بالسيف رقاب الكفره
ضرب غلام ماجد ضروره من يترك الحق يقوم صعره

وما سمته أمه بهذا الاسم إلا لتغرس فيه روح الحماسة والبسالة وتبعث في نفسه شجاعة الأسد وإقدامه ـ وقد كان في ذلك مضرب المثل.

وسماه أبوه عليّاً، وقال:

سميته بعلي كي يدوم له عن العلو وفخر العز أدومه

وكناه الرسول صلى الله عليه وآله بأبي تراب وقد اختلف في سبب هذه التسمية بعضهم إلى أن سببها أنه صلى الله عليه وآله مرّ به نائماً تسفى عليه الريح التراب فقال: قم يا أبا تراب، ألا أخبرك بأشقى الناس أجمعين؟ عاقر والذي يضربك على هذا فيخضب هذه ـ يعني على رأسك فيخضب لحيتك بدمك[1]. ويروي

(١) ص ٥٥ من كتاب إمتاع الأسماع للمقريزي.

البخاري أن رسول الله ﷺ وجده في المسجد نائماً وقد ترب جنبه فجعل يمسح التراب عن جنبه ويقول: قم يا أبا تراب.

ويرى العلامة السيد محمد الصدر أن كلمة «أبو تراب» كناية عن كثرة عبادته وصلواته لأن المسلمين في السابق كانوا يسجدون على التراب، وكان الإمام علي معفر الجبين لكثرة ما يسجد، فقوله: قم أبا تراب على حد قوله قم يا كثير العبادة.

وفي رأي أستاذنا محمد صادق الصدر أن هذه الكنية كانت أحب الكنى إليه. كما أن المعروف أيضاً أن النبي ﷺ كان كثيراً ما يدعوه بها؛ ولا بد أن ذلك لميزة تستحق هذه العناية من الرسول الله ﷺ.

وذكر ابن أبي الحديد أن رسول الله ﷺ قال له:

«اجلس إنما أنت أبو تراب»، فجاء بإنما ـ وهي للحصر ـ ولا معنى لأن يحصر فيه التراب وإنما حصر فيه صفة عالية كانت من مميزات الإمام، وهي العبادة ـ فهذه الكنية بهذا المعنى وسام من النبي منحه الإمام.

وللشاعر الشهير عبد الباقي العمري في هذه الكنية مبتكر جميل، فهو يجعل آدمَ ابناً للتراب لأنه خلق منه ـ ويجعل عليّاً أباه لأنه أبو تراب فيقول:

أنت ثاني الآباء في منتهى الدو	ر وآباؤه تعد بنوه
خلق الله آدماً من تراب	فهو ابن له وأنت أبوه

وقد أحس خصوم الإمام، وبخاصة معاوية، برفعه هذه الكنية وميزة صاحبها، فأخذوا يموّهون على الناس بأن سبوه بها على المنابر مظهرين أنها منقصة له[1] ـ ولكن المسلمين المؤمنين يعرفون الإمام ويقدرونه حق قدره.

(١) ابن أبي الحديد (ص ٤ ـ الجزء الأول).

أمه:

أمه فاطمة بنت أسد: وفي الأغاني: هي أول هاشمية تزوجها هاشمي، وأول هاشمية ولدت خليفة، وهي أم سائر ولد أبي طالب، وكان عليّ أصغر بنيها، وجعفر أسن منه بعشر سنين، وعقيل أسن منه بعشر سنين، وطالب أسن منه بعشر سنين، وخرج يوم بدر مع المشركين كارهاً، ولم يعرف له خبر، ولا عقب له.

وهو وإخوته أول هاشميين ولدوا من هاشميين:

ويقول السيد محسن الأمين:

له فاطم أم وكانت لأحمد ... ببر وإشفاق هي الأم والظئر

فيغدوا رهيناً عندها متكحلاً ... وأولادها شعث شعورهم غبر

به آمنت في مكة ثم هاجرت ... إلى يثرب ما شاب إيمانها نكر

وكفنها خير الورى في قميصه ... وفي قبرها قد نام مذ حفر القبر

ولقنها القول السديد الذي به ... لدى الحشر تنجو حين يجمعها الحشر

لخير أبي ينمى وأكرم حرّة ... بذاك سمعت عدنان وافتخرت فهر

هما الهاشميان اللذان تفرعا ... على خير فرع أصله هاشم عمرو

له نسب من شيبة الحمد باهر ... جلى فمن ساماه أقعده البهر

نماه إلى العليا لؤى بن غالب ... وعبد مناف قد مضى قبله النضر

وكانت ذات رأي أصيل، وغرض نبيل؛ وكانت في مقدمة النساء اللاتي بايعن المصطفى ﷺ، وقد سارت سيرة خديجة رضي الله عنها في استرواح نفس النبي ﷺ ومواساته وتأييد أمره، وتقيّلت خلق زوجها أبي طالب في الذود عنه ومؤازرته، وإعلاء كلمته، ونشر رسالته، وكانت جريئة لا تخاف في الحق لومة لائم، ولم تهب أحداً من أساطين المعارضين ممن غالوا في إيذاء الرسول الله ﷺ، بل كثيراً ما وقفت في وجوههم، وردت عنه عداوتهم، وقد تابعته في هجرته إلى المدينة، وكان بيتها بها مقيلاً طيباً ومثوى مباركاً، كما كان في مكة لياذاً أميناً، وموئلاً كريماً، فهي منقطعة

النظير فيما أظهرته في تأييد المصطفى ﷺ ونصرته، ولقد كان ﷺ يزورها في بيتها فيَجدها فيّاحة نفاحة متهللة الوجه.

وكانت تعطف على زوج ولدها «السيدة فاطمة الزهراء» عطف الأمهات على أفلاذ أكبادهن، وكانت تعاونها في أعمالها، وتساعدها في أمورها، ولقد قال علي عليه السلام لأمه فاطمة بنت أسد: «أكفي فاطمة بنت رسول الله ﷺ سقاية الماء، والذهاب في الحاجة، وهي تكفيك من الداخل الطحن والعجن»، فكانت بارة بها، حانية عليها، مدللة لأولادها، عاطفة عليهم.

ولما توفيت كفنها رسول الله ﷺ في قميصه، وأمر من يحفر قبرها، فلما بلغوا لحدها حفره بيده، واضطجع فيه، وقال: «اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها». فقيل يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئاً لم تكن تصنعه بأحد مثلها، فقال: «ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة»، أو قال: هو أمان لها يوم القيامة، واضطجعت في قبرها ليوسعه الله عليها، وتأمن ضغطة القبر، إنها كانت من أحسن خلق الله صنعاً إليّ بعد أبي طالب. وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن سعيد بن المسيب عن عليّ ابن الحسين عن أبيه عن جده أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب؛ قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد كفنها رسول الله ﷺ في قميصه، وصلى عليها، وكبر عليها سبعين تكبيرة، ونزل في قبرها فجعل يومىء في نواحي القبر كأنه سويعه ويسوى عليها، وخرج من قبرها وعيناه تذرفان، وحثا في قبرها، فقال له عمر بن الخطاب، يا رسول الله، رأيتك فعلت على هذه المرأة شيئاً لم تفعله على أحد فقال له: «إن هذه المرأة كانت أمي بعد أمي التي ولدتني؛ إن أبا طالب كان يصنع الصنيع، وتكون له المأدبة، وكان يجمعنا على طعامه، فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيبنا فأعود فيه».

زوجاته:

١ ـ فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها حتى توفيت.

٢ ـ أمامة[1] بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وأمها السيدة خديجة بنت خويلد، وقد أوصت السيدة الزهراء الإمام علياً أن يتزوجها بعد وفاتها.

٣ ـ خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة.

٤ ـ ليلى بنت مسعود بن خالد.

٥ ـ أم البنين بنت حزام بن خالد.

٦ ـ أم ولد.

٧ ـ أسماء بنت عميس.

٨ ـ الصهباء وهي أم حبيب بنت ربيعة.

٩ ـ أم سعيد بنت عروة بن مسعود.

١٠ ـ محياة بنت امرىء القيس.

أولاده[2]:

في مروج الذهب: يقول المسعودي إن عدد أولاد الإمام خمسة وعشرون. ويقول المفيد في الإرشاد إنهم سبعة وعشرون، وهم: الحسن والحسين، وزينب الكبرى، وأم كلثوم الكبرى، (وأمهم فاطمة بنت سيد المرسلين الرسول الكريم ﷺ)، ومحمد الإكبر (ابن الحنفية، وأمه خولة)، وعبد الله وأبو بكر (وأمهما ليلى)، والعباس الأكبر وعبد الله (وأمهم أم

---

(١) أوصى ابن الربيع قبل موته بابنته أمامة إلى ابن خاله الزبير بن العوام بن خويلد. وقد زوجها الزبير من الإمام علي، وظلت أمامة معه حتى قتل، فكان مشهدها وهي تطيف به وهو مسجى على فراشه يمزق القلوب ويفتت الأكباد حتى لقد قالت أم الهيثم:

أشاب ذؤابتي وأذل ركبي ... أمامة حين فارقت القرينا

تطيف به لحاجتها إليه ... فلما استيأست رفعت رهينا

(٢) سمي الإمام من أولاده بأسماء الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان، كما سنرى في الفصل الخاص بموقف الإمام علي بعد وفاة الرسول ﷺ.

البنين)، ومحمد الأصغر (وأمه أم ولد)، ويحيى وعون (وأمهما أسماء بنت عميس)، وعمر الأكبر ورقية (وأمهما الصهباء)، ومحمد الأوسط (وأمه أمامة)، وأم الحسن ورملة الكبرى (وأمهما أم سعيد)، وأم هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة، وابنة لم تسم (وأمهم محياة).

ويقول ابن سعد في طبقاته: فجميع ولد عليّ بن أبي طالب لصلبه أربعة عشر ذكراً وتسع عشرة امرأة، وكان الحسن والحسين يعدان أبناء للرسول عليه الصلاة والسلام، وفي الرياض النضرة للمحب الطبري أنه كان وافر الحظ من الذرية فبقي منهم بعده كثيرون.

وقد كثّر الله تعالى نسل عليّ وفاطمة عليهما السلام بدعوة النبي ﷺ لهما ليلة زفافهما بقوله: اللهم أخرج منهما الكثير الطيب.

وفي كتاب «الرياض النضرة» أيضاً، يقول المحب الطبري:

روى أبو سعيد في شرف النبوة أن رسول الله ﷺ قال لعليّ:

«أوتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحد ولا أنا: أوتيت مثلي ولم أوت أنا مثلي، وأوتيت زوجة صديقة مثل ابنتي، ولم أوت مثلها زوجة، وأتيت الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبي مثلهما، ولكنكم مني وأنا منكم»... وفي رواية: «أوتيت أربعة... والرابعة لولاك ما عرف المؤمنون»... إشارة إلى قول الرسول: «من كنت مولاه فعلي مولاه».

وفي كتاب: «مناقب آل طالب» روى الحديث بطريق آخر: «أن النبي قال: يا عليّ لك أشياء ليست لي منها: لك زوجة مثل فاطمة وليس لي مثلها، ولك ولدان من صلبك وليس لي مثلهما من صلبي، ولك مثل خديجة حماة وليس لي مثلها حماة، ولك صهر مثلي وليس لي صهر مثلي، ولك أخ مثل جعفر وليس لي مثله في النسب، ولك أم مثل فاطم بنت أسد الهاشمية، المهاجرة وليس لي مثلها».

وفي تفسير آية المباهلة، يقول المفسرون إن المراد بأنفسنا الرسول ﷺ، وعليّ عليه السلام، وبنسائنا فاطمة، وبأبنائنا الحسن والحسين: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)، ويقول الرازي في تفسيره: هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين كانا ابني رسول الله ﷺ، وعد النبي أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين. . .

وقد تواتر الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ولداي هذان إمامان قاما أو قعدا»، هما ريحانتاي من الدنيا»؛ وعن الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «كل ولد أب، فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهما»، ويقول الإمام علي عليه السلام في محمد بن الحنفية: إنه ابني، أما الحسن والحسين فإنهما ابنا الرسول.

ومما لا شك فيه أن علياً وفاطمة والحسن والحسين هم آل محمد وآل الرسول وآل البيت. ويتحدث الإمام عليّ في هذا وعلى نعمة الله عليه فيقول:

محمدٌ النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفرٌ الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... مشوب لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طرّاً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وصليت الصلاة وكنت فرداً ... فمن ذا يدعى يوماً كيومي

ويقول الإمام الحسين عليه السلام:

أليس رسول الله جدي ووالدي ... أنا البدر إن خلى النجوم خفاء؟!

ويكنى الإمام علي بن الحسن وأبا الحسين، وكان الحسن في حياة الرسول ﷺ يدعوه أبا الحسين والحسين يدعوه أبا الحسن، ويدعوان رسول الله ﷺ أباهما، فلما توفي النبي ﷺ دعوا علّياً أباهما، وكان

يكنى أيضاً بأبي تراب، كنّاه به رسول الله ﷺ، ففي الاستيعاب بسنده قيل لسهل بن سعد إن أمير المدينة يريد أن يبعث إليك لتسبّ عليّاً عند المنبر، قال: كيف أقول؟ قال: تقول: أبا تراب، فقال: والله ما سماه بذلك إلا رسول الله ﷺ، قال: وكيف كان ذلك يا أبا العباس؟ قال دخل عليّ على فاطمة، ثم خرج من عندها فاضطجع في صحن المسجد فدخل رسول الله ﷺ على فاطمة، فقال أين ابن عمك قالت هو ذاك مضطجع في المسجد، فوجده قد سقط رداؤه عن ظهره، وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره، ويقول اجلس أبا تراب، فوالله ما سماه به إلا رسول الله ﷺ، ووالله ما كان اسم أحب إليه منه. كما سبق وبينت ذلك تفصيلاً.

ولقبه أمير المؤمنين والمرتضى وحيدر والوصي والأصلع والأنزع البطين. ويقول ابن عباس: وكان علي يتبع في جميع أمره مرضاة الله ورسوله، فلذلك سمي المرتضى، أما لقبه الأنزع البطين فلأنه عليه السلام كان ذا صلعة ليس في رأسه شعر إلا من خلفه ـ وكان عظيم البطن ـ وهاتان الصفتان قد كونتا له هذا اللقب، فإذا قيل الأنزع البطين تبادر إلى الذهن أنه الإمام. وقد وصف محمد بن الحنفية الإمام فقال: «كان ربع القامة، أزج الحاجبين، أدعج العينين، أنجل[1]، كأن وجهه القمر ليلة البدر حسناً وهو إلى السمرة، أصلع له حفاف من خلفه كأنه إكليل وكأن عنقه إبريق فضة، وهو أرقب، ضخم البطن، أقرى الظهر، عريض الصدر، محض المتن، شثن الكفين، ضخم الكسور، لا يبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً ـ عبل الذراعين، عريض المنكبين، عظيم المشاشين كمشاش[2] السبع الضاري، له لحية قد زانت صدره، غليظ العضلات ـ خمش الساقين».

---

(١) النجل: سعة العين مع حسنها. يقال رجل أنجل وامرأة نجلاء.

(٢) المشاش: رأس العظم.

وقد شاء عمرو بن العاص أن يتلاعب في أوصافه عليه السلام فلما كتب أوصافه عن تثبيت أخذها عمرو فزم بأنفه وقطعها وكتب: «إن أبا تراب كان شديد الأدمة عظيم البطن خمش الساقين ونحو ذلك». وما كان الإمام أسمر ولا شديد السمرة وإنما كان يميل إليها كما ترى من صريح عبارة محمد بن الحنفية.

ومما لا شك فيه أن الإمام كان على جانب عظيم من الجمال، وحسبه أن يشبه بالبدر الساطع. وعن الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أراد أن ينظر إلى إبراهيم في حلمه، وإلى نوح في حكمه، وإلى يوسف في جماله، فلينظر إلى علي بن أبي طالب»[1].

وكان أبجر، أي كبير البطن، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وإذا مشى إلى الحرب هرول ثبت الجنان قوياً، ما صارع أحداً إلا صرعه.

وكان يتمتع بقوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة والصبر على العوارض والآفات، ومن قوة تركيبة عليه السلام أنه كان لا يبالي الحر والبرد ولا يحفل الطوارىء الجوية في صيف ولا في شتاء، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء، وثياب الشتاء في الصيف، وسئل في ذلك فقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليَّ وأنا أرمد العين يوم خيبر، فقلت: يا رسول الله إني أرمد العين، فقال: اللهم أذهب عنه الحر والبرد، فما وجدت حرّاً ولا برداً منذ يومئذٍ...».

وكان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، يعظم

---

(١) ذخائر العقبى (ص ٩٤) ـ وحياة أمير المؤمنين في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أهل الدين، ويعرف المساكين، وكان يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، ويقول: «يا دنيا غُرِّي غيري إلي تعرضت أم إليّ تشوقت، هيهات هيهات؛ قد بنتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، آه آه؛ من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق...».

ويقول ابن عبد البر في الاستيعاب: كان عليّ إذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئاً إلا قسمه، ولا يترك في بيت المال منه إلا ما يعجز عن قسمته في يومه ذلك، ولم يكن يستأثر من الفيء بشيء، ولا يخص به حميماً ولا قريباً، ولا يخص بالولايات إلى أهل الديانات والأمانات، وإذا بلغه من أحدهم خيانة كتب إليه (قد جاءتكم موعظة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين. بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين. وما عليكم بحفيظ).

ويقول ابن عبد البر: أجمعوا على أنه صلى إلى القبلتين، وهاجر، وشهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد، وأنه أبلى ببدر وبأحد، وبالخندق وبخيبر بلاء عظيماً.

وفي الإصابة: رُبّي في حجر النبي ﷺ ولم يفارقه، وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك.

علي بن أبي طالب ولد مسلماً:

لنستمع أولاً إلى ما يقوله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة في مناقب الإمام علي عليه السلام:

اجتمع للإمام علي بن أبي طالب من صفات الكمال ومحمود الشمائل والخصال وسناء الحسب وباذخ الشرف مع الفطرة النقية والنفس المرضية، ما لم يتهيأ من أفذاذ الرجال.

تحدر من أكرم المناسب، وانتمى إلى طيب الأعراق، فأبوه أبو طالب، عظيم المشيخة من قريش، وجده عبد المطلب أمير مكة وسيد

البطحاء، ثم هو قبل ذلك من هامات بني هاشم وأعيانهم.

وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ «ملح الأرض» وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق ومعدن الفهم وينبوع العلم.

واختص بقرابته القريبة من الرسول عليه الصلاة والسلام، فكان ابن عمه وزوج ابنته وأحب عترته إليه، كما كان كاتب وحيه وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه، أسلم على يديه صبيّاً قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة أو يخالط عقله شوب من شرك موروث، ولازمه فتيّاً يافعاً في غدوه ورواحه وسلمه وحربه، حتى تخلق بأخلاقه واتسم بصفاته، وفقه عنه الدين وتفقه ما نزل به الروح الأمين، فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم وأحفظهم وأدعاهم وأدقهم في الفتيا وأقربهم إلى الصواب، حتى قال فيه عمر: لا بقيت معضلة ليس لها أبو الحسن.

وكانت حياته كلها مفعمة بالأحداث مليئة بجلائل الأمور، فعلى عهد الرسول ﷺ، ناضل المشركين واليهود، فكان فارس الحلبة ومسعر الميدان صليب النبع جميع الفؤاد.

وفي أيام خلافته كانت له أحداث أخرى لقي فيها من تفرق الكلمة واختلاف الجماعة وانفصام العروة، مما طوى أضلاعه على الهم والأسى، ولاع قلبه بالحزن والشجن، وفي كل ما لقي من أحداث وأمور، وما صادف من محن وخطوب بلا الناس وخبرهم وتفطن لمطاوي نفوسهم واستشف ما وراء مظاهرهم، فكان العالم المجرب الحكيم والناقد الصيرفي الخبير، وكان لطيف الحس نقي الجوهر، وضاء النفس، سليم الذوق، مستقيم الرأي، حسن الطريقة، سريع البديهة حاضر الخاطر، عارفاً بمهمات الأمور إصداراً وإيراداً.

وما يعنيني في شرح ابن أبي الحديد قوله: «أسلم على يديه ـ يقصد

الرسول الله ﷺ ـ قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة أو يخالط عقله شوب من شرك موروث...»، فقد ولد الإمام داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، وتربى عند النبي ﷺ، وذلك أنه لما أصاب أهل مكة جدب وقحط قال رسول الله ﷺ لعمه العباس رضي الله عنه ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ: «يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى، فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله عنه، فتأخذ أنت رجلاً وأنا آخذ رجلاً فنكفلهما عنه»، فقال العباس: أقبل، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب وحمزة عنده وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم، فقال: دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم، وكان عقيل أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه، فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً وأخذ النبي عليه الصلاة والسلام عليّاً، وكان أصغرهم.

وفي ذلك يقول السيد محسن الأمين:

أتت سنة شهباء أصبح عندها	أبو طالب قد حل ساحته الفقر
فقالوا دعونا نكفه بعض ولده	مساعدة فالحر يسنده الحر
خذوا من أردتم إن تركتم بجانبي	عقيلاً فلي في حبه منكم عذر
لأحمد أعطينا عليّاً وجعفراً	لحمزة والعباس طالب فليدروا

وقد كان علي يلازم رسول الله ﷺ، بل قيل إنه عندما أخذه كان يلي أكثر تربيته ويطهره في وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها كأنه يفعل ذلك ترويحاً له، وفي ذلك يقول السيد محسن الأمين من قصيدة طويلة:

وربيت في حجر النبي محمد	فطوبى لمن مِنْ أحمد ضمه حجر
وغذاك بالعلم الإلهي ناشئاً	فلا علم إلا منك قد حاطه خبر
بآدابه أدِّبت طفلاً ويافعاً	وأكسبك الأخلاق أخلاقه الغر

ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ـ قد ورد في الكتب

الصحاح أن النبيﷺ كان يجاور في حراء كل سنة شهراً حتى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة فجاور في حراء شهر رمضان ومعه أهله خديجة وعلي بن أبي طالب وخادم لهم.

ومما لا شك فيه أن خلق علي نما أولاً على شمائل بيت أبيه أبي طالب ذاك الذي أصغت جدرانه لأول مرة إلى عبادة محمد، وخرجت منه الدعوة الإسلامية إلى الوجود، فإن علياً ما كاد يبلغ من عمره حتى ضمه الرسول اللهﷺ إليه وآخاه، وبذلك تربى علي في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية، وقد أشار علي إلى تعهد محمد إياه بخطبته التي قال فيها: «وقد تعلمون موضعي من رسول اللهﷺ بالقرابة القريبة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكنفني فراشه ويمسني جسده ويشمني عرقه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خصله في فعل وكنت أتبعه إتباع الفصيل إثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به».

وهذا هو أول الزمن الذي يتأهل الغلام فيه لتلقي بذور الأخلاق الفاضلة. وطالما جاور علي محمداً في خلواته وسار على نهجه في الانقطاع عن القرشيين المترددين في ليل من جهالتهم وجمودهم على ما هم عليه من عادات وأخلاق، وطالما عاش في ذلك الجو الزكي إلى جوار ابن عمه وهو أثير لديه حبيب إلى قلبه. وإن مثل هذا الجوار وهذا الإخاء لم يظفر به أحد غير علي من أصحاب الرسول وتلاميذه، لقد فتح علي بن أبي طالب عينيه على الطريق التي رسمها ابن عمه، وعرف العبادة أول ما عرفها من صلاته، ونعم بعطفه وحنانه وإخائه فإذا هو من محمد ما كان محمد من أبي طالب.

وخفق قلب علي أول ما خفق بحب ابن عمه ونطق لسانه أول ما نطق بما لقنه إياه من رائع القول، واكتملت رجولته أول ما اكتملت لمؤازرة النبي المضطهد، وإذا كان النبيﷺ يحبه أنصاره ويحترمه أعداؤه فهل يكون ربيبه وتلميذه وابن عمه علي إلا شيئاً من كيانه، شيئاً كثيراً من كيان عظيم.

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أول الدعوة احتكاماً للعقل وتخلصاً من الوثنية، وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفق بها رسالة محمد واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطة، وإذا أسلم قوم بعد انتصار النبي امتثالاً وتزلفاً للمنتصر كما هي الحال بالنسبة لبعض الأمويين ـ إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف تتفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية وتتحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن فإن علي بن أبي طالب قد ولد مسلماً، لأنه من معدن الرسول مولداً ونشأة ومن ذاته خلقاً وفطرة، ثم إن الظرف الذي أعلن فيه عما يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين ولم يرتبط بموجبات العمر، لأن إسلام علي كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف، إذ كان جارياً من روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها، فإن الصبي ما كاد يستطيع التعبير عن خلجات نفسه حتى أدى فرض الصلاة وشهد بالله ورسوله بدون أن يستأذن أو يستشير.

لقد كان أول سجود علي لإله محمد. ويقول العلامة تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: «وأما علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم القرشي فلم يشرك بالله قط».

لقد كان أول من أسلم من الناس بعد خديجة رضي الله عنها.

إن الله تعالى أراد به الخير فجعله في كفالة ابن عمه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، فعندما أتى رسول الله الوحي وأخبر خديجة رضي الله عنها وصدقت، وكانت هي وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلون معه، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلي صلاة الضحى وكانت صلاة لا تنكرها قريش، وكان إذا صلى في سائر اليوم بعد ذلك قعد علي أو زيد يرصدانه».

ويقول المؤرخ الشهير اليعقوبي في تأريخه: «وكان أول من أسلم خديجة بنت خويلد من النساء وعلي بن أبي طالب من الرجال ـ ثم زيد ابن

حارثة ثم أبو ذر»، وذكر أنه روى عن عمرو بن عبسة السلمي أنه قال: «أتيت رسول الله أول ما بعث وبلغني أمره فقلت: صف لي أمرك، فوصف لي أمره وما بعثه الله به، فقلت: هل يتبعك على هذا أحد، قال: نعم امرأة وصبي وعبد ـ يريد خديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة».

كذلك يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل: «وكذلك كان علي أول رجل أسلم، ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبي، وبذلك بقي الإسلام محصوراً في بيت محمد، فيه وفي زوجه وابن عمه ومولاه. وظل يفكر كيف يدعو قريشاً إليه وهو يعلم ما هي عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادة آبائها وأصنامهم». وروى عن سلمان أنه قال: «أول هذه الأمة وروداً على نبيها الحوض أولها إسلاماً: علي بن أبي طالب» ـ وروى عن ابن عباس أنه قال: لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره وذكر منها أنه أول عربي وعجمي صلى مع النبي وقد روى الطبري في تاريخه: «أن أول ذكر آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدق بما جاء من عند الله علي بن أبي طالب عليه السلام».

ويقول خزيمة بن ثابت الأنصاري ـ وهو ذو الشهادتين ـ للإمام حين بويع بالخلافة: «يا أمير المؤمنين ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب إلا إليك ـ ولئن صدقنا فيك لأنت أقدم الناس إيماناً وأعلم الناس بالله ـ وأولى المؤمنين برسول الله ﷺ ـ لك ما لهم وليس لهم ما لك»[1]؛ ويقول الفضل بن عباس:

وكان وليّ الأمر بعد محمد ... علي وفي كل المواطن صاحبه
وصيّ رسول الله حقّاً وصهره ... وأول من صلى وما ذم جنابه

وعن ابن عباس أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: أول من صلى معي

---

(1) تاريخ اليعقوبي.

علي بن أبي طالب»؛ وقد صلى علي مع النبيﷺ قبل الناس بسبع سنين كما يفهم ذلك من حديث أبي أيوب الأنصاري، فإنه يقول: قال رسول اللهﷺ: «إن الملائكة صلت عليّ وعلى عليّ سبع سنين قبل أن يسلم بشر»؛ ويكرر الحديث بصيغة أخرى فيقول: «قال رسول اللهﷺ: صلت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين لأنا كنا نصلي ليس أحد غيرنا يصلي».

وأخيراً يقول الإمام نفسه: «أنا عبد الله، وأنا أخو رسوله وأنا الصديق الأكبر، ولقد صليت قبل الناس بسبع سنين».

أسلم إسلام الرجل الذي أتيح له أن ينشأ على حب الخير وينمو في رعاية النبي ويصبح إمام العادلين من بعده.

وكان الإمام علي أول من رأت عيناي النبي وزوجته خديجة وهما يصليان، ثم إنه كان أول المسلمين وهو لم يبلغ الشباب، ولما عوتب على إسلامه بدون مشورة أبيه أبي طالب أجاب على الفور: «لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتي إلى مشاورته لأعبد الله، وقد قال عليعليه السلام: «وما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين».

وحينما بعث النبيﷺ اتبعه علي وآمن به وصدقه وكان عمره في نحو العاشرة وقيل السابعة، لم تكن القرابة وحدها هي التي قربته من الدين الذي دعا إليه، فقد أصر كثير من أقرباء الرسول على الشرك زمناً طويلاً، منهم عقيل أخوه الذي حارب المسلمين في بدر وأسلم بعد صلح الحديبية.

ونستطيع أن نقول إنهعليه السلام قد ولد مسلماً وطبع على الإسلام لأنه:

١ ـ لم يعرف قط عبادة الأصنام، كما عرف عن أمه فاطمة بنت أسد أنها لم تسجد لصنم.

٢ ـ أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتعبد في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة، وليس ما يمنع علياً أن يألف تلك العبادة في

طفولته الباكرة لأنه كان عابداً يشتهي العبادة، كأنها رياضة تريحه وليست أمراً مكتوباً عليه.

٣ ـ أنه طبع على الإسلام، فلم تزده المعرفة إلا ما يزيده التعليم على الطباع.

٤ ـ وكان الإمام المسلم الخالص على سجيته المثلى.

٥ ـ كما أحسن الإسلام علماً وفقهاً أحسنه عبادة وعملاً.

٦ ـ كما جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة.

٧ ـ كذلك أبى الإمام أن يداهن في دينه ويعطي الدنية في أمره، وكان يؤثر الخير كما يراه هو لا الخير كما يراه الناس.

٨ ـ وكان عليّ سيد الكلام في الإسلام، وسأوفي هذه النقطة حقها فيما بعد.

أما ملازمته الرسولﷺ فلم يزل علي في صحبته ملازماً له، فأقام معه عليه الصلاة والسلام بعد البعثة ثلاثاً وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة بمكة قبل الهجرة مشاركاً له في محنه كلها متحملاً عنه أكثر أثقاله، وعشر سنين بالمدينة بعد الهجرة يكافح عنه المشركين ويجاهد دونه الكافرين ويقيه بنفسه من أعدائه في الدين.

وكان عليعليه السلام يفدي النبيﷺ بنفسه، وينيمه أبوه أبو طالب في مرقد رسول اللهﷺ خوفاً على النبي ويعرضه للقتل ويوطن نفسه على ذلك، يقول ابن أبي الحديد: قرأت في أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب قال: كان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول اللهﷺ البيات إذا عرف مضجعه، وكان يقيمه ليلاً من منامه ويضجع ابنه عليّاً مكانه، فقال له عليّ ليلة: يا أبت إنيَ مقتول، فقال له أبو طالب:

اصبرن يا بني فالصبر أحجى كل حي مصيره لشعوب

قد بذلناك والبلاء شديد ... لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغر ذي الحسب الثا ... قب والباع والكريم النجيب
إن تصبك المنون فالنبل تبرى ... فمصيب منها وغير مصيب
كل حي وإن تطاول عمراً ... آخذ من سهامه بنصيب

٩ ـ وشهد سيدنا على المشاهد كلها ولم يتخلف إلا في تبوك فإن رسول الله ﷺ خلفه في أهله، فقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ قال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى».

١٠ ـ نقل الواحدي في كتابه المسمى بـ «أسباب النزول» أن الحسن والشعبي والقرطبي قالوا:

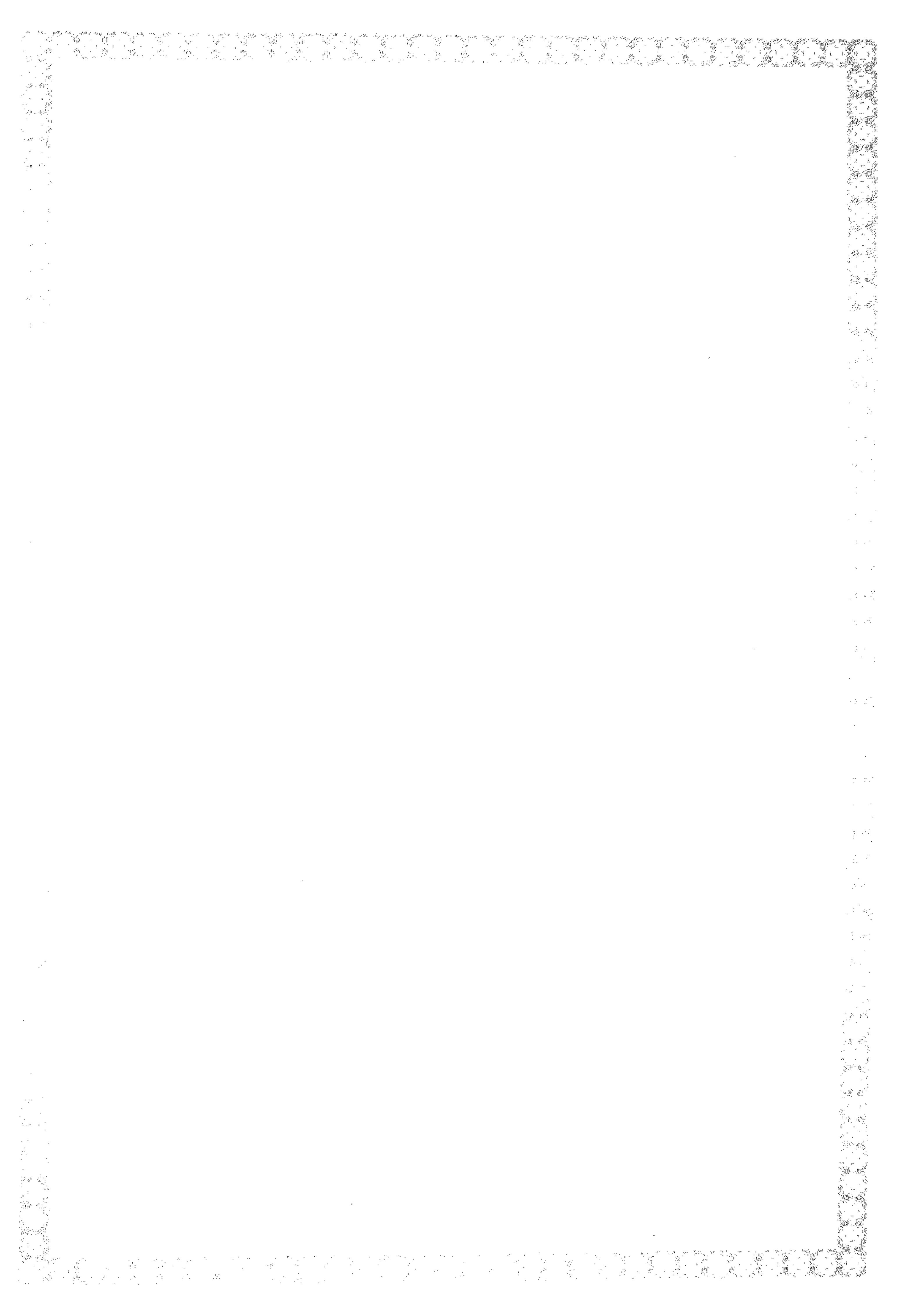
«إن علياً عليه السلام والعباس وطلحة بن شيبة افتخروا:

فقال طلحة: أنا صاحب البيت مفتاحه بيدي ولو شئت كنت فيه.

وقال العباس: وأنا صاحب السقاية والقائم عليها.

فقال علي: لا أدري لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد في سبيل الله. فأنزل الله تعالى: ﴿أجعلهم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله﴾ ـ إلى أن قال ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

١١ ـ وأخيراً فقد كان إسلام علي هو إسلام الرجل الذي أتيح له أن يتتلمذ لربه جل وعلا، كما يتتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصّاً في عرفان إسلامه وتقرير إيمانه، ويتربى في حجر نبيه، ويصبح إماماً للمتقين من بعده.



خصائص الإمام عَليّ

١ ـ اختصاصه بلقب الإمام:

حدد علماء الكلام معنى الإمامة فقالوا: «الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص إنساني...»، فالإمام حسب هذا التحديد هو الزعيم العام والرئيس المتبع، وله السلطة الشاملة على الناس في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية. والإمامة ضرورة من ضروريات الحياة لا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال، فيها يقام ما أعوج من نظام الدنيا والدين، وبها تتحقق العدالة الكبرى التي ينشدها الله في أرضه،، ومن أهم الأمور الداعية إلى وجود الإمام إيصال الناس إلى عبادة الله، ونشر أحكامه وتعاليمه، وتغذية المجتمع بروح الإيمان والتقوى، ليبتعد الإنسان بذلك عن الشر، ويتجه إلى الخير، ويجب على الأمة كافة الانقياد إليه والامتثال لأوامره ليقيم أودها ويلم شعثها ويهديها إلى سواء السبيل.

وللإمام واجبات كثيرة منها: حفظ الدين، وحراسة الإسلام وصيانته من المستهترين بالقيم والأخلاق، وتنفيذ الأحكام، وحماية البلاد الإسلامية، وإنصاف المظلوم، والجهاد... إلخ.

وهناك شروط لا بد أن تتوافر في الإمام كالعلم والعدالة والشجاعة والنجدة، وأخيراً العصمة. وقد عرفت: بأنها لطف من الله يفيضها على أكمل عباده، وبما يمتنع عن ارتكاب الجرائم والموبقات عمداً وسهواً، وهذه الأوصاف لم تتوافر إلا في أئمة أهل البيت حصنة الإسلام وحماته

والأدلاء على مرضاة الله وطاعته، وقد وصفهم الشاعر بقوله:

القريبين من ندى والبعيد ين من الجور في عرى الأحكام
والمصيبين ما أخطأ النا س ومرسي قواعد الإسلام
والحماة الكفاة في الحرب إن لف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا س فمأوى حواضن الأيتام
راجحي الوزن كاملي العدل في السيـ ـرة طُيِّبوا بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا س سواء ورعية الأغنام

وقد قال الإمام علي: «من نصّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم».

وبذلك اختص علي بن أبي طالبﷺ بين جميع الخلفاء الراشدين بلقب الإمام، وهذا اللقب إذا أطلق لا ينصرف إلى أحد غيره من بين جميع حكام المسلمين.

وما سبب ذلك؟ ألم يكن الصديق إماماً كعلي؟ أوَلم يكن عمر إماماً كعلي؟ أوَلم يكن عثمان إماماً كعلي؟ أوَلم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة؟ بلى؛ كانوا أئمة مثله وسبقوه في الإمامة.

ويجيب العلامة الأستاذ العقاد عن هذا السؤال فيقول: «ولكن الإمامة يومئذٍ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر، وصفة تناوئها صفة، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها، وكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس، وذلك هو علي بن أبي طالب كما لقبه الناس، وجرى لقبه على الألسنة، فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة في الطرقات بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف.

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها علي عليه السلام ولا يجاريه فيها إمام غيره، هي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام، فهو منشىء هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه، وندرت فرقة في الإسلام لم يكن علي عليه السلام معلماً لها منذ نشأتها أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها».

وزيادة على ما تقدم فالشروط التي بيّنّاها آنفاً والتي يجب أن تتوافر في الإمام كلها متوافرة في الإمام علي بن أبي طالب وفي مقدمتها تلك الخاصية التي ينفرد بها بحق وهي العلم، وسأتكلم عن هذه الميزة فيما بعد، وأقول هنا: إن عبد الله بن عباس كان تلميذاً للإمام، وعرف ابن عباس بالتبحر في العلم حتى وصف بأنه «حبر الأمة وترجمان القرآن»، ولما سئل ابن عباس: «أين علمك من علم ابن عمك؟» قال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط. وقال له عمر رضي الله عنه: «لا أبقاني الله بأرض لست بها يا أبا الحسن» كما قال: لولا علي لهلك عمر.

وقد قال أبو عبيدة رضي الله عنه: ارتجز الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في تسع كلمات، قطع الأطماع عن الالتحاق بواحدة منهن. ثلاث في المناجاة، وثلاث في العلم، وثلاث في الأدب؛ فأما التي في المناجاة فهي قوله: كفاني عزّاً أن تكون لي ربّاً، وكفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، أنت لي كما أحب فوفقني لما تحب. وأما التي في العلم فهي قوله: المرء مخبوء تحت لسانه فتكلموا تعرفوا، ما ضاع امرؤ عرف قدره. وأما التي في الأدب فهي قوله: أنعم على من شئت تكن أميره، واستعن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

وروى أبو الفرج في كتاب الأغاني: أن ابن عباس سمع قصيدة لعمر بن أبي ربيعة مرة واحدة فحفظها وأعادها، وما سمعها قط إلا تلك المرة صفحاً (أي مروراً) ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة، فقال له بعضهم: ما رأيت أذكى منك قط. فقال ابن عباس: لكنني ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢ ـ كما ذكرنا نشأ الإمام علي في حجر رسول الله، وتأدب بآدابه، وتخلق بأخلاقه، واهتدى بهداه، واقتدى به في أقواله وأفعاله، ولازمه طول حياته، واستمع إلى الإمام علي يقول: «وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ـ إلى أن قال ـ ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً. ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة.

وفي أسد الغابة، بسنده عن ابن إسحاق قال: أقام رسول الله ﷺ ينتظر الوحي بالإذن له بالهجرة إلى المدينة حتى إذا اجتمعت قريش فكرت بالنبي ﷺ، فدعا علي بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ففعل، ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه. قال ابن إسحاق: وتتابع الناس في الهجرة آخر من قدم المدينة من الناس، ولم يفتن في دينه علي بن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ أخره بمكة وأمره أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه ففعل، ثم لحق برسول الله ﷺ.

وفي هذا يقول أحد الشعراء:

ومواقف لك دون أحمد جاوزت ... بمقامك التعريف والتحديدا
فعلى الفراش يبيت ليلك والعدى ... تهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما ... يهدي القراع لسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضاً ... بالنفس لا فشلاً ولا رعديدا
واستصبحوا فرأوك دون مرادهم ... جبلاً أشم وفارساً صنديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى ... أو ما دروا كنز الهدى مرصودا

٣ ـ سبقه إلى الإسلام وعدم سجوده لصنم قط: سبق أن أشرنا بالتفصيل إلى أن علي بن أبي طالب ولد مسلماً ـ ويقول ابن أبي الحديد:

ما أقول في رجل سبق الناس إلى الهدى وآمن بالله وعَبَده، وكل من في الأرض يعبد بالحجر، ويجحد الخالق، لم يسبقه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كل خير محمد رسول الله ﷺ.

وذهب أكثر أهل الحديث إلى أنه عليه السلام أول الناس اتباعاً لرسول الله ﷺ، بل الإجماع على أن علياً كان أول من آمن من الآحداث الذين لم يبلغوا الحلم، وكانت السيدة خديجة رضي الله عنها أولى المؤمنات من النساء، كما كان أبو بكر أول من آمن من الرجال، وفي ذلك يقول أمير الشعراء:

ناجاهم ببينات ربه	فآمنت خويلد به
فقيل فيها أسبق الإناث	وفي عليّ أسبق الأحداث
وفي الرجال لأبي بكر يد	بالسبق لم يبلغ مداها سيد

وعن زيد بن الأرقم أن علي بن أبي طالب أول من أسلم، وقال ابن إسحاق: أول من آمن بالله ورسوله محمد ﷺ من الرجال علي بن أبي طالب، وروى بسنده عن ابن عباس، قال: «لعليّ أربع خصال ليست لأحد غيره، هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ﷺ، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فر غيره، وهو الذي غسله وأدخله قبره».

ولا يكاد يكون هناك خلاف إطلاقاً في أن علياً أول من أسلم بعد خديجة رضي الله عنها، ويؤيد ذلك في كل الروايات والأحاديث التي ذكرت عن زيد بن الأرقم، وابن إسحاق، وابن عباس، وسلمان الذي يروى عن الرسول ﷺ: «أول هذه الأمة وروداً على الحوض أولها إسلاماً علي بن أبي طالب».

وابن شهاب، وعبد الله بن محمد بن عقيل، وقتادة، عن أنس ابن مالك قال: «استنبىء النبي ﷺ يوم الإثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء».

٤ ـ أن رسول الله ﷺ جمع خاصة أهله وعشيرته في ابتداء الدعوة إلى الإسلام، فعرض عليهم الإيمان واستنصرهم على أهل الكفر

والعدوان، وضمن لهم على ذلك الحظوة في الدنيا والشرف وثواب الجنان، فلم يجبه أحد منهم إلا علي بن أبي طالب.

٥ ـ أقامه الرسول الله ﷺ مقامه يوم الهجرة في أداء أماناته ورد ودائعه وقضاء ديونه لما علم من أمانته وكفايته وشجاعته فقام بما أمر به.

٦ ـ المؤاخاة بينه وبين رسول الله ﷺ، قال ابن عبد البر في الاستيعاب: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، وقال كل واحدة منهما لعلي أنت أخي في الدنيا والآخرة، وآخى بينه وبين نفسه، وروى عن عليّ أنه كان يقول: «أنا عبد الله وأخو رسول الله ﷺ، لا يقولها أحد غيري إلا كذاب، آمنت قبل الناس بسبع سنين»، وفي ذلك من إبانة فضله على الكافة، والدلالة على أنه لا كفء لرسول الله ﷺ سواه، وفي ذلك يقول الشاعر:

تخيرك الهادي النبي لنفسه   أخاً حين آخى بينهم فلك الفخر
فهل كان مذ آخاك مثلهم فيهم   وأخطأ انتقاء المصطفى، إنه الهذر

٧ ـ وأنه عليه السلام صاحب رايته، وعن ابن عباس أنه قال: «هو صاحب لوائه في كل زحف»، ففي غزوة بدر الكبرى، وفي غزوة أحد كانت الراية ولواء المهاجرين مع علي.

٨ ـ أن الإمام علياً كان مؤثراً معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه، فوافق الخلفاء من قبله في أمور وخالفهم في أمور، وأبى أن يأتم بعملهم فيما يراه وما لا يراه، وأوصى ابنه الحسن فقال: «اعلم يا بني أن أحب ما أنت آخذ به إليّ من وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك فإنهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر، وفكروا كما أنت مفكر، فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك بدون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك وتعلم لا بتورط الشبهات وعلق الخصومات، وابتدىء قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بربك والرغبة إليه في توفيقك وترك شائبة أولجتك في شبهة أو

أسلمتك إلى ضلالة، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع، وتم رأيك فاجتمع، وكان همك واحداً، فانظر فيما فسرت لك.

٩ ـ الشجاعة وامتيازه فيها وتفوقه:

هو الشجاع الذي ما فرّ قط ولا ارتاع من كتيبة، قال: ابن أبي الحديد في شرح النهج: أما الشجاعة فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة.

وكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت، واجترأ وهو فتى ناشىء على عمرو بن ودّ فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوّم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعاً في الحديد ينادي جيش المسلمين، من يبارز؟ فصاح عليّ: أنا له يا نبي الله، قال الرسول الله ﷺ وبه إشفاق عليه: إنه عمرو، اجلس، ثم عاد عمرو ينادي ألا رجل يبرز؟ وجعل يؤنبهم قائلاً: أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟ أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟ فقام علي مرة بعد مرة وهو يقول: أنا له يا رسول الله، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة: اجلس، إنه عمرو، وهو يجيبه: وإن كان عمراً، حتى أذن له فمشى إليه فرحاً بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص، ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله: من أنت؟

قال ولم يزد: أنا علي.

قال: ابن عبد مناف؟

قال: ابن أبي طالب.

قال: يابن أخي من أعمامك من هو أسن، وإني أكره أن أهرق دمك.

فقال: لكني والله لا أكره أن أهرق دمك.

فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف كان ـ كما قال واصفوه ـ كأنه شعلة نار، واستقبل عليّ الضربة بدرقته فقدها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار فما انجلى إلا عن عمرو صريعاً وعلي يجأر بالتكبير.

واستمع إلى أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسي بعد موته:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله	بكيته أبداً ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا نظير له	وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وقيل إنه لما دعا معاوية إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما قال له عمرو: لقد أنصفك، فقال معاوية له: ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم، أتأمرني بمبارزة أبي الحسن، وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق، أراك طمعت في إمارة الشام بعدي.

وفي وقعة «بدر» التي بها تمهدت قواعد الدين، وأذل الله جبابرة المشركين، وقتل فيها رؤساؤهم، كان الإمام قطب الرحى في هذه الموقعة، وكذلك كان في وقعة أحد، ويوم «حنين» ثبت مع الرسول الله ﷺ عندما هرب عنه الناس إلى غير ذلك من غزوات الرسول.

أما بعد وفاة النبي ﷺ بعدما بويع بالخلافة أيام الجمل وصفين والنهروان، فشجاعته كانت مثالية، ففي يوم الجمل ثبت الفريقان وأشرعوا الرماح بعضهم في صدور بعض، وعندما اشتد القتال زحف الإمام نحو الجمل بنفسه في كتيبة من المهاجرين والأنصار وحوله بنوه ثم حمل، فغاص في عسكر الجمل حتى طحن العسكر، ثم رجع، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه: نحن نكفيك، فلم يجب أحداً منهم، ولا يرد إليهم بصره، وظل يزأر زئير الأسد، ثم حمل حملة ثانية وحده فدخل وسطهم يضربهم بالسيف قدماً قدماً، والرجال تفرّ من بين يديه، وتنحاز عنه يمنة ويسرة حتى خضب الأرض بدماء القتلى ثم رجع، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته، فاجتمع عليه أصحابه وناشدوه الله في نفسه وفي

الإسلام، فقال: «والله ما أريد بما ترون إلى وجه الله والدار الآخرة»، ثم قال لمحمد: هكذا تصنع يابن الحنفية، فقال الناس: من الذي يستطيع يا أمير المؤمنين، وكان في أوائل أيام «صفين» يسهر الليل كله إلى الصباح يعبىء الكتائب ويؤمر الأمراء، ويعقد الألوية، وهو الذي لبس يوم صفين سلاح العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وقتل اللخميين والحميري الذين لم يكن في الشام أشهر منهم بالبأس والنجدة.

١٠ ـ الجهاد في سبيل الله: وهو بحق سيد المجاهدين، ويكفي وقعة بدر الكبرى التي قتل فيها سبعون من المشركين، قتل عليٌّ نصفهم.

قال ابن أبي الحديد: أما الجهاد في سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوه، وأنه سيد المجاهدين، وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له، ويقول ابن عبد البر في الاستيعاب: «أجمعوا على أنه شهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد، وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخيبر بلاء عظيماً، وأنه أغنى في تلك المشاهد، وقام فيها المقام الكريم، وكان لواء رسول الله ﷺ معه، ولما قتل مصعب بن عمير يوم أحد، وكان اللواء بيده دفعه رسول الله ﷺ إلى عليّ».

١١ ـ التورّع عن البغي: كانت شجاعة الإمام من الشجاعات النادرة، ويزيدها تشريفاً وجلالاً أنها ازدانت بأجمل الصفات وهي التورع عن البغي والاستمساك بالمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

فمن تورعه عن البغي مع قوته البالغة وشجاعته النادرة أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال، وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن «لا تدعونّ إلى مبارزة، فإن دعيت إليها فأجب فإن الداعي إليها باغ، والباغي مصروع». وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له: إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسيفعلون».

وعلى من كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من تارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة، فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري، فصاح بين الصفين: من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أصحاب عليّ فقتله، ووقف عليه ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى: من يبارز؟ فخرج إليه ثالث، فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟ فأحجم الناس، ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه، وخاف الإمام علي أنّ يشيع الرعب بين صفوفه، فخرج إلى ذلك الرجل المدلّ بشجاعته وبأسه، فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله ﷻ يقول: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ ولو لم تبدءونا ما بدأناكم». ثم رجع إلى مكانه.

١٢ ـ الحلم والصفح: ويقول ابن أبي الحديد: «وأما الحلم والصفح فكان أحلم الناس على مذنب، وأصفحهم عن مسيء، وقد ظهر صحة ذلك يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم، وكان أعدى الناس له وأشدهم بغضاً فصفح عنه. وكان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد، وكان عليه السلام يقول: «ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى شب ابنه عبد الله»، فظفر به يوم الجمل فأخذه أسيراً فصفح عنه. وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة، وكان له عدوّاً، فأعرض عنه، أما إكرامه لأم المؤمنين السيدة عائشة فقد بعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت: «هتك سرى برجاله وجنده الذين وكلهم بي» فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة. وحاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيف وسبوه ولعنوه، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم، ونادى مناديه: ألاّ يجهز على جريح، ولا يقتل مستأسر، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن تحيز إلى

عسكر الإمام فهو آمن. ولم يأخذ من أثقالهم، ولا سبي زراريهم، ولا غنم شيئاً من أموالهم، ولو شاء أن يفعل كل ذلك لفعل، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو.

١٣ ـ العلم والفصاحة والبلاغة: إمام الفصحاء وسيد البلغاء، وعن ابن عباس أنه قال: «والله لقد أعطى عليّ بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وايم الله لقد شارككم أو شاركهم في العشر العاشر»، وكفى في ذلك قوله ﷺ: «أنا مدينة العلم أو مدينة الحكمة وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه».

وروى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء بسنده عن علي بن أبي طالب عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: «أنا دار الحكمة وعليّ بابها».

وقد أفاء الله عليه نعمة العلم والحكمة، فكان أعلم الناس بالسنة وأقضاهم، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: «تختصم الناس بسبع، ولا يحاجك أحد من قريش، أنت أولهم إيماناً بالله، وأدناهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم في الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزية».

ويقول الإمام: «اسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة، وفضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها»، وعن المسعودي أنه حفظ الناس عنه أربعمائة ونيفاً وثمانين خطبة يوردها على البديهة، وقال الشريف الرضي في خطبة نهج البلاغة «كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته سار كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. . .».

ولما قال ابن أبي محفن لمعاوية: «جئتك من عند أعيا الناس، قال له: ويحك، كيف يكون أعيا الناس، فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره».

ويكفي نهج البلاغة دلالة على أنه لا يجاري في الفصاحة ولا يباري في البلاغة.

ويقول الإمام: «كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع»، قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: قال علي بن أبي طالب: قيمة كل امرىء ما يحسن، ثم قال فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية، بل أوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مقصرة على الغاية. وقال ابن عائشة: ما أعرف كلمة بعد كلام الله ورسوله أخصر لفظاً ولا أعم نفعاً من قول عليّ «قيمة كل امرىء ما يحسن». وفي البيان والتبيين قيل لعلي بن أبي طالب عليه السلام: كم بين السماء إلى الأرض قال دعوة مستجابة، فقالوا كم بين المشرق إلى المغرب قال مسيرة يوم للشمس.

وفي الاستيعاب بسنده عن سعيد بن المسيب: ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب. وعن أبي الطفيل شهدت علياً يخطب وهو يقول: «سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل»، ولا شك أن الإمام كان عنده علم القرآن والتوراة والإنجيل، يقول ابن أبي الحديد: روى المدائني قال خطب عليه السلام فقال: لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم.

١٤ ـ الإمام علي أشعر الصحابة:

عن الجاحظ في كتاب البيان والتبيين وفضائل بني هاشم والبلاذري في أنساب قريش أن علياً أشعر الصحابة وأفصحهم وأخطبهم وأكتبهم، وعن تاريخ البلاذري كان أبو بكر يقول الشعر وعمر يقول الشعر وعثمان يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة، ويؤيد هذا الشعبي وسعيد بن المسيب.

والذي لا شك فيه أن الإمام كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه، وكان نقده للشعر نقد عليم بصير يعرف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب.

قال عليه السلام يوم صفين وقد بالغت في نصره همدان. ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج إنه من الشعر الذي لا يشك أن قائله الإمام:

لما رأيت الخيل تقرع بالقنا	فوارسها حمر العيون دوامي
وأقبل رهج في السماء كأنه	عمامة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند ذا الكلاع ويحصباً	وكندة في لخم وحيّ جذام
فيممت همدان الذين هم هم	إذا ناب أمر جنتي وحسامي
دعوت فلباني من القوم عصبة	فوارس من همدان غير لئام
فوارس من همدان ليسوا بعزل	غداة الوغى من شاكر وشبام
ومن أرحب الشم المطاعين بالقنا	وفهم وأحياء السبيع وسام
ومن كل حي قد أتتني فوارس	ذوو نجدات في اللقاء كرام
لهمدان أخلاق ودين يزينهم	وبأس إذ لاقوا وجد خصام

ويقول عليه السلام في ذم الناس:

المرء في زمن الإقبال كالشجرة	وحولها الناس ما دامت بها الثمرة
حتى إذا ما عرت من حملها انصرفوا	عنها عقوقاً وقد كانوا بها برره
وحاولوا قطعها من بعدها شفقوا	دهراً عليها من الأرياح والغبره
قلّت مروات أهل الأرض كلهم	إلا الأقل فليس العشر من عشره
لا تحمدن أمرأ حتى تجربه	فربما لم يوافق خُبْره خَبَره

وقال الإمام يذكر مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، ليلة الهجرة:

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصى	ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
محمد لما خاف أن يمكروا به	فوقّاه ربي ذو الجلال من المكر
وبت أراعيهم فتى ينشدونني	وقد وطنت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمناً	هناك وفي حفظ الإله وفي ستر

أقام ثلاثاً ثم زمت قلائص قلائص يفرين الحصى أينما يفرى

وأورد الطبري في تاريخه ما قاله الإمام بعد رجوعه من أحد، وقد خضب الدم يده إلى كتفه ومعه ذو الفقار فناوله فاطمةعليها السلام وقال خذي هذا السيف فقد صدقني اليوم، وأنشأ يقول:

أفاطم هاك السيف غير ذميم فلست برعديد ولا بمليم
لعمري لقد قاتلت في حب أحمد وطاعة رب بالعباد رحيم
وسيفي يكفي كالشهاب أهزّه أجذّ به من عاتق وصميم
فما زلت حتى فضّ ربي جموعهم وحتى شفينا نفس كل حليم

١٥ ـ معرفة القضاء والفرائض:

عن ابن مسعود: «أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب» وبسنده عنه: أعلم أهل المدينة بالفرائض علي بن أبي طالب، وعن عمر أنه قال: «عليّ أقضانا». وروى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء بسنده عن عليّ: «بعثني رسول اللهصلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقلت يا رسول الله تبعثني إلى اليمن ويسألونني عن القضاء ولا علم لي به، قال ادن، فدنوت فضرب بيده على صدري ثم قال: اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه، فلا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت في قضاء بين اثنين بعده».

ودخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية. فقال: صف لي عليّاً، قال اعفني. قال: لنصفه قال: أما إذ لا بد من وصفه فإنه كان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب، وكان فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، ويلبّينا إذا دعوناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوى

في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه - قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا، يتضرع إليه ثم يقول: «يا دنيا غري غيري، إلي تعرضت أم إليّ تشوقت؟! هيهات هيهات! قد بنتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق!».

١٦ - زهدة:

قال الشريف الرضي في مقدمة نهج البلاغة في علي عليه السلام: «ومن عجائبه التي انفرد بها وأمن المشاركة فيها أن كلامه في الزهد والمواعظ إذ تأمله المتأمل وخلع من قلبه أنه كلام مثله، ضمن عظم قدره، ونفذ أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنه من كلام من لا حظ له في غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، وقد قبع في كسر بيت، أو انقطع في سفح جبل، لا يسمع إلا حسه ولا يرى إلا نفسه».

وفي أسد الغابة، بسنده عن عمار بن ياسر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي بن أبي طالب: يا علي، إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها: الزهد في الدنيا، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً، ولا تنال الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب عليك. وقد قال عمر بن عبد العزيز: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب عليه السلام». وقال سفيان: «إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة».

وعن الحسن بن علي أنه قال: «لم يترك أبي إلا ثمانمائة درهم أو سبعمائة درهم فضلت من عطائه كان يعدها لخادم يشتر بها لأهله». وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: «دخلت على عليّ عليه السلام فإذا بين

يديه لبن حامض آذتني حموضته وكسر يابسة، فقلت: يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به». وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه الزهراء بيديها ـ وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول: «لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم».

وعن عبد الله بن أبي الهذيل قال: «رأيت علياً خرج وعليه قميص غليظ دارس إذا مد كم قميصه بلغ إلى الظفر، وإذا أرسله صار إلى نصف الساعد. وفي «أسد الغابة» بسنده عمن رأى على عليّ عليه السلام إزاراً غليظاً اشتريته بخمسة دراهم فمن أربحني فيه درهماً بعته. وفي «حلية الأولياء» عن الأرقم قال: رأيت علياً وهو يبيع سيفاً له في السوق، ويقول: من يشتري مني هذا السيف؟ فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته.

هذا هو الزهد، ولم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سبب دولة.

١٧ ـ العدالة:

إن زهده وعدله لا يمكن استقصاؤهما، وامتاز الحكم في عهد الإمام بالمساواة، فالناس في الحقوق سواء لا محاباة لقوي أو إجحاف بضعيف، وقد عمد إلى القطائع التي وزعت قبله على المقربين والرؤساء فانتزعها من القابضين عليها وردها إلى بيت مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنة المساواة، وقال: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الإماء لرددته». فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق».

ومن وصاياه لولاته: «أنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنهم خزان الرعية، ولا تجسموا أحداً عن حاجته، ولا

تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعن الناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتلمون عليها ولا عبداً، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم»، ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات «امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخرج بالتحية لهم ثم تقول: عباد الله: أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل لا فلا تراجعه. وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه وتوعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه، ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ولا تسوءن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى بقي ما فيه وفاء حق الله في ماله فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله».

أما دستوره في الولاة والعمال، فيتبين مما قاله للأشتر النخعي: «انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختياراً ولا تولهم محاباة وأثرة، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام، فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل في المطامع إسرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية».

أما دستوره في تحصيل الضرائب فيتلخص فيما كان يكتبه إلى واليه: «تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير

عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها. وإنما يعوز أهلها إسراف الولاة على الجميع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر».

وقد بلغ من عظيم عدل الإمام أنه وجد مع المال الذي جاء من أصبهان رغيفاً فقسمه سبعة أجزاء كما قسم المال وجعل على كل جزء جزءاً.

وفي أسد الغابة: بسنده عن رجل من ثقيف قال استعملني علي بن أبي طالب على مدرج سابور فقال: لا تضربن رجلاً سوطاً في جباية درهم، ولا تبيعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها، ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم، قلت: يا أمير المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك، قال: وإن رجعت ويحك إنما أمرنا أن تأخذ منهم العفو يعني الفضل. وهو أول من ساوى بين الناس في العطاء، وكان يأخذ كأحدهم، وقصته مع أخيه عقيل - حين طلب منه زيادة في عطائه فقال له اصبر حتى يخرج عطائي فلم يقبل، فأبى أن يعطيه أكثر من عطائه - معروفة، وكذلك خبره مع ولده الحسن حين استقرض شيئاً من عسل بيت المال ومع ابنته حين استعارت عقداً من بيت المال.

القرآن الكريم وَالإمام عليّ

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فرفع السائل يديه إلى السماء وقال: اللهم أشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً، وكان علي عليه السلام في الصلاة راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيها خاتم، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره، وذلك بمرأى من النبي ﷺ وهو في المسجد، فرفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السماء وقال: اللهم إن أخي موسى سألك فقال:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾. فأنزلت عليه قرآناً سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ونَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا. اللهم وإني محمد نبيك وصفيك، اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري. قال أبو ذر رضي الله عنه: فما أتم دعاءه حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل يا محمد اقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

ويروى أن حسان بن ثابت قال:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي ... وكل بطيء في الهدى ومسارع

أيذهب سعي في مديحك ضائعاً ... وما المدح في جنب الإله بضائع

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً فدتك نفوس القوم يا خير راكع
فأنزل فيك الله خير ولاية فثبتها في محكمات الشرائع

وسبب هذا الشعر ما رواه ابن عباس رضي الله عنه، أيضاً في سبب نزول هذه الآية قال: أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن قد آمن بالنبي ﷺ، فقالوا يا رسول الله إن منازلنا بعيدة، فلا نجد أحداً يجالسنا أو يخالطنا من دون هذا المسجد، وإن قومنا لما رأونا قد حدثنا الله ورسوله، وتركنا دينهم أظهروا العداوة لنا وأقسموا ألا يخالطونا ولا يؤاكلونا، فشق علينا، فبينما هم يشكون إلى النبي ﷺ، إذ نزلت الآية على رسول الله ﷺ:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾. وإذا بالمؤذن يؤذن بالصلاة، صلاة الظهر، فخرج رسول الله إلى المسجد والناس يصلون بين راكع وساجد، وقائم وقاعد، فإذا مسكين يسأل فدخل الرسول ﷺ فقال: أأعطاك أحد شيئاً؟ قال نعم، قال من؟ قال ذاك الرجل القائم، ذاك علي بن أبي طالب! فكبر النبي ﷺ عند ذلك وقرأ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾. فأنشأ حسان بن ثابت ما ذكرناه، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان مع علي عليه السلام أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

وروى أنه لما نزلت ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾. قال الرسول عليه الصلاة والسلام: سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي، ففعل، فكان عليّ عليه السلام يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ كلاماً إلا وعيته وحفظته ولم أنسه.

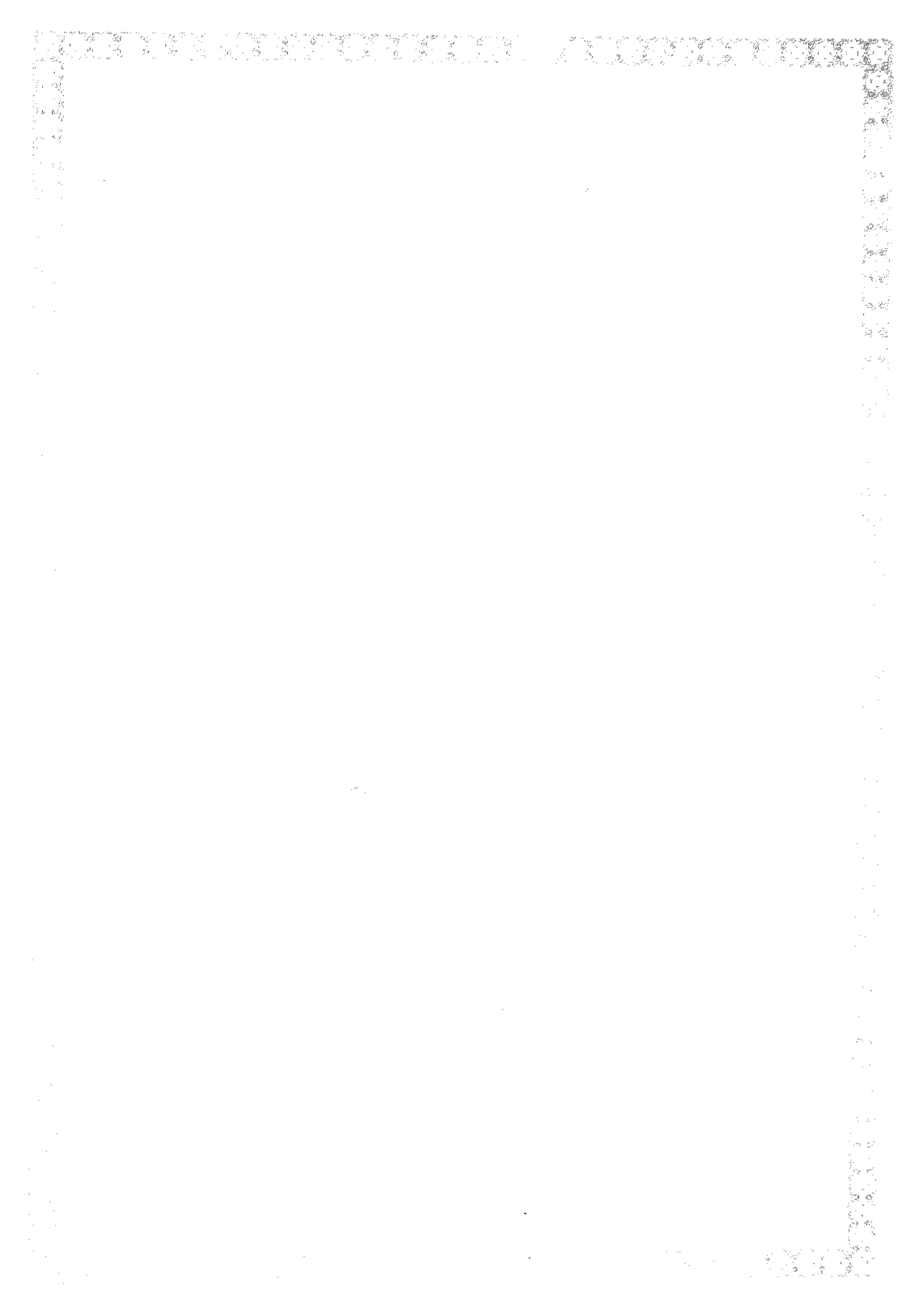
وفي تفسير الطبري: حدثني عبد الله بن رستم، سمعت بريدة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي: «يا علي إن الله أمرني أن أدنيك». وذكر مثله. وروى الطبري في تفسيره أيضاً، قال حدثنا علي بن سهل، حدثنا

الوليد بن مسلم عن علي بن حوشب، سمعت مكحولاً يقول: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، ثم التفت إلى علي فقال: سألت الله أن يجعلها أذنك، قال علي: فما سمعت شيئاً من رسول الله ﷺ، فنسيته.

وفي حلية الأولياء بسنده عن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه علي عن رسول الله ﷺ قال: يا علي «إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي» وأنزلت هذه الآية: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، فأنت أذن واعية لعلمي.

ونقل الإمام أبو إسحق الثعلبي رحمه الله في تفسيره: أن سفيان ابن عيينة رحمه الله تعالى: سئل عن قوله تعالى:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾، فيمن نزلت؟ فقال للسائل، لقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك، حدثني أبي عن جعفر ابن محمد، عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ لما كان «بغدير خم» نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد علي عليه السلام وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، فشاع ذلك فطار في البلاد وبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهري، فأتى رسول الله ﷺ على ناقة له فأناخ راحلته ونزل عنها، وقال يا محمد: «أمرتنا عن الله عز وجل: أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلنا منك، وأمرتنا أن نصوم رمضان فقبلنا، وأمرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت إبن عمك تفضله علينا، فقلت «من كنت مولاه فعلي مولاه»، فهذا شيء منك أم من الله عز وجل؟». فقال النبي ﷺ: «والذي لا إله إلا هو إن هذا من الله عز وجل» فولى الحرث ابن النعمان يريد راحلته وهو يقول: «اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم»، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله عز وجل بحجر سقط على هامته فخرج من دبره فقتله، فأنزل الله عز وجل: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾.



أحاديث الرسول عن الإمام عليّ

أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام عن الإمام علي - وبخاصة في فضله ومحبته - كثيرة ومتواترة، وعن الصديقﷺ في حديثه المشهور الذي سمي حديث الخيمة قال: رأيت رسول اللهﷺ خيم خيمة وهو يتكىء على قوس عربية، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال: «يا معشر المسلمين؛ أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقيّ الجد ردىء الولادة».

في سبق إسلام علي عليه السلام:

بينت فيما سبق بما لا يدع مجالاً للشك أن الإمام أول من أسلم، فتقدمه في الإسلام من الأمور الواضحة لمن رجع إلى السنة النبوية وإلى أقوال الصحابة.

الترمذي بسنده عن أنس بن مالك: قال بُعث النبيﷺ، يوم الإثنين وصلى علي يوم الثلاثاء. وعن أبي رافع مولى النبيﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «صليت أنا أول يوم الإثنين، وصلت خديجة آخر يوم الإثنين، وصلى عليّ يوم الثلاثاء من الغد، وصلينا مستخفين قبل أن يصلي معنا أحد سبع سنين وأشهراً».

وعن عمرو بن ميمون عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من أسلم من الناس بعد خديجة علي بن أبي طالب، ويقول أحد الشعراء في صفين:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً ... جزاك ربك منا فيه إحسانا
نفسي الفداء لأولى الناس كلهم ... بعد النبي على الخير مولانا
أخي النبي ومولى المؤمنين معاً ... وأولى الناس تصديقاً وإيماناً

وابن المغازلي بسنده عن عبد الرحمن مولى أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: صلت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين، وذلك أنه لم يصل معي أحد غيره. وعن سلمان موفق ابن أحمد الثعلبي بسنده عن عفيف الكندي، قال: كنت تاجراً فقدمت مكة أيام الحج فنزلت في دار العباس بن عبد المطلب، فبينما أنا والعباس إذ جاء رجل شاب استقبل الكعبة، وجاءه غلام فقام عن يمينه، وجاءت امرأة فقامت خلفه، فركعوا وسجدوا، ثم رفعوا رؤوسهم فقلت: يا عباس أمر عظيم، فقال: أمر عظيم، هذا محمد ابن أخي يقول إن الله بعثه رسولاً وإن كنوز كسرى وقيصر ستفتح على يدي من آمن به، وهذه زوجته خديجة بنت خويلد، وهذا الغلام ابن أخي عليّ بن أبي طالب، وعن ابن مسعود قال أول شيء علمته من أمر النبي ﷺ أني قدمت من مكة فنزلت دار العباس ابن عبد المطلب، فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا، ومعه صبي وامرأة، فاستلم الحجر ثم استلمه الغلام ثم المرأة، ثم طافوا بالبيت سبعاً، فقلنا يا عباس إن هذا الدين لم نعرفه فيكم قال هذا ابن أخي محمد، والمرأة زوجته خديجة بنت خويلد، والغلام علي بن أبي طالب. ما على وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة.

النظر إلى وجه الإمام عبادة:

عن أبي سعيد الخدري، عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ: النظر إلى علي عبادة. وقال ابن الأثير في النهاية في حديث عمران بن الحصين، قال رسول الله ﷺ: النظر إلى وجه عليّ عبادة، وقيل

معناه أن علياً كان إذا برز قال الناس لا إله إلا الله ما أشرف هذا الفتى، لا إله إلا الله ما أعلم هذا الفتى، لا إله إلا الله ما أكرم هذا الفتى، أي ما أتقى، لا إله إلا الله ما أشجع هذا الفتى، فكانت رؤيته تحملهم على كلمة التوحيد.

فصاحته ودرايته:

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن ابن عوف، يا عبد الرحمن؛ أنتم أصحابي، وعلي بن أبي طالب مني وأنا من عليّ، فمن قاسه بغيره فقد جفاني، ومن جفاني آذاني، ومن آذاني فعليه لعنة ربي، يا عبد الرحمن إن الله أنزل عليّ كتاباً مبيناً، وأمرني أن أبين للناس ما نزل إليهم ما خلا علي بن أبي طالب فإنه لم يحتج إلى بيان لأن الله تعالى جعل فصاحته ودرايته كدرايتي، ولو كان الحلم رجلاً لكان علياً، ولو كان العقل رجلاً لكان حسناً، ولو كان السخاء رجلاً لكان حسيناً، ولو كان الحسن شخصاً لكان فاطمة بل هي أعظم، إن فاطمة ابنتي خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً.

وذكر اليعقوبي في الجزء الثاني من تاريخه أن النبي خرج ليلاً بعد رجوعه من حجة الوداع منصرفاً إلى المدينة، فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له: «غدير خم» لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، وقام خطيباً، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه». وجاء في التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي أن عمر بن الخطاب لقي علياً بعد ذلك فقال له: «هنيئاً لك يابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»، وذكر أبو تمام الطائي هذا اليوم في قصيدة قال فيها:

ويوم الدوح دوح غدير خمّ ... أبان له الولاية لو أطيعا
ولم أر مثل ذاك اليوم يوماً ... ولم أر مثله حقّاً أضيعا

قال الرسول: إن الإمام علياً أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، وإمام

المتقين وقائد الغر المحجلين. روى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء بسنده، عن أنس في حديث، قال رسول الله ﷺ: «يا أنس، أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين، وسيد المسلمين... قال أنس: قلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، وكتمته، إذا جاء عليّ، فقال: من هذا يا أنس؟ فقلت: عليّ، فقام مستبشراً فاعتنقه، ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه، ويمسح عرق عليّ بوجهه، قال علي: يا رسول الله، لقد رأيتك صنعت شيئاً ما صنعت بي من قبل، قال: وما يمنعني، وأنت تؤدي عني وتسمعهم صوتي، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي؟

وروى الحاكم في المستدرك، وصححه بسنده عن أسعد بن زرارة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى إليّ في عليّ ثلاث: أنه سيد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين».

وكان رسول الله ﷺ يطلق عليه سيد العرب. وعن السيدة عائشة قال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي سيد العرب» فقلت: يا رسول الله، ألست سيد العرب؟ قال: «أنا سيد ولد آدم، وعليّ سيد العرب».

وعن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ وهو آخذ بصبع علي بن أبي طالب، وهو يقول: «هذا أمير البررة، قاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله».

النبي كان يشعر بنوع من الإخاء للإمام علي:

لا يختلف الرواة والمحدثون أن النبي ﷺ طالما ردد هذه العبارة وهو ينظر إلى علي: «هذا أخي»، وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ، وهو في محفل من أصحابه: «إن تنظروا إلى آدم في علمه، ونوح في همه، وإبراهيم من خلقه، وموسى في مناجاته، وعيسى في سنه، ومحمد في هديه وعلمه، فانظروا إلى هذا المقبل»، فتطاول الناس بأعناقهم، فإذا هو عليّ ابن أبي طالب. وعن سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «حبك إيمان، وبغضك نفاق، وأول من

يدخل الجنة محبك، وأول من يدخل النار مبغضك». وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال: آخى النبيﷺ بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد، فقالﷺ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة». وفي رواية أخرى أن الرسولﷺ قال: «أنت أخي وصاحبي». ويقول ابن عباس في ذلك: لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره. وهو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فر منه غيره، وهو الذي غسله وأدخله قبره»[1]. وهذه الخصال والمزايا هي التي تفرض له هذه المكانة فيختاره النبيﷺ صاحباً وأخاً.

حب الرسول للإمام:

ومهما يختلف الرواة في تأويل الأحاديث التي ذكرناها فالذي يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم أن علياً كان أحب الناس إلى النبيﷺ، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق. لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين، فأي عجب أن يخص بالحب من بينهم إنساناً كان ابن عمه الذي كفله وحماه، وكان ربيبه الذي أوشك أن يتبناه، وكان زوج ابنته العزيزة عنده، وكان بديله في الفراش ليلة الهجرة التي همّ المشركون فيها بقتل من يبيت في فراشه، وكان نصيره الذي أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته، وتلميذه الذي علم من فقه ما لم يعلمه ناشىء في سنه.

حب النبيﷺ للإمام حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل الرواة، ولا إلى تفسير النصوص، لأنها حقيقة طبيعية أو حقيقية بديهية قائمة من وراء كل خلاف، ومما لا خلاف فيه كذلك أن الرسولﷺ كان لا يكتفي بحبه إياه، بل كان يسره ويرضيه أن يحببه إلى الناس، وكان يسوؤه

(١) الاستيعاب.

ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه[1].

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الإمام في سرية ليقبض الخمس فاصطفى منه سبية، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك رسول الله، وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول عليه الصلاة والسلام، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم، ثم انصرفوا إلى رحالهم، فقام أحد الأربعة، فحدث الرسول ما رأى، فأعرض عنه، وظن أصحابه أنه لم يسمعه، فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه، فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه، فقال: «ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ علي مني وأنا منه، وهو وليّ كل مؤمن بعدي».

وقال لأحدهم في روايات أخرى: أتبغض علياً؟ قال: نعم، قال: لا تبغضه، فإن له الخمس أكثر من ذلك، أي أكثر من السبية التي اصطفاها... لا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حباً.

وبعث رسول الله الإمام إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم، فأبى، فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم، وتولى شكايته سعد بن مالك الشهيد، فقال: يا رسول الله، لقينا من علي من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق... ومضى يعدّد ما لقيه، حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه وهتف به: «يا سعد بن مالك بن الشهيد، بعض قولك لأخيك علي، فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله». وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى فقام رسول الله فيهم خطيباً يقول لهم: «أيها الناس لا تشكوا علياً، فوالله إنه لجيش في ذات الله».

إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحب علياً ويحببه إلى الناس.

سُئِلَتْ السيدة عائشة: «أي الناس أحب إلى رسول الله ﷺ، فقالت:

---

(١) عبقرية الإمام: للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد.

فاطمة. فقيل من الرجال، قالت زوجها، إنه كان ما علمت صوَّاماً قوّاماً.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى علي فجاء، فقال له: «أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، ومن أحبك فقد أحبني، وحبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوك عدوي، وعدوي عدو الله، طوبى لمن أحبك والويل لمن أبغضك».

وعن عمار بن ياسر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا علي، طوبى لمن أحبك وصدق فيك، والويل لمن أبغضك وكذب فيك».

وعن أنس بن مالك قال: «والله الذي لا إله إلا هو لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: عنوان صحيفة المؤمن من حب علي بن أبي طالب».

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو اجتمع الناس على حب علي بن أبي طالب لما خلق الله ﷻ النار».

وعن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ في شأن علي: «من أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، ومن أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله».

ويقول الإمام عليه السلام: «مرضت فعادني رسول الله ﷺ، فدخل وأنا مضطجع، فأتى إلى جنبي، فسجاني بثوبه، فلما رآني قد ضعفت قام إلى المسجد يصلي، فلما قضى صلاته جاء فرفع الثوب عني ثم قال: قم يا علي، فقد برئت، فقمت فكأني ما اشتكيت فقال ما سألت ربي شيئاً إلا أعطاني وما سألت الله شيئاً إلا سألت لك» وهذا الحديث يبين لنا منتهى العطف وقصارى الحب.

الرسول كان يهتم بتدريب الإمام وكفالته:

كان النبي ﷺ يحب علياً كما رأيت حبّاً عظيماً، وكما ذكرت كان أحب الناس إليه، ويقول الأستاذ العقاد: إنه كان يمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات، ولكن على أن تختاره الناس طواعيه وحبّاً لا أن يكون

اختياره حقاً من حقوق العصبية الهاشمية، فإنه ﷺ قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ولم يحذر من خطر على الدين أشد من حذره أن يحسبه الناس سبيلاً إلى الملك والدولة في بني هاشم، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا، وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة، لينفي هذه الظنة، ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأي والمشيئة، فالتزم في التمهيد للإمام وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة، فأرسله في سرية إلى فدك لغزو قبيلة بني سعد اليهودية، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام، وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ويبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارة بيت الله، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك.

موقف الإمام عليّ بعد وَفاة الرسُول

عندما توفي الرسول الله ﷺ ذهل الناس، وكانوا بين مصدق ومكذب، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صاح في القوم: من قال إن محمداً قد مات ضربت عنقه، إنه يكلم ربه كما فعل أخوه موسى من قبل. أما الصديق فكان حكيماً فقد قال: «يا أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

أما الإمام عليّ ومعه لفيف كبير من بني هاشم وغيرهم، فكانوا بجانب الحدث الشريف.

قال المفيد: ولم يحضر دفنه أكثر الناس لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر في أمر الخلافة، وفات كثيراً منهم الصلاة عليه لذلك.

وفي هذا الوقت قال العباس لعلي: امدد يدك أبايعك، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله، فلا يختلف عليك اثنان، فأجابه علي ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم: لنا برسول الله يا عم شغل. وعكف على تجهيز الرسول وتكفينه لا يأبه بشيء من أمور الدنيا ولا تخرجه عما هو فيه دعوة القوم ليحضر مشاورتهم في شأن الخليفة ولا فيمن يكون الخليفة.

ونترك الإمام علياً عليه السلام ومشغوليته في تجهيز الرسول لنرى أن الناس انقسموا بعد وفاة الرسول إلى عدة أحزاب: حزب سعد ابن عبادة رئيس الخزرج، حزب الشيخين وهم جل المهاجرين، حزب عليّ وهم بنو هاشم ومعهم قليل من المهاجرين منهم الزبير وكثير من الأنصار، ويقول الطبري: إن أكثرهم أرادوا البيعة لعلي. ونضيف إلى هذه الأحزاب الثلاثة حزب عثمان من بني أمية، وحزب سعد ابن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة.

ومن رأى الإمام علي أن ترشيح سعد بن عبادة جرأ الناس. ولا يبعد أن يكون سعد لما رأى تصميم المهاجرين على عدم إعطاء الحق لأهله طلبه لنفسه. ويقول ابن قتيبة في روايته: إن سعداً قال لابنه قيس: «إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامي لمرضى، ولكن تلق مني قولي فأسمعهم»، ففعل؛ وذكر فضل الأنصار ونصرتهم الدين وإيوائهم الرسول، وأنهم أحق الناس بهذا الأمر.

ويقول الطبري: إنه لما بلغ أبا بكر أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة جاء ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فقال الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: منا الأمراء ومنكم الوزراء.

ويقول ابن قتيبة: فقام الحباب بن المنذر فقال: يا معشر الأنصار، أملكوا على أيديكم فإنما الناس في فيئكم وظلالكم، ولن يجير مجير على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم، أنتم أهل العز والثروة والعدد والنجدة، وإنما ينظر الناس ما تصنعون، فلا تختلفوا، فيفسد عليكم رأيكم، أنتم أهل الإيواء والنصرة، وإليكم كانت الهجرة، ولكم في السابقين الأولين مثل ما لهم، وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم، والله ما عبدوا الله علانية إلا في بلادكم، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم، فأنتم أعظم الناس نصيباً في هذا الأمر، وإن أبى القوم فمنا أمير ومنهم أمير.

واشتد الخلاف، فقام أبو عبيدة وقال: يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير. واشتدت المناقشة واشترك فيها بشير بن سعد (وهو والد النعمان بن بشير)، وعمر، وأبو عبيدة، وأبو بكر. وأخيراً انتهت الأزمة كما يقول الطبري: «فقال أبو بكر: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا، فقالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك، أبسط يدك نبايعك. وبذلك تمت البيعة للصديق، وبايعه جميع المسلمين ما عدا بني هاشم، أو على الأحرى العباس وأولاده وعليّ الذي لم يبرح دار الرسول حتى وسده مثواه الأخير، وهو يبكي ويقول: «إن الصبر جميل إلا عنك يا رسول الله، وإن الجزع لقبيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل وإنه قبلك وبعدك لجلل».

وانصرف عليّ غاضباً من الصورة التي تمت بها البيعة، لأنه كان يعتقد أنه أحق بها من غيره، وجاءه أبو بكر يحف به عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، ودعاه إلى البيعة فأبى، وخرج الزبير بسيفه.

وقال عمر: عليكم بالرجل فخذوه، فأخذوا منه السيف.

فقال له: ابن عم رسول الله وختنه على ابنته يريد أن يشق عصا المسلمين.

وقال العباس: ما أحد أولى بمقام رسول الله منه.

قال علي: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي. أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليه بالقرابة من النبي ﷺ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً، ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم، لما كان محمد منكم، فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة، فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، نحن أولى برسول الله حيّاً وميتاً، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون.

عمر: إنك لست متروكاً حتى تبايع.

علي: احلب حلباً لك شطره وشد له اليوم يردده عليك غداً.

أبو عبيدة: يابن عم، إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالاً واستطلاعاً، فسلم لأبي بكر هذا الأمر. فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق، في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك.

علي: الله الله يا معشر المهاجرين؛ لا تخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم. فاعتذر إليه أبو بكر بخوف الفتنة لو أخّر. ثم أشرف على الناس وقال: أيها الناس، هذا علي بن أبي طالب لا بيعة لي في عنقه، وهو بالخيار من أمره، ألا وأنتم بالخيار جميعاً في بيعتكم، فإن رأيتم لها غيري فأنا أول من يبايعه. فلما سمع ذلك الإمام علي زال ما كان قد داخله وصفت نفسه فقال: «أجل، لا نرى غيرك. امدد يدك»، فبايعه هو والنفر الذين كانوا معه.

وهناك رواية ذكرها اليعقوبي وذكرها غيره من المؤرخين، هي أن جماعة من المهاجرين والأنصار اجتمعوا مع علي بن أبي طالب في دار فاطمة بنت رسول الله يدعون إلى مبايعته، وبينهم خالد بن سعيد يقول: فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك»، وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم بدار السيدة الزهراء، فأتيا في جماعة حتى هجموا الدار، وخرج عليٌّ ومعه السيف. فلقيه عمر فصارعه فصرعه. وكسر سيفه، ودخلوا الدار، فخرجت فاطمة عليها السلام وقالت: «لتخرجن أو لأكشفن شعري ولأعجنَّ إلى الله»، فخرجوا من كان في الدار، وأقام القوم أياماً، ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع، ولم يبايع علي إلا بعد وفاة فاطمة أي بعد ستة أشهر، وقيل في رواية إنه بايع بعد أربعين يوماً.

وروى الطبري في تاريخه قال: «أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، فقال والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة، فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف فعثر، فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه.

وفي رواية أخرى أن عمر قال لعلي: إن لم تبايع أبا بكر لأحرقن دارك، قال علي: أو تحرقها وفيها ابنة رسول الله؟ قال: أحرقها وفيها ابنة رسول الله. وفي ذلك يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم:

وقولة لعلي قالها عمر ... أكرم بسامعها أنعم بملقيها
حرقت دارك لا أبقى عليك بها ... إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبي حفص يفوه بها ... أمام فارس عدنان وحاميها
فاذكرهما وترحم عند ذكرها ... أعاظم ألهوا في الكون تأليها

هذا هو المشهور عن موقف علي بن أبي طالب من بيعة أبي بكر، وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلف بني هاشم أو غيرهم من المهاجرين، ويذكرون أن أبا بكر بويع بعد السقيفة بالإجماع. ويروي الطبري حديثاً بإسناده أن سعيد بن زيد سئل: أشهدت وفاة رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قيل: فمتى بويع أبو بكر، قال: يوم مات رسول الله ﷺ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة، قيل: أخالف عليها أحد؟ قال لا، إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد. لولا أن الله ﷻ ينقذهم من الأنصار، قيل: فهل قعد أحد من المهاجرين قال: لا، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم.

وفي رواية أن علي بن أبي طالب كان في بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر قد جلس للبيعة فخرج في قميص له ما عليه إزار ولا رداء عجلاً كراهية أن يبطىء حتى بايعه ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتحلله ولزم مجلسه.

وهناك رواية أخرى تقول إن الصديق صعد المنبر عقب البيعة فنظر في

وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا به فجاء؛ فقال له: ابن عمة رسول الله ﷺ، وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين. فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً فدعا به فجاء، فقال له: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين. فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه.

ورواية أخرى أنه بعد وفاة السيدة الزهراء بستة أشهر أرسل الإمام إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد، وتلقاه وعنده بنو هاشم فقال: «إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا».

والذي لا شك فيه أن الإمام كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

ومع هذا اليقين الراسخ عنده في حقه وحق غيره ترجع إلى سيرته وأحاديثه فنرى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية في هذه الحالة من النفرة، والنقمة، ولا نجد في خطبه ومساجلاته التي ذكر فيها أبو بكر وعمر وعثمان كلمة تستغرب من مثله أو يتجاوز بها حد الحجة التي تنهض بحقه، بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يجاوزه إلى جمجمة غضب تفلت معها بوادر اللسان، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه.

وقد أعان الخلفاء الثلاثة برأيه وعمله، وجاملهم مجاملة كريمة بمسلكه ومقاله، ولم يبد منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم، ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم، وفي ذلك يقول لمعاوية: «ذكرت إبطائي عن الخلفاء وحسدي إياهم والبغي عليهم، فأما البغي فمعاذ الله أن يكون، وأما الكراهة لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك».

وأولى أن يقال إن دلائل وفائه في حياتهم وبعد ذهابهم كانت أظهر

من دلائل جفائه، فإنه احتضن ابن أبي بكر محمداً أو كفله بالرعاية، ورشحه للولاية حتى حسب عليه، وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله، وقد سمي ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه، وهم أبو بكر وعمر وعثمان.

بقي أن نقول إن بعض المؤرخين قد أحص على الإمام أن الخلافة قد تأخرت نيفاً وعشرين سنة، فلم يخلف النبيﷺ، ولم يخلف أبا بكر وعمر. ويسارع العلامة الأستاذ عباس العقاد في الإجابة عن هذا بأن نرجع إلى العوائق التي حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه، لنعلم منها الذي كان في أيدي الحوادث والعائق الذي كان في يديه أو كانت له قدرة معقولة عليه.

فكما رأيت أن الإمام أنكر إجحافاً أصابه في تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة الرسولﷺ، وأنه كان يرى أن قرابته من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده، لأنها فرع من النبوة على اعتقاده، ومما لا شك فيه أن شعوره هذا طبيعي في النفس الإنسانية كيفما كان حظها من الزهد والقناعة، لأن تخطيه مع هذه المزية التي ترشحه للبيعة، يشبه أن يكون قدحاً في مزاياه الأخرى من علم وشجاعة، وسابقة جهاد، وعفة عن المطامع، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة على الغض من قدره، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها، والحط من مزاياها، ومواجهتها بالنفرة والكراهة، إلا أن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد، ولا يؤتم فيها برأي واحد ولا بحق واحد، وقد يضحى في سبيلها بالعظيم والعظماء الكثيرين إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء، ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميزان عليّ هي العائق الأول في سائر الموازين، ومنها ميزان النبيﷺ، فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات في قريش وفي القبائل العربية عامة، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة، وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عنه عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين، وقد رضي في سبيل هذا

المقصد الحكم أن يجعل بيت أبي سفيان صنواً للكعبة في أمان اللاجئين إليه، وأصهر إلى أبي سفيان، وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه، وربما حسن لديه أن تؤول الخلافة إلى علي بعده إذا شاء المسلمون ذلك، ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضياً، كاختيار غيره من أنصاره، وأصحابه، ويستوي منهم القريب والبعيد. وقد بينت ذلك سابقاً.

أما العائق الثاني فيرى بعض المؤرخين أن قريشاً كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بها العصبية التي أوقعت التنافس بين بيوتها وبني هاشم، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين والمشركين، وقتل من أعلام بني أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية[1]، والوليد بن عتبة خاله، وحنظلة أخاه، وجميعهم من قتلاه في يوم بدر عدا من قتلهم في الوقائع والغزوات الأخرى، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم في الإسلام، وزادهم حقداً عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار، وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد: «كأنها حالة لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه من إظهار ما في النفوس، وهيجان ما في القلوب، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله».

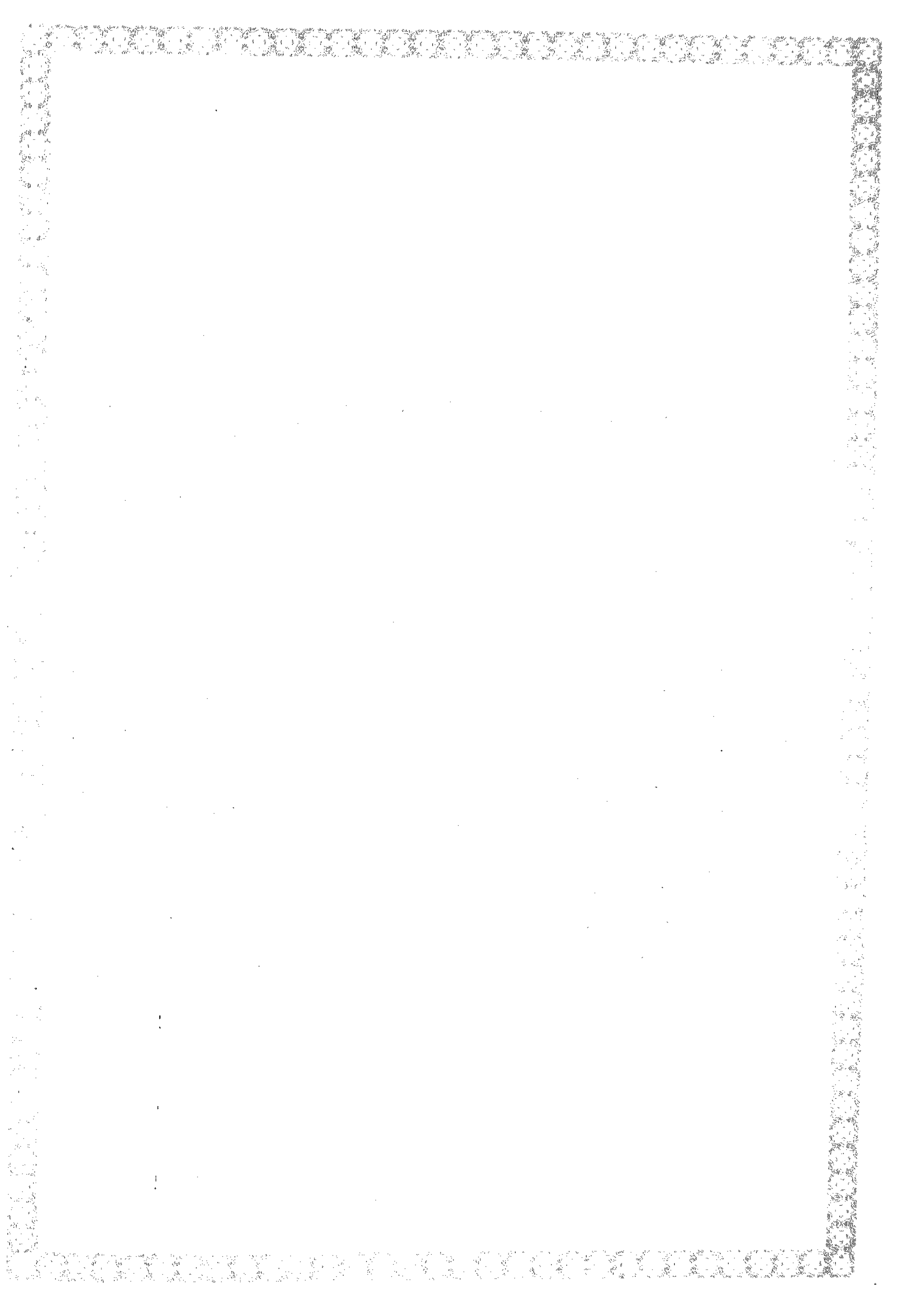
وقد علم الإمام هذا من قريش عندما يئس من مودتها وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها فقال: «مالي ولقريش؟ أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقلنهم مفتونين، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته، فقل لقريش فلتضجّ ضجيجها».

---

(١) وفي ذلك قال الإمام لمعاوية: «وعندي السيف الذي أعضضت به أخاك وخالك وجدك يوم بدر» وقيل إن الإمام قتل ببدر ٣٥ رجلاً من المشركين، ومنهم العاص بن سعيد بن العاص الأموي.

أما الذين سبقوا الإمام إلى الخلافة فهم: أبو بكر وعمر وعثمان، وهم من شيوخ الصحابة، فإذا خرجت العصبية الهاشمية من مجال الترجيح كانوا هم أقرب الناس إلى أن يختارهم المسلمون، وذلك للسن، فعند وفاة الرسول صلى الله عليه كانت سن الإمام لا تتجاوز الثلاثين، وإن كان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق، فقد بلغ الإمام الخامسة والأربعين، ولكن ما كاد الإمام يبلغ هذه السن حتى بدأت المطامع الدنيوية تزداد، واعتقد الطامعون أن في لين عثمان بعض الأمل وفضلوا هذا على شدة الإمام، وعسر حسابه، وزيادة على ذلك بقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها، ولم يكفكف منها تقادم العهد، كما قال ابن أبي الحديد.

هذه هي العوائق التي صادفته بعد وفاة رسول الله ﷺ، فهل كان الإمام مستطيعاً أن يخلف أحداً بعد وفاة الرسول بعمل من جهده وسعي من تدبيره، فأعياه السعي والتدبير، فلم يكن الإمام مسؤولاً عن نظرة العصبية التي نظرت بها قريش إلى السيادة الهاشمية، وكذلك هو غير مسؤول عن سنه التي تأخرت به عن الوصول إلى الخلافة، ولو كان في زماننا هذا لكانت عقبة السن ميزة تؤهله لتولي الخلافة.



بيعة الإمام عَليّ

في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعندما ساءت الحالة، جمع الخليفة بعض وزرائه للتشاور في إصلاح الحال، ولم يكن الإمام علي عليه السلام بين المدعوين، بل كان المدعوون إلى الاجتماع من مخالفيه وهم: معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن سرح وعبد الله بن عامر، وهم الولاة الذين شكاهم علي وجمهرة الصحابة، قال لهم الخليفة الثالث: «إن لكل امرىء وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إليَّ أن أعزل عمالي، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ».

وكان رأيهم جميعاً رأياً فيه الغرض والمصلحة الشخصية. ولننظر إلى المحاورة التي دارت، وإلى التناقض في كلام عمرو بن العاص كنموذج لما كان يجري في هذا الاجتماع.

قال عمرو بن العاص وهو بين السخط على ولاية فاتها، والطمع في ولاية يرجوها: «أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعدل، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً».

ثم أسمع إلى قوله بعد أن تفرق المجتمعون وانفرد بالخليفة وحده، وقال: «والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك، ولكني علمت أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قول فيثقوا به، فأقود إليك خيراً، وأدفع عنك شرّاً..».

هذا هو جو الاجتماع الذي عقد عند الخليفة، وهؤلاء هم الوزراء، ومن ورائهم مروان بن الحكم، وهو كفيل بأن يمنع كل ناصح أمين عن الخليفة، وفي مقدمتهم الإمام علي عليه السلام.

وتطورت الحالة من سيىء إلى أسوأ، وكانت ثورة، وكان الثوار قد وفدوا إلى المدينة المنورة من مصر والكوفة والبصرة، وبلغ السيل الزبي، كما قال عثمان رضي الله عنه، فكتب إلى عليّ يذكر له ذلك ويقول: «إن أمر الناس ارتفع في شأني فوق قدره، وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمي، طمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه.

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلي وإلا فأدركني ولما أمزق»

وانتهت الثورة على الخليفة الثالث رضي الله عنه بمقتله، ولم يرحمه الثوار، وحاصروه في داره أربعين يوماً، ولن نتعرض في هذه العجالة إلى الأسباب التي أدت إلى قتله، ولكن الثوار لم يذكروا له أياديه البيضاء على الإسلام والمسلمين، ولم يذكروا أن جيوشه صانت هيبة الدولة الإسلامية بعد مقتل الفاروق عمر، ولم يذكروا له أنه جمع المصحف الشريف على ترتيبه الحالي.

وعندما نقل الخبر إلى المسجد، وفيه كان علي جالساً في نحو عشرة من المصلحين راعه منظر القادم وسأله: ويحك! ما وراءك؟ قال: والله لقد فرغ من الرجل، فصاح به: تبّاً لكم آخر الدهر! وأسرع إلى دار الخليفة المقتول فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ فأجاب طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل، ولكنها الفتنة، وكان من رأي الإمام علي أن يقاتل دفاعاً عن الخليفة المحصور، واستأذن أمير المؤمنين عثمان في القتال ولكنه رفض خشية أن تقوم بين المسلمين حرب أهلية، فآثر أن يضحي بنفسه ولا يكون سبباً في حرب شعواء، واجتمع المهاجرون والأنصار، ومعهم الثوار وبقية

الجماهير، ومن بينهم طلحة والزبير، فهرعوا إلى الإمام علي وهو معتزل في داره، فأحاطوا به من كل جانب، وقالوا له: «يا أبا الحسن إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله، فقال الإمام: لا حاجة لي في أمركم، فمن اخترتم رضيت به، ولا تريدوني، فإني لكم وزيراً خير لكم مني أميراً، فقالوا: والله لا نعلم أحداً أحق بها منك، وما نختار غيرك، فقال الإمام: دعوني والتمسوا غيري»، ثم أعرب لهم عن السر في توقفه في قبول الخلافة قائلاً: «أيها الناس، إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول». وقال أيضاً: «إني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولا تركتموني فإنما أنا كأحدكم، ألا وإني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه». ويصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إصرار المجتمعين على بيعته وإقبالهم عليه بقوله: «فما راعني إلا والناس كعرف الضبع[1] ينثالون عليّ من كل جانب، حتى لقد وطىء الحسنان وشقّ عطفاي[2] مجتمعين حولي كربيضة الغنم»[3].

وأخيراً قال لهم: «إن بيعتي لا تكون سرّاً، ولكن ائتوا إلى المسجد، فمن شاء أن يبايعني بايعني». وخرج إلى المسجد فبايعه الناس، وكان أول من بايعه طلحة بن عبد الله، فنظر إليه رجل يعتاف يقال له حبيب بن ذؤيب فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون! أول يد بايعت يد شلاء، ولا يتم هذا الأمر». وسرعان ما نكث بها العهد، ثم الزبير، ثم بقية الناس من المهاجرين والأنصار.

والرواة مختلفون في بيعة الإمام بعد قتل الخليفة، فقوم يقولون إن

---

(١) عرف الضبع: الشعر الكثير الذي يكون على عنق الضبع، يضرب به المثل في الكثرة والازدحام.

(٢) شق عطفاي: المراد به خدش جانبيه من كثرة زحام الناس عليه من أجل البيعة.

(٣) ربيضة الغنم: الطائفة الرابضة من الغنم.

علياً بويع إثر قتل عثمان مباشرة، وقيل إن المدينة ظلت أياماً وليس للناس فيها خليفة، وإنما يدبر أمورهم فيها الغافقي بن حرب، أحد زعماء الثورة، على أنه قد تمت البيعة للإمام في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام في رواية، وبثمانية أيام في روايات أخرى.

وقد عمت المسرة جميع المسلمين، وقد وصف الإمام مدى سرور الناس ببيعته بقوله: «وبلغ الناس بيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب».

والخلاصة أن البيعة جاءت إلى أمير المؤمنين منقادة راغمة، ولم يكن غيره يصلح لها، ولذلك كان عليه السلام صادقاً كل الصدق حين قال: «إن العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر». ومن العجيب أن يتهم معاوية الإمام علياً بقتل عثمان رضي الله عنه وقد بذل كل جهد مستطاع في نصرته وحمايته، حتى إنه عهد إلى ولديه الحسن والحسين أن يقفا مدافعين عنه بسيفهما مع أنه كان يضن بهما خشية أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الأرض، ولم يحرك معاوية ساكناً في نصرة عثمان رضي الله عنه، وكان معاوية متمكناً في ولايته بالمال والرجال، وكان حاضراً الاجتماع الذي عقده أمير المؤمنين عثمان من وزرائه ومستشاريه للتفكير في طلب الثوار.

بعد البيعة:

كانت البيعة يوم الجمعة ٢٥ من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة.

واتبع الإمام من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها، ومنذ اللحظة الأولى أخذ في تجنيد قوة الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها، فعزل الولاة: الذين استباحوا الغنائم المحظورة، وتمرغوا بالدنيا وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين، وأثاروا على عثمان سخط السراد وسخط الفقهاء المتحرجين والحفاظ الغُيُر على فضائل الدين، ورد القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوي الرحم

فصرفتها عن وجوهها التي جعلت لها من إصلاح المرافق وإغاثة المفتقرين إليها على شرعة الإنصاف والمساواة، ورجع إلى خطة أبي بكر وعمر في تجنب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات مخافة عليهم من غوايتها وإبعاداً لهم من دسائس الشيع والعصبيات، ولم يوسع الإمام للناس في العطاء ولم يمنحهم النوافل من المال ولم ييسر لهم أمورهم، وإنما استأنف فيهم سيرة عمر من حيث انقطعت، ومضى بهم في طريقه من حيث وقف، وفرق الإمام عماله إلى البلدان، وكتب إلى معاوية يستقدمه، وعند فراغه من الكتاب جاء المغيرة بن شعبة فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: «كتاب كتبته إلى معاوية، وأريد أن أبعث الرسول». فقال: «يا أمير المؤمنين عندي لك نصيحة فاقبلها مني»، قال: «هات»، قال: «إنه ليس أحد يتشغب عليك غير معاوية، وفي يده بلاد الشام، وهو ابن عم عثمان وعامله، فابعث إليه بعهده تلزمه طاعتك، فإذا استقرت قدماك رأيت فيه رأيك». فقال عليّ: لا والله لا يراني الله مستعيناً بمعاوية أبداً، ولكن إلى ما نحن فيه، فإن أجاب وإلا حاكمته إلى الله»، ثم خرج المغيرة، فلما كان الغد رجع ثانياً، وقال يا أمير المؤمنين إني قد كنت جئتك بالأمس وأشرت عليك بما أشرت وخالفتني، ثم إني رأيت ليلتي هذه أن الرأي ما رأيت فأرسل إلى معاوية الكتاب الذي كتبت، فإن قدم وإلا فاعزله، فقال: أفعل إن شاء الله تعالى.

فخرج المغيرة بن شعبة وفرّ إلى مكة، وكان يقول: نصحت عليّاً فلما لم يقبل غششته.

ويقول ابن عباس: «أتيت عليّاً عليه السلام بعد مبايعته الناس له فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به، فقلت له بعد أن خرج: ما كان يقول لم هذا؟ فقال: قال لي مرة قبل مرته هذه، إن النصيحة أن نقرّ معاوية على عهده وابن عامر وعمال عثمان حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس، ثم أعزل من شئت منهم وأبق من شئت منهم، فأبيت عليه ذلك، ثم عاد إليّ الآن، فقال: إني الآن رأيت أن تصنع الذي رأيت أن تعزل من تختار وتقر من تثق

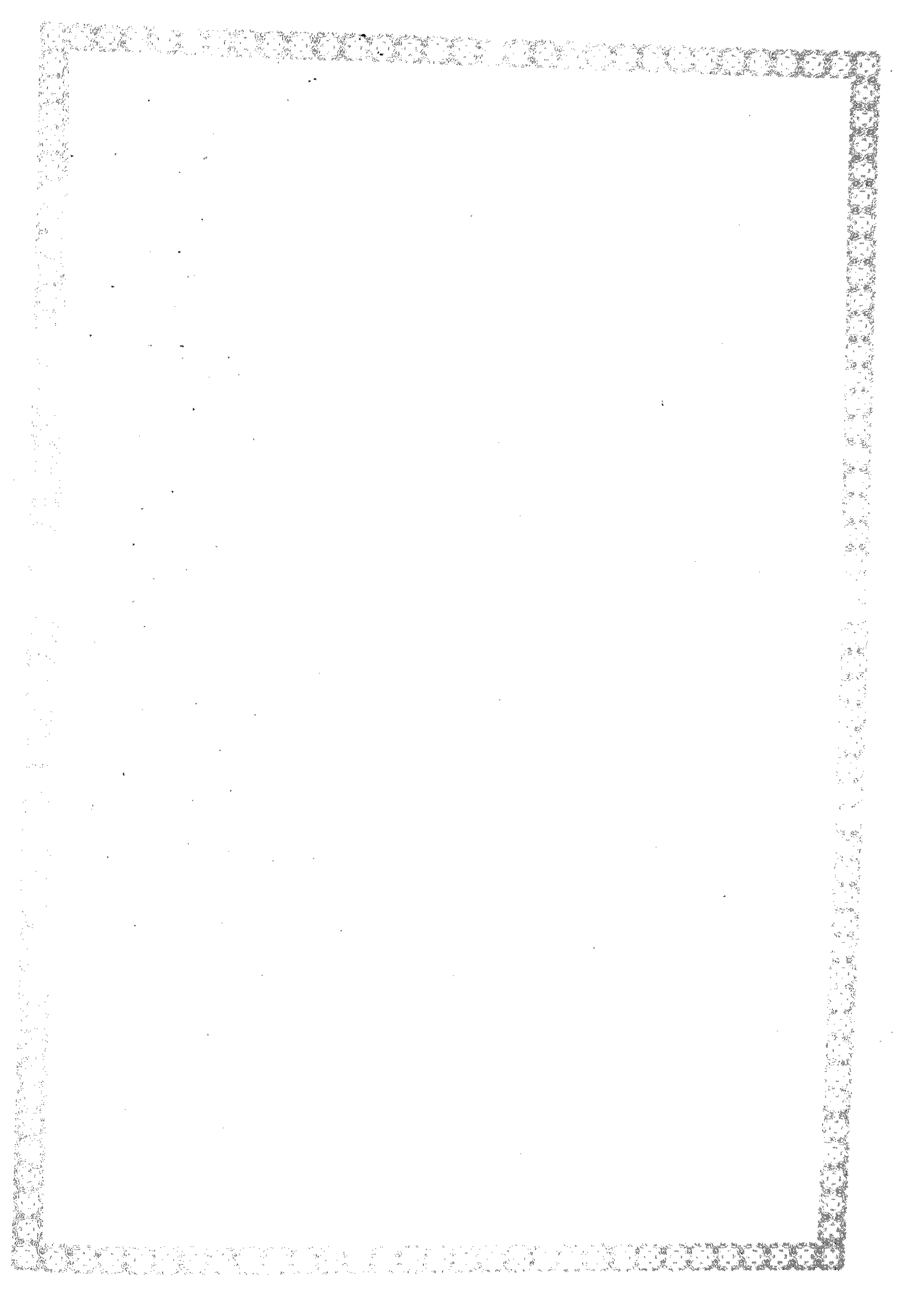
به. قال ابن عباس: فقلت لعلي: أما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة الثانية فقد غشك، قال: وكيف نصحه لي؟ قلت: لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى أثبتهم على عملهم سكنوا، ومتى عزلتهم يقولون أخذ الأمر بغير حق، وهو قتل صاحبنا عثمان، مع أني لا آمن عليك من طلحة والزبير»، وكان طلحة والزبير قد طلبا من الإمام ولاية العراق واليمن فكان رد علي عليهما: «بل تبقيان لآنس بكما»، وكان ابن عباس قد أشار على الإمام بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة، فكان رد الإمام على ابن عباس: «ويحك إن العراقيين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع، ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي».

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه، فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه، وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يميل دائماً إلى مفاتحة الخارجين عليه بالمهادنة أو المصالحة، ويفضل إقناع خصمه قبل قتاله، فنادى الزبير بين الصفوف وقال له: أتذكر أنك يوماً صافحتني وعانقتني بحضرة رسول الله ﷺ فقال لك: أتحبه؟ فقلت: كيف لا أحبه وهو أخي وابن خالي؟ فقال لك: «أما إنك ستقاتله وأنت ظالم له». فقال الزبير: «لقد أذكرتني ما أنسانيه الدهر، لو ذكرت ذلك ما خرجت، والله لا أقاتلك أبداً». وانسحب من المعركة، فعَيّره ابنه عبد الله بن الزبير، وقال له تعيرنا نساء قريش، فقال يا بني لقد أذكرني ما أنسانيه الدهر، العار ولا النار، ولما سألته السيدة عائشة رضي الله عنها عما جرى من حديث بينه وبين الإمام قال: «والله ما وقفت موقفاً ولا شهدت مشهداً في شرك ولا إسلام إلا ولي فيه بصيرة، وأنا اليوم على شك من

أمري وما أكاد أبصر موضع قدمي». وشق الصفوف وخرج من بينهم آخذاً طريق مكة ثم قال:

اخترت عاراً على نار مؤججة ... ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى عليّ بأمر لست أجهله ... عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن ... فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني

وسنتكلم تفصيلاً في الأبواب القادمة عن حروب الإمام علي.



حروب الإمام عليّ
المأسَاة الأولى

حرب الجمل:

جاء في شرح النهج أنه لما قتل عثمان رضي الله عنه كانت أم المؤمنين عائشة بمكة، ووصلها خبر قتله وهي بسرف، فلم تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: «بعداً لعثمان وسحقاً! إيه ذا الأصبع! إيه أبا شبل! إيه يابن عم! لكأني أنظر إلى أصبعه وهو يبايع له، حثُّوا الإبل ودعدعوها».

وفي قول آخر أن السيدة عائشة لما بلغها قتل الخليفة وهي بسكة أقبلت مسرعة وهي تقول! إيه ذا الأصبع! لله أبوك! أما إنهم وجدوا طلحة لها كفئاً. فلما انتهت إلى سرف استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي، فقالت له: ما عندك؟ قال: قتل عثمان، قالت: ثم ماذا؟ قال: ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار، بايعوا عليّاً. فقالت: لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا، ويحك! انظر ماذا تقول، قال: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين، قيل: فولولت. فقال لها: ما شأنك يا أم المؤمنين، والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه، ولا أحق، لا أرى له نظيراً في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته؟ قال: فما ردت عليَّ جواباً.

ويقول الطبري فيما رواه بسنده وذكره ابن الأثير أيضاً: «فلما كانت أم المؤمنين بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث، يقال له عبيد بن

أبي سلمة، فسألته، فقال: قتل عثمان وبقوا ثمانياً. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال أخذها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز، اجتمعوا على بيعة عليّ، فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك. ردوني ردوني. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه. فقال لها: ولم والله؟ إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر! قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا: وقولي الأخير خير من قولي الأول. وقيل إن ابن أم كلاب قال:

فمنك البداء ومنك الغير	ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام	وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله	وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا	ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا نذر	يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها	وما من وفى مثل من قد غدر

ودخلت مكة وقصدت الحجر فسترت فيه، فاجتمع الناس حولها، فقالت:

«أيها الناس، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة، اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه، وقد استعمله أمثالهم قبله. ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادوا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام، والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثة أو الثوب من دونه، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء».

فقال عبد الله بن عامر الحضرمي ـ وكان عامل عثمان على مكة ـ

هأنذا أول طالب. فكان أول مجيب، وتبعه بنو أمية على ذلك. وروي الطبري عن عبيد بن عمر القرشي قال: قدم عليها في مكة رجل يقال له أخضر، فقالت: ما صنع الناس؟ فقال: قتل عثمان المصريين! قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم، والله لا نرضى بهذا.

وطلب طلحة والزبير من علي أن يوليهما المصرين البصرة والكوفة، فقال: بل تقيمان معي، فإني لا أستغني عن رأيكما، وقيل استشار ابن عباس فلم يشر به، قال ابن أبي الحديد: فاستأذناه في العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث البيعة يريدان، وما رأيهما غير العمرة؛ قال: فأعيدا البيعة لي ثانية، فأعاداها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا قال: والله لا ترونهما إلا في فتنة يقتلان فيها! قالوا: يا أمير المؤمنين فمر بردهما عليك. قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وقدم طلحة والزبير من المدينة، فلقيا عائشة فقالت: ما وراءكما؟ فقالا: إنا تحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً، ولا يمنعون أنفسهم، فأمرتهم عائشة بالخروج إلى المدينة، فقالوا: نأتي الشام، فقال ابن عامر قد كفاكم الشام معاوية، فأتوا البصرة، فإن لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى.

وعن المفيد في كتاب الاختصاص: «لما صممت عائشة على الخروج إلى البصرة أتت أم سلمة، وكانت بمكة، فقالت: يابنة أبي بكر، كنت كبيرة أمهات المؤمنين، وكان رسول الله ﷺ يقمأ في بيتك، وكان يقسم لنا في بيتك، وكان ينزل عليه الوحي في بيتك... لقد زرتني وما كنت زوارة... قالت: إن ابني وابن أختي (عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر) أخبراني أن الرجل قتل مظلوماً، وأن بالبصرة مائة ألف سيف يطاوعون، فهل لك أن أخرج أنا وأنت لعل الله يصلح بنا بين فئتين متناجزتين، أو قالت متناحرتين؟

فقالت أم سلمة: لو ذكرتك من رسول الله ﷺ خمساً في علي لنهشت بها نهش الرقشاء ذات الخبب (الخبث)، أتذكرين إذ كان رسول الله ﷺ يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً، فأقرع بينهم، فخرج سهمي وسهمك، فبينا نحن معه، وهو هابط من قديد ومعه عليّ يحدثه، فذهبت لتهجمي عليه، فقلت لك: رسول الله معه ابن عمه، ولعل له إليه حاجة، فعصيتني، ورجعت باكية، فسألتك، فقلت: إنك هجمت عليهما، فقلت له: يا علي إنما لي من رسول الله ﷺ يوم من تسعة أيام، وقد شغلته عني، فأخبرتني أنه قال لك: أتبغضينه؟ فما يبغضه أحد من أهلي ولا من أمتي إلا خرج من الإيمان! أتذكرين هذا يا عائشة؟ قالت: نعم، قالت: ويوم أراد رسول الله ﷺ سفراً وأنا أحش له حشيشاً، فقال «ليت شعري! أيتكنّ صاحبة الجمل الأديب[1]، تنبحها كلاب الحوأب؟»، فرفعت يدي من الحشيش، وقلت: أعوذ بالله أن أكونها فقال: «والله لا بد لإحداكن أن تكونها أتقى الله يا حميراء أن تكونيها». أتذكرين هذا يا عائشة؟!

قالت نعم.

قالت: ويوم تبدّلنا لرسول الله ﷺ، فلبست ثيابي، ولبست ثيابك، فجاء رسول الله ﷺ فجلس إلى جنبك، فقال: «أتظنين يا حميراء أني لا أعرفك؟! أما إن لأمتي منك يوماً مرّاً، أو يوماً أحمر». أتذكرين هذا يا عائشة؟ قالت: نعم.

قالت: ويوم كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ فجاء أبوك وصاحبه يستأذنان فدخلنا الخدر، فقالا: «يا رسول الله، إنا لا ندري قدر مقامك فينا، فلو جعلت لنا إنساناً نأتيه بعدك».

قال: أما إني أعرف مكانه، وأعلم موضعه، ولو أخبرتكم به لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن عيسى بن مريم.

---

(١) الأديب: الكثير وبر الوجه. وفك الإدغام لمناسبة الحوأب.

فلما خرجا خرجت إليه أنا وأنت، وكنت جريئة عليه، فقلت: من كنت جاعلاً لهم؟ فقال: خاصف النعل. وكان علي بن أبي طالب يصلح نعل رسول الله ﷺ إذا تخرقت، ويغسل ثوبه إذا اتسخ؛ فقلت: ما أرى إلا عليّاً. فقال: هو ذاك أتذكرين هذا يا عائشة؟ قالت نعم. ما أقبلني لوعظك، وأسمعني لقولك! فإن أخرج في غير حرج، وإن أقعد ففي غير بأس.

فخرج رسولها فنادى في الناس: من أراد أن يخرج فإن أم المؤمنين غير خارجة. فدخل عليها عبد الله بن الزبير فنفث في أذنها، وفتلها في الذروة والغارب فخرج رسولها ينادي: من أراد أن يسير فليسر فإن أم المؤمنين خارجة، فلما كان من ندمها أنشأت أم سلمة تقول[1]:

لو كان معتصماً من زلة أحد	كانت لعائشة الرتبى على الناس
كم سنة لرسول الله ذاكرة	وتلو آي من القرآن مدارس
قد ينزع الله من قوم عقولهم	حتى يكون الذي يقضي على الناس
فيرحم الله أم المؤمنين لقد	كادت تبدل إيحاشاً بإيناس

فقالت لها عائشة: «شتمتني يا أخت».

فقالت لها أم سلمة: «ولكن الفتنة إذا أقبلت غطت على البصيرة، وإذا أدبرت أبصرها العاقل والجاهل»[2].

وطلبوا من حفصة المسير معهم إلى البصرة فأجابتهم، فمنعها أخوها عبد الله بن عمر، وجهزهم يعلي بن أمية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم كانت معه، وجهزهم ابن عامر بمال كبير.

ويقول ابن الأثير:

---

(١) روى الطرسي في الاحتجاج محاورة أم سلمة مع أم المؤمنين بطريق آخر، كما أورد الصادق عليه السلام الأبيات بتفاوت.

(٢) أورد ابن أبي الحديد في شرح النهج هذه المحاورة.

وناد مناديها أن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان، وليس له مركب وجهاز فليأت، فحملوا ستمائة على ستمائة بعير. وأعطى يعلى بن أمية عائشة جملاً اسمه عسكر اشتراه بثمانين ديناراً فركبته، وساروا في ستمائة، وقيل تسعمائة، وقيل ألف من أهل المدينة ومكة، ولحقهم الناس، فكانوا في ثلاثة آلاف رجل، ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان ومروان ابن الحكم وسائر بني أمية. ويقول الطبري:

وأمرّت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، فكان يصلي بهم في الطريق وبالبصرة حتى قتل. قال: فتركت الطريق ليلة، ثم أتوا البصرة في عام خصيب وتمثلت:

دعى بلادَ جموع الظلم إذ صلُحت فيها المياهُ وسيري سيرَ مذعورِ
تخيري النبت فارعى ثَم ظاهرةً وبطن واد من الضِّمَّار ممطور

وروى الطبري بسنده عن المغيرة بن الأخنس، قال: لقي سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق، فقال: أين تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل؟ قال ابن الأثير: يعني عائشة وطلحة والزبير. اقتلوهم ثم أرجعوا إلى منازلكم، لا تقتلوا أنفسكم، قالوا: بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً. وإلى ذلك يشير مهيار:

وللقتيل يلزمون دمه وفيهم القاتل غير من قتل

فخلا سعيد بطلحة والزبير فقال: إن ظفرتما فلمن تجعلان الأمر؟ قالا: لأحدنا، أينا اختاره الناس، قال: بل اجعلوه لولد عثمان، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه، قالا: ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم، قال: فلا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف، فرجع ورجع معه جماعة. يقول الطبري: وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق، فبكوا على الإسلام، فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم، فكان يسمى يوم النحيب.

وفي المفيد: أنه لما بلغ علياًعليه السلام نكث طلحة والزبير بيعته،

واجتماعهما مع عائشة على التأليب عليه، خطب بالمدينة فقال: «أما بعد فإن الله بعث محمداً للناس كافة، وجعله رحمة للعالمين، فصدع بما أمر به، وبلغ رسالات ربه، فلمّ به الصدع، ورتق به الفتق، وآمن به السبل، وحقن به الدماء، وألف به بين ذوي الإحن والعداوة والوغر في الصدور والضغائن الراسخة في القلوب، ثم قبضه الله إليه حميداً، وكان من بعده ما كان من التنازع في الإمرة، فتولى أبو بكر، وبعده عمر، ثم تولى عثمان، فلما كان من أمره ما عرفتموه أتيتموني فقلتم: بايعنا، فقلت: لا أفعل، فقلتم: بلى، فقلت: لا، وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم فجذبتموها حتى تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتى ظننت أنكم قاتلي، وأن بعضكم قاتل بعضاً، فبسطت يدي فبايعتموني مختارين، وبايعني في أولكم طلحة والزبير طائعين غير مكرهين، ثم لم يلبثا أن استأذناني في العمرة، والله يعلم أنهما أرادا الغدرة، فجددت عليهما العهد في الطاعة وألا يبغيا الأمة الغوائل فعاهداني، ثم لم يفيا لي، ونكثا بيعتي، ونقضا عهدي، فعجباً لهما من انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما لي، ولست بدون أحد الرجلين، ولو شئت أن أقول لقلت، اللهم احكم عليهما بما صنعا في حقي وصغرا من أمري.

وفي شرح النهج أن علياً خطب ـ لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة ـ فقال: «أيها الناس إن عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير، وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه، أما طلحة فابن عمها، وأما الزبير فختنها، والله لو ظفروا بما أرادوا ـ ولن ينالوا ذلك أبداً ـ ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع فيهما شديد. والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة إلا في معصية الله وسخطه حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة، إي والله، ليقتلن ثلثهم، وليهربن ثلثهم، وليتوبن ثلثهم، وإنها التي تنبحها كلاب الحوأب، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان، ورب عالم قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه، حسبنا الله ونعم الوكيل، فقد قامت الفتنة، فيها الفئة الباغية، أين المحتسبون؟ أين

المؤمنون؟ مالي ولقريش! أما والله لقد قتلتم كافرين، ولأقتلنهم مفتونين، وما لنا إلى عائشة من ذنب إلا أنا أدخلناها في حيزنا، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته، فقل لقريش فلتضج ضجيجها. ثم نزل.

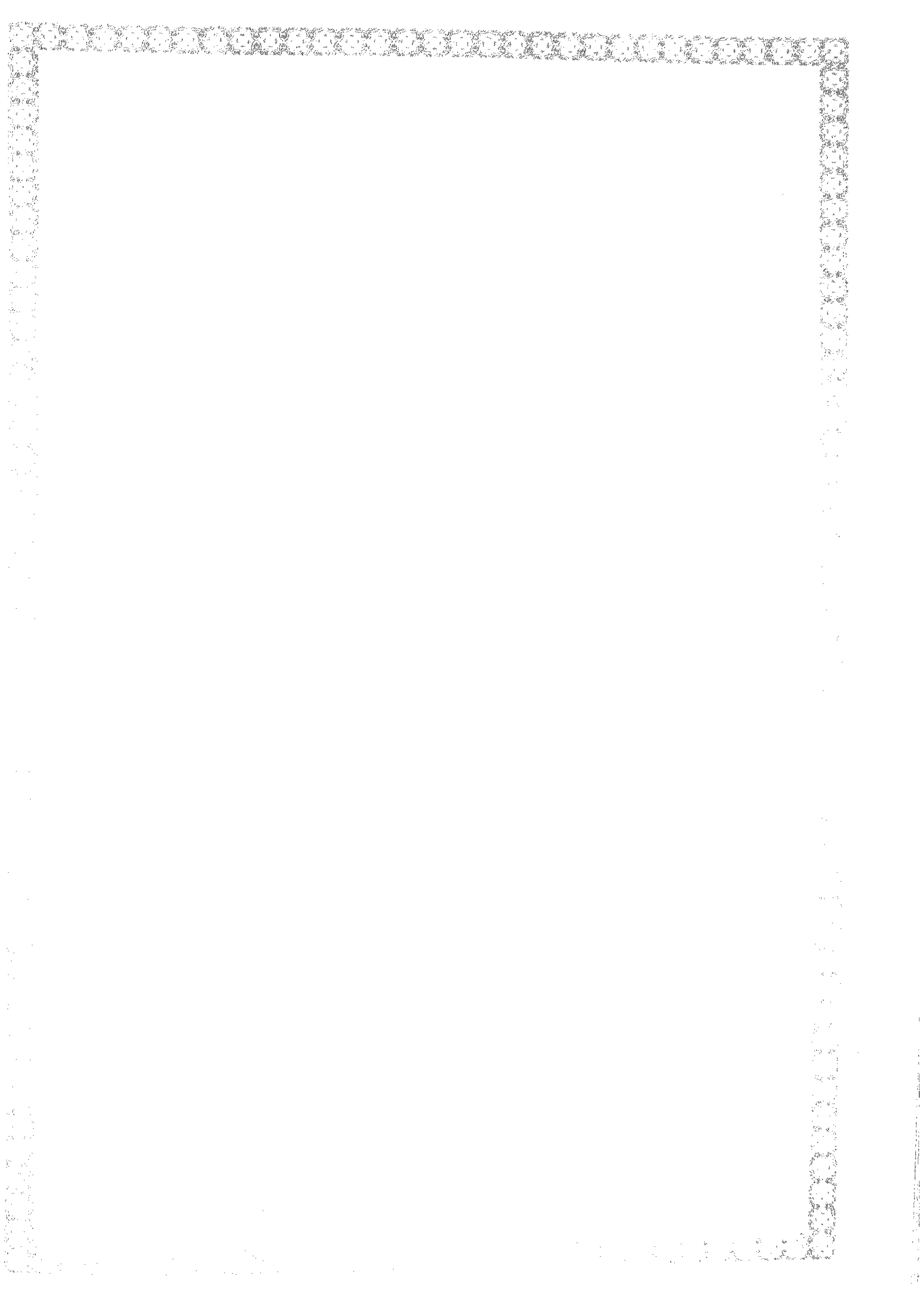
قال ابن الأثير: ولما بلغ علياً خروجهم إلى العراق وعاوجوه أهل المدينة فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم، فتثاقلوا، فلما رأى زياد بن حنظلة تثاقلهم قال له: من تثاقل عنك فإنا نخف معك فنقاتل دونك.

وقالت أم سلمة: يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصى الله، وأنك لا تقبله مني، لخرجت معك، وهذا ابني عمرو، وهو والله أعز عليّ من نفسي يخرج معك، ويشهد مشاهدك، فخرج معه ولم يزل معه، واستعمله على البحرين. واستخلف عليٌّ على المدينة تمام بن العباس، وقيل سهل بن حنيف، وعلى مكة قثم بن العباس، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل، وهو يرجو أن يدركهم فيردهم قبل وصولهم إلى البصرة، أو يوقع بهم. وسار من المدينة إلى الربذة، فأتاه الخبر بأنهم سبقوه.

وقال المفيد: لما نزل أمير المؤمنين عليه السلام «الربذة» قال: أما بعد فإن الله بعث محمداً وليس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة، فساق الناس إلى منجاتهم، أما والله ما زلت في ساقها ما غيرت ولا بدلت ولا خنت، حتى تولت بحذافيرها. مالي ولقريش. أما والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإن مسيري هذا عن عهد إلى فيه، أما والله لأبقرن الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته! ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيزنا.

وأرسل علي عليه السلام إلى المدينة فأتاه ما يريد من دابة وسلاح: وأتاه وهو بالربذة جماعة من طيىء، فقيل له: هذه جماعة قد أتتك، منهم من يريد

الخروج معك، ومنهم من يريد التسليم عليك. قال: جزى الله كليهما خيراً، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح، والراية مع محمد بن الحنفية، وعلى الميمنة عبد الله بن العباس، وعلى الميسرة عمر بن أبي سلمة، وعليّ على ناقة حمراء يقود فرساً كميتاً حتى نزل بفيد، فأتته أسد وطيىء، فعرضوا عليه أنفسهم فقال: ألزموا قراركم، في المهاجرين كفاية.



أول شهادة زور في الإسلام

وسارت أم المؤمنين عائشة ومن معها حتى مروا بماء يدعى الحوأب، فنبحتهم كلابه، فقالوا: أي ماء هذا؟ قيل: هذا ماء الحوأب، فصرخت عائشة بأعلى صوتها، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته، ثم قالت: «أنا والله صاحبة كلاب الحوأب». وقالت: ردوني. وأناخت وأناخوا حولها يوماً وليلة، فقال لها عبد الله بن الزبير: إنه كذب. وجاءوا لها بأربعين رجلاً، وقيل بخمسين من الأعراب رشوهم، فشهدوا أن هذا ليس بماء الحوأب، وكانت أول شهادة زور أقيمت في الإسلام. وسارت أم المؤمنين في طريقها.

روى الحكم في المستدرك عن أم سلمة قالت: ذكر النبيﷺ خروج بعض أمهات المؤمنين، فضحكت السيدة عائشة، فقال انظري يا حميراء ألا تكوني أنت.

وعن قيس بن أبي حازم: لما بلغت أم المؤمنين بعض ديار بني عامر نبحت عليها الكلاب. فقالت: أي ماء هذا؟

قالوا: الحوأب.

قالت: ما أظنني إلا راجعة.

فقال الزبير: لا تقدمي ويراك الناس ويصلح الله ذات بينهم.

قالت: ما أظنني إلا راجعة، سمعت رسول اللهﷺ يقول: كيف بإحداكن إذا نبحتها كلاب الحوأب!

ويقول الطبري: ولم يزل بها عبد الله بن الزبير وهي تمتنع، فقال لها: النجاء النجاء! قد أدرككم علي بن أبي طالب. فارتحلوا نحو البصرة، فلما

كانوا قريباً منها أرسلت عبد الله بن عامر بن كريز إلى البصرة وأقامت بالحفير، ولما بلغ ذلك عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل الإمام أرسل إليها عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي، فانتهيا إليها بالحفير، فأذنت لهما فدخلا وسلما، وسألاها عن مسيرها، فقالت: ما مثلي يعطي لبنيه الخبر، إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ، وأحدثوا فيه، وأووا المحدثين فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسوله، ومع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا عذر، فسفكوا الدم الحرام، وأنهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراءنا، وما ينبغي لهم من إصلاح هذه القصة. وقرأت:

«لا خير في كثير من نجواهم...»، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكر نهاكم عنه، فخرجا من عندها وأتيا طلحة فقالا: ما أقدمكم؟

قال: الطلب بدم عثمان.

قالا: ألم تبايع علياً؟!

قال: بلى، والسيف على عنقي.

وأتيا الزبير، فقالا له مثل ذلك فأجابهما بمثل قول طلحة.

ورجعا إلى عثمان، ونادى مناديها بالرحيل، فدخلا على عثمان فقال أبو الأسود:

يابن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئماً وشمرَ

ويقول أبو مخنف: لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حفر أبي موسى قريباً من البصرة أرسل عثمان بن حنيف، عامل عليّ على البصرة إلى القوم أبا الأسود الدؤلي يعلم له علمهم، فجاء حتى دخل على أم المؤمنين عائشة ـ ودارت بينهما المحاورة الآتية، فسألها عن مسيرها.

السيدة عائشة: أطلب بدم عثمان.

أبو الأسود: إنه ليس بالبصرة من قتله عثمان أحد.

السيدة عائشة: صدقت، ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله، أنغضب لكم من سوط عثمان، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم؟!

أبو الأسود: ما أنت من السوط والسيف، إنما أنت حبيس رسول الله ﷺ، أمرك أن تقرّى في بيتك، وتتلى كتاب ربك، وليس على النساء قتال، ولا لهن الطلب بالدماء، وإن علياً لأولى بعثمان منك، وأمس رحماً، فإنهما ابنا عبد مناف.

السيدة عائشة: لست منصرفة حتى أمضي لما قدمت له، أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي؟

أبو الأسود: أما والله لنقاتلن قتالاً أهونه الشدائد.

ودارت محاورة أخرى بين أبي الأسود والزبير وطلحة، وتكلمت أم المؤمنين فحمدت الله وقالت: كان الناس يتجنون على عثمان ويزرون على عماله، ويأتوننا بالمدينة فيستثيروننا فيما يخبروننا عنهم، فننظر في ذلك فنجده برّاً تقياً وفيّاً، ونجدهم فجرة غدرة كذبة، فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا عذر إلا أن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره: أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله. وقرأت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين: فرقة قالت: صدقت وبرّت، وقال آخرون: كذبتم، والله ما نعرف ما جئتم به. فتحاثوا وتحاصبوا، فلما رأت عائشة ذلك انحدرت ومال بعض أصحاب ابن حنيف إلى عائشة وبقي بعضهم معه.

قال الطبري وابن الأثير: وأقبل جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة، فهتكت سترك، وأبحت حرمتك، إنه من رأى قتالك يرى قتلك، إن كنت أتيتنا

طائعة فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس.

ويقول الطبري: كتبت أم المؤمنين لما قدمت البصرة إلى زيد ابن صوحان بالكوفة: «من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان، أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا، فإن لم تفعل فخذِّل الناس عن عليّ». فكتب زيد بن صوحان إلى عائشة: «أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك، وإلا فأنا أول من ينابذك». قال زيد بن صوحان: رحم الله أم المؤمنين! أمِرت أن تلزم بيتها، وأمرنا أن نقاتل، فتركت ما أمرت به وأمرتنا به، وصنعت ما أمرنا به، ونهتنا عنه.

ويقول الطبري أيضاً: إنه لما قدمت عائشة ومن معها البصرة قال لهم عثمان بن حنيف: ما نقمتم على صاحبكم؟ فقالوا: لم نره أولى بها منا، وقد صنع ما صنع، قال: فإن الرجل أمرني، فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له على أن أصلي أنا بالناس حتى يأتينا كتابه، فوقفوا عنه. فكتب فلم يلبث إلا يومين أو ثلاثة حتى وثبوا على عثمان عند مدينة الرزق فظفروا به، وأرادوا قتله، ثم خشوا غضب الأنصار فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه وضربوه وحبسوه، وأصبح طلحة والزبير بعد أخذ ابن حنيف وبيت المال والحرس في أيديهما، فجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر، وقام طلحة والزبير خطيبين فقالا: يا أهل البصرة توبة لحوبة، إنما أردنا أن نستعتب أمير المؤمنين عثمان فغلب السفهاء الحلماء فقتلوه، فقال الناس لطلحة: يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا، فقال الزبير هل جاءكم مني كتاب في شأنه، ثمَّ ذكر قتل عثمان وأظهر عيب علي، فقام إليه رجل من القيس فقال: يا معشر المهاجرين، أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ، فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما توفي رسول الله ﷺ بايعتم رجلاً منكم، فرضينا وسلمنا ولم تستأمرونا في شيء، ثم مات، واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا، فرضينا وسلمنا، فلما توفي جعل أمركم إلى

ستة فاخترتم عثمان عن غير مشورتنا، ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم علياً عن مشورة منا، فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟ هل استأثر بفيء، أو عمل بغير الحق، أو أتى شيئاً تنكرونه، فنكون معكم عليه؟ فهموا بقتل الرجل فمنعته عشيرته؛ فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه وقتلوا منهم سبعين، وبلغ حكيم ابن جبلة ما صنع بعثمان بن حنيف فقال: أخاف الله إن لم أنصره، فجاء في جماعة من عبد القيس وبكر بن وائل، وطلب حكيم من عبد الله بن الزبير الإفراج عن عثمان بن حنيف ـ فرفض ابن الزبير قائلاً: «لا نخلي سبيل عثمان بن حنيف حتى نخلع علياً» ـ فقال حكيم اللهم إنك حكم عدل فاشهد، وقال لأصحابه إني لست في شك من قتال هؤلاء، ونادى أصحاب عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان، فأنشب حكيم القتال ولم يرع للمنادي، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ومع حكيم ثلاثة قواد، فكان حكيم بحيال طلحة، وذريح بحيال الزبير، وابن المحرش بحيال عبد الرحمن بن عتاب، وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن الحارث بن هشام، فزحف طلحة لحكيم وهو في ثلثمائة رجل، وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول:

أضربهم باليابس ... ضرب غلام عابس
من الحياة آيس ... في الغرفات نافس

فضرب رجل ساق حكيم فقطعها، فأخذ حكيم ساقه فرماه بها فصاب عنقه فصرعه ووقذه، ثم حبا إليه فقتله، واتكأ عليه وقال:

يا فخذ لن تراعى ... إن معي ذراعى ... أحمى بها كراعى

وقال:

أقول لما جد بي زماعى ... للرجل يا رجلي لن تراعى
إن معي من نجدة ذراعى

وقال:

ليس علي أن أموت عار   والعار في الناس هو الفرار
والمجد لا يفضحه الدمار

وقتل حكيم، وقتل معه ابنا الأشرف وأبو الرعل بن جبلة. وقيل إن الذي قتل حكيماً يزيد بن الأسحم الحداني، لأن حكيماً وجد قتيلاً بين يزيد بن الأسحم وأخيه كعب بن الأسحم، وهما مقتولان.

وكتبت أم المؤمنين عائشة إلى أهل الكوفة تطلب منهم أن يثبطوا الناس عن علي، وتحثهم على طلب قتلة عثمان، ومما ذكرته في كتابها: «أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه، قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله فأجابنا الصالحون، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح، وعزم عليهم عثمان بن حنيف والزبير إلى أهل الشام يخبرونهم بذلك ويحثونهم على النهوض، فكان أن قاتلوني حتى منعني الله ﷻ بالصالحين، واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها، فخافوا وغدروا وخانوا وحشروا. وكتبت إلى رجال بأسمائهم «أن ثبطوا الناس عن هؤلاء القوم ونصرتهم، واجلسوا في بيوتكم، فإن هؤلاء لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان، وفرقوا بين جماعة الأمة» وخالفوا الكتاب والسنة، حتى شهدوا علينا بالكفر، فأنكر ذلك الصالحون وقالوا: ما رضيتم أن قتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم أن أمرتكم بالحق لتقتلوها وأصحاب رسول الله وأئمة المسلمين، فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً ندعوهم إلى الحق، فغدروا وخانوا، فغادروني في الخلس ليقتلوني، والذي يحاربهم غيري، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي، فوجدوا نفراً على الباب فدارت عليهم الرحى».

وكتبت إلى أهل اليمامة وأهل المدينة، وكانت هذه الوقعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وبايع أهل البصرة طلحة والزبير، فقال الزبير: ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي أقتله بياتاً أو صباحاً قبل أن يصل إلينا؟ فلم يجبه أحد، فقال: إن هذه للفتنة التي كنا نتحدث عنها. فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟

وكان الإمام علي عليه السلام أرسل وهو بالربذة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة وكتب إليهم: إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً وانهضوا إلينا، فالإصلاح نريد، لتعود هذه الأمة إخواناً. فقدما الكوفة، وأتيا أبا موسى بكتاب علي، وقاما في الناس بأمره، فلم يجابا إلى شيء، واستشار ناس من أهل الحجا أبا موسى: فقال القعود سبيل الآخرة، والخروج سبيل الدنيا، فغضب محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، وأغلظا لأبي موسى فلم ينجع فيه، فانطلقا إلى علي فأخبراه الخبر وهو بذي قار. ولما نزل الإمام عليه السلام الثعلبية أتاه خبر عثمان بن حنيف فأخبر أصحابه، وقال: «اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين».

ولما نزل بذي قار أتاه فيها عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة.

فقال: «يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وقد جئتك أمرد».

فقال: «أصبت أجراً وخيراً».

وقال المفيد: لما نزل بذي قار أخذ البيعة على من حضره، وتكلم فأكثر من الحمد لله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم قال: قد جرت أمور صبرنا عليها - وفي أعيننا القذى - تسليماً لأمر الله تعالى فما امتحننا به، ورجاء الثواب على ذلك، وكان الصبر عليها أمثل من أن يتفرق المسلمون وتسفك دماؤهم. نحن أهل بيت النبوة، وعترة الرسول، وأحق الخلق بسلطان الرسالة ومعدن الكرامة التي ابتدأ الله بها هذه الأمة، وهذا طلحة والزبير، وليسا من أهل النبوة ولا من ذرية الرسول، حين رأيا أن الله قد رد علينا حقنا بعد أعصر، لم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما، ليذهبا بحقي ويفرقا جماعة المسلمين عني. ثم دعا عليهما.

وأقام بذي قار ينتظر محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فأتاه الخبر بما لقيت ربيعة وخروج عبد القيس ونزولهم بالطريق فقال: عبد القيس خير ربيعة وفي كل ربيعة خير. وقال:

يا لهف ما نفسي على ربيعه　　ربيعة السامعة المطيعه
قد سبقتني فيهم الوقيعه　　دعا عليٌّ دعوةً سميعه
حلوا بها المنزلة الرفيعه

وسار علي عليه السلام من ذي قار ومعه الناس حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه، وسار من هناك فنزل الزاوية، وسار من الزاوية يريد البصرة، وسار طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة فالتقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد، فلما نزل الناس أرسل شفيق بن ثور إلى عمرو بن مرجوم العبدي أن أخرج، فإذا خرجت فمل بنا إلى عسكر علي، فخرجا في عبد القيس وبكر بن وائل، فعدلوا إلى عسكر علي، وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال، فكان يرسل علي إليهم يكلمهم ويدعوهم، وكان نزولهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦[١].

وفي مروج الذهب: كان مسير الإمام إلى البصرة سنة ٣٦، وفيها كانت وقعة الجمل، وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها. ويؤيد ذلك الطبري وابن الأثير وإن كان المسعودي يقول إن الوقعة كانت قبل ذلك التاريخ بخمسة أيام.

وكان جنود عائشة ثلاثين ألفاً وعسكر الإمام عشرين ألفاً، وافترق أهل البصرة ثلاث فرق، فرقة مع الإمام وفرقة مع أم المؤمنين وفرقة اعتزلوا.

وفي المفيد أن الإمام علياً عليه السلام قال لأصحابه يحرضهم على القتال: «عباد الله، انهضوا إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم بقتالهم، فإنهم نكثوا بيعتي، وأخرجوا ابن حنيف عاملي بعد الضرب المبرح والعقوبة الشديدة، وقتلوا السبابجة، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدي، وقتلوا رجالاً صالحين، ثم

(١) الطبري وابن الأثير.

تتبعوا منهم من يحبني، يأخذونهم في كل حائط وتحت كل رابية، ثم يأتون بهم فيضربون رقابهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون، انهضوا إليهم وكونوا أشداء عليهم وألقوهم صابرين محتسبين تعلمون أنكم منازلوهم ومقاتلوهم، وقد وطنتم أنفسكم على الطعن والضرب ومبارزة الأقران، وأي امرىء منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء، ورأي من أحد من إخوانه فشلاً فليذب عن أخيه الذي فضل عليه كما يذب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله.

وخطب الإمام عليه السلام لما توقف الجمعان فقال: «لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على حجة، وكفوا عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القول والأنفس والعقول، لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها وعقبه من بعده».

وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي بكر، قال: عصمني الله بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله، لما هلك كسرى قال: مَنِ استخلفوا؟ قالوا ابنته، فقال: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة. فلما قدمت عائشة ذكرت قوله صلى الله عليه وآله فعصمني الله به.

وروي أيضاً أن أم المؤمنين عائشة كانت خطيبة القوم وهم لها تبع، فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه السلاح فقيل لعلي هذا الزبير. فقال: إما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر.

وخرج طلحة فخرج إليهما عليٌّ فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم.

قال علي: لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دماءكما؟! فهل من حدث أحل لكما دمي؟!

قال طلحة: ألبّت الناس على عثمان.

قال علي: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾. يا طلحة تطلب بدم عثمان، فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة جئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبأت عرسك، أما بايعتني؟!

قال: بايعتك والسيف على عنقي.

قال الطبري:

وقال علي للزبير: أتطلب مني دم عثمان وأنت قتلته؟! سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره، يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إليَّ فضحك وضحكت إليه، فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه! فقال لك: صه، إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم.

فقال: اللهم نعم! ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً ورجع الزبير إلى أم المؤمنين عائشة فقال لها: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا. قالت فما تريد أن تصنع؟ قال أريد أن أدعهم وأذهب، فقال له إبنه عبد الله: جمعت بين هذين العسكرين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب لكأنك خشيت رايات ابن أبي طالب، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد، وأن تحتها الموت الأحمر فجبنت. فأحفظه دمك وقال: إني حلفت ألا أقاتله، قال: كفر عن يمينك وقاتله، فأعتق غلامه مكحولاً. فقال عبد الرحمن بن سليمان التميمي:

لم أر كاليوم أخا إخوان ... أعجب من مكفِّر الأيمان

بالعتق في معصية الرحمن

ترك الزبير الحرب ولم يحارب مع علي وتوجه إلى وادي السباع قاصداً المدينة، وقتله ابن جرموز وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه.

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج: قيل إن ابن جرموز دخل على الإمام وأخبره بقتل الزبير، فدعا بالسيف فهزه فقال: سيف طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله ﷺ! وفي رواية أخرى ـ أنه قال له: أنت قتلته؟! قال نعم، قال والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً. وقال ابن جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين. فقال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: بشر قاتل ابن صفية بالنار.

وروى أبو مخنف: أنه لما تزاحم الناس يوم الجمل قال الإمام علي عليه السلام لأصحابه: «لا يرمين رجل منكم بسهم، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح حتى يبدءوكم بالقتال وبالقتل».

فرمى أصحاب الجمل عسكر الإمام بالنبل رمياً شديداً متتابعاً، فضج إليه أصحابه وقالوا: عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين، وجيء إليه برجل فقيل له: هذا فلان قد قتل، فقال: اللهم اشهد، ثم قال: اعذروا إلى القوم، فأتى برجل آخر فقيل: وهذا قد قتل، فقال: اللهم اشهد، اعذروا إلى القوم. ثم أقبل عبد الله بن ورقاء الخزاعي وهو من أصحاب رسول الله ﷺ يحمل أخاه عبد الرحمن قد أصابه سهم فقتله، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا أخي قد قتل، فاسترجع علي عليه السلام، ودعا بدرع رسول الله ﷺ ذات الفضول فلبسها، فتدلت على بطنه، فرفعها بيده، وقال لبعض أهله فحزم وسطه بعمامة، وتقلد ذا الفقار، ودفع إلى ابنه محمد راية رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب، قال للحسن والحسين عليهما السلام: «إنما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتكما لمكانكما من رسول الله ﷺ». ثم طاف الإمام على أصحابه وهو يقرأ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم

﴿مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾. ثم قال أفرغ الله علينا وعليكم الصبر، وأعز لنا ولكم النصر، وكان لنا ولكم ظهيراً في كل أمر. ثم رفع مصحفاً بيده فقال: «من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إلى ما فيه وله الجنة». فقام غلام شاب اسمه مسلم عليه قباء أبيض، فقال: أنا آخذه، فنظر إليه الإمام وقال: «يا فتى إن أخذته فإن يدك اليمنى تقطع، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل». وبعد محاورة بين الإمام والغلام نادى الغلام: هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فضربه رجل فقطع يده اليمنى، فتناوله باليسرى، فضربه أخرى فقطع يده اليسرى، فاحتضنه، وضربوه بأسيافهم حتى قتل. فقالت أم ذريح العبدية في ذلك:

يا رب إن مسلماً أتاهم ... بمصحف أرسله مولاهم
للعدل والإيمان قد دعاهم ... يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه ظباهم ... وأمهم واقفة تراهم
تأمرهم بالغي لا تنهاهم

ويروي الطبري هذه القصة فيقول: «أخذ علي مصحفاً يوم الجمل، فطاف به في أصحابه وقال: من يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول، فقام إليه فتى من أهل الكوفة عليه قباء أبيض اسمه مسلم بن عبد الله، فقال: أنا، فأعرض عنه، ثم أعاده ثانياً فقال الفتى: أنا، فأعرض عنه ثم أعاده الثالثة فقال: أنا، فدفعه إليه، فدعاهم فقطعوا يده اليمنى، فأخذه بيده اليسرى فدعاهم، فقطعوا يده اليسرى، فأخذه بصدره وبأسنانه والدماء تسيل منه فقتل، فكان أول قتيل بين الفريقين فقال علي: الآن حل قتالهم، وقالت أم الفتى ترثيه:

لا هِمَّ إن مسلماً دعاهُمْ ... يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأمهم قائمة تراهم ... يأتمرون الغيَّ لا تنهاهُمْ
قد خضبت من عَلَقٍ لحاهم

واقتتل الناس، وركبت عائشة الجمل[1] المسمى عسكراً، وكان الجمل لواء أهل البصرة، وقالت أم المؤمنين: «أما بعد، فإنا كنا نقمنا على عثمان ضرب السوط، وإمرة الفتيان، وموقع السحابة المحمية، ألا وإنكم استعتبتموه، فلما مصصتموه كما يماص الثوب الرخيص عدوتم عليه فارتكبتم منه دماً حراماً، وايم الله إن كان لأحصنكم فرجاً وأتقاكم لله».

وأخذ قاضي البصرة «كعب بن سور» بخطام الجمل، وأخذ يقول:

يا أمنا عائش لا تراعي	كل بنيك بطل المصاع
ينعى ابن عفان إليك ناعي	كعب بن سور كاشف القناع
فارضي نبصر السيد المطاع	والأزد فيهم كرم الطباع

وقتل كعب وكان أول قتيل بين يدي أم المؤمنين من أهل البصرة والكوفة، واقتتلوا إلى آخر النهار وانهزم عسكر عائشة.

ويقول الطبري: ضرب محمد بن الحنفية يد رجل من الأزد فقطعها فنادى يا معشر الأزد فروا، واستحر القتل في الأزد فنادوا: نحن على دين علي بن أبي طالب، وأقبل المنهزمون يريدون البصرة، فلما رأوا الخيل أحافت بالجمل عادوا إلى الحرب.

أما طلحة فيقول ابن الأثير إن مروان ابن الحكم هو الذي رماه بسهم ومات طلحة في دار خربة في البصرة.

وحرضت أم المؤمنين الناس، وكانت راية علي عليه السلام يوم الجمل مع ولده محمد بن الحنفية، ويقول ابن أبي الحديد إن الإمام دفع إلى محمد الراية يوم الجمل وقد استوت الصفوف، وقال له: احمل، فتوقف قليلاً، فقال له: احمل: فقال: يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر؟ فدفع في صدره وقال: أدركك عرق من أمك، ثم أخذ الراية فهزها ثم قال:

---

(١) اشترى هذا الجمل يعلى بن أمية في مكة بمائتي دينار.

أطعن بها طعن أبيك تحمد لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرفي والقنا المسدد

ثم حمل وحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصرة.

وقيل لمحمد لم يغرر بك أبوك في الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين؟ فقال: «إنهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه بيمينه».

وتسلم محمد الراية ومعه خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وكثير من أهل بدر، فحمل حملات كثيرة أزل بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاء حسناً.

ويقول خزيمة بن ثابت في ذلك:

محمد ما في عودك اليوم وصمة ولا كنت في الحرب الضروس معردا
أبوك الذي لم يركب الخيل مثله علي وسماك النبي محمدا
فلو كان حقاً من أبيك خليفة لكنت ولكن ذاك ما لا يرى أبدا
وأنت بحمد الله أطول غالب لساناً وأنداها بما ملكت يدا
وأقربها من كل خير تريده قريش وأوفاها بما قال موعدا
وأطعنهم صدر الكمي برمحه وأكساهم للهام غضباً مهندا
سوى أخويك السيدين كلاهما إمام الورى والداعيان إلى الهدى
أبى الله أن يعطي عدوك مقعداً من الأرض أو في اللوح مرقى ومصعدا

نهاية معركة الجمل:

اختلف المؤرخون في المدة الفاصلة التي انتهت فيها المعركة، فقد ذكر الطبري أن الوقعة كانت يوم الخميس، والمسعودي يقول إن وقعة الجمل كانت وقعة واحدة في يوم واحد. وبعض المؤرخين يقول إن الوقعة استمرت ثلاثة أيام. على أنه يمكن الجمع بأن الوقعة العظمى الفاصلة كانت في يوم واحد وغيرها كانت مناوشات.

ويهمنا أن نذكر أنه في اليوم الثالث برز عبد الله بن الزبير ودعا إلى المبارزة فبرز إليه الأشتر، فقالت أم المؤمنين: من برز إلى عبد الله؟ قيل:

الأشتر، فقالت: وأثكل أسماء! وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام، وكانت هذه عادته في الحرب، فضرب الأشتر عبد الله على رأسه، فجرحه جرحاً شديداً، وضربه عبد الله ضربة خفيفة واعتنق كل واحد منهما صاحبه، وسقطا إلى الأرض يعتركان، فقال ابن الزبير:

اقـتـلـونـي ومـالـكـاً واقـتـلـوا مـالـكـاً مـعـي

فلو يعلمون من مالك لقتلوه، وإنما كان يعرف بالأشتر، فحمل أصحاب علي وعائشة فخلصوهما، ودخل الأشتر على أم المؤمنين بعد حرب الجمل، فقالت: أنت الذي صنعت بابن أختي ما صنعت؟ قال: نعم، ولولا أني كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحت أمة محمد منه! قالت: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير حق». فقال على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أم المؤمنين، والله خانني سيفي قبلها وقد أقسمت ألا يصحبني بعدها. وفي ذلك يقول:

أعائش لولا أنني كنت طاوياً ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا
غداة ينادي والرماح تنوشه كوقع الصياصي اقتلوني ومالكا
فلم يعرفوه إذ دعاهم وعمه خدب عليه في العجاجة باركا
فنجاه مني أكله وشبابه وأني شيخ لم أكن متماسكا
وقالت على أي الخصال صرعته بقتل أتى أم ردة لا أبالكا
أم المحصن الزاني الذي حل قتله فقلت لها لا بد من بعض ذلكا

وفي الساعة الفاصلة من المعركة زحف الإمام نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار، وحوله بنوه الحسن والحسين ومحمد، ودفع الراية إلى محمد وقال: «أقدم بها حتى تركزها في عين الجمل ولا تقفن دونه». فتقدم محمد فرشقته السهام، فقال لأصحابه: رويداً حتى تنفذ سهامهم، فلم يبق إلا رشقة أو رشقتان، فأنفذ علي إليه يحثه ويأمره بالمناجزة، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خلفه فوضع يده

اليسرى على منكبه الأيمن وقال له: «أقدم لا أم لك!» فكان محمد إذا ذكر يبكي ويقول لكأني أجد ريح نفسه في قفاي. والله لا أنسى ذلك أبداً. ثم أدركت علياً رقة على ولده فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في اليمنى، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار: نحن نكفيك يا أمير المؤمنين فلم يجب أحداً منهم، ولا رد إليهم بصره، وظل يزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله، وأنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة، لا يبصر من حوله ولا يرد حواراً، ثم دفع الراية إلى محمد، ثم حمل حملة ثانية وحده، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قدماً قدماً، والرجال تفر من بين يديه وتنحاز عنه حتى خضب الأرض بدماء القتلى، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته، وناشده أصحابه الله في نفسه وفي الإسلام، وقالوا إنك إن تصب يذهب الدين، فأمسك، ونحن نكفيك، فقال: «والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة».

ثم قال لمحمد: هكذا تصنع يابن الحنفية».

فقال الناس: من يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين؟!

وعن المدائني والواقدي: نادى الإمام عليه السلام: اعقروا الجمل؛ فإنه إن عقر تفرقوا عنه. وفي رواية: حتى لقد صرخ عليّ بأعلى صوته: ويلكم! اعقروا الجمل فإنه شيطان، ثم قال: اعقروه وإلا فنيت العرب، ولا يزال السيف قائماً حتى يهوي هذا البعير إلى الأرض.

وروى أبو مخنف قال: لما رأى الإمام أن الموت عند الجمل، وأنه ما دام قائماً فالحرب لا تطفأ، وضع سيفه على عاتقه وعطف نحوه، وأمر أصحابه بذلك، وسقط الجمل، فكانت الهزيمة، وفرت الرجال عنه كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب.

وجاء محمد بن أبي بكر ومعه عمار بن ياسر فاحتملا الهودج ووضعاه، وأدخل محمد يده فقالت أم المؤمنين: من هذا؟

قال: أخوك محمد.

فقالت: مذمم.

قال: يا أخية هل أصابك شيء؟

قالت: ما أنت من ذاك؟

قال: فمن إذاً؟ الضُّلاّل؟!

قالت: بل الهداة.

وأمر الإمام نفراً من أصحابه أن يحملوا الهودج من بين القتلى، وإنه كالقنفذ لما فيه من السهام، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة، فلما كان الليل أدخلها البصرة فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي، وكان الإمام يقول في ذلك اليوم بعد الفراغ من القتال.

إليك أشكو عجرى وبجرى ومعشراً غَشَّوْا عَلَيَّ بصرى
قتلت منهم مضراً بمضرى شفيت نفسي وقتلت معشرى

مع الإمام بعد المعركة:

عن ابن أبي الحديد أن الإمام ركب بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، وكانت باقية عنده، وسار في القتلى يستعرضهم.

ويقول المفيد: ومن كلامه عند طوافه على القتلى: «هذه قريش؛ جدعت أنفي، وشفيت نفسي، لقد تقدمت إليكم أحذركم عض السيف ولكنه الحين وسوء المصرع، وأعوذ بالله من سوء المصرع.

ثم مر على معبد بن المقداد، فقال: رحم الله أبا هذا لو كان حيّاً لكان رأيه أحسن من رأي هذا، فقال عمار بن ياسر: «الحمد الله الذي أوقعه وجعل خده الأسفل».

ومر بعبد الله بن ربيعة بن دراج، فقال: هذا البائس ما كان أخرجه أدين أم نصر لعثمان؟! والله ما كان رأى عثمان فيه ولا في أبيه بحسن.

ثم مر بكعب بن سور، فقال: هذا الذي خرج علينا في عتقه المصحف يزعم أنه ناصر أمه يدعو الناس إلى ما فيه، ثم استفتح فخاب كل جبار عنيد، أما إنه دعا الله أن يقتلني فقتله الله. أجلسوا كعب بن سور فأجلس، فقال له أمير المؤمنين: «يا كعب لقد وجدت ما وعدني ربي حقّاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقّاً، ثم قال: أضجعوه، فأضجعوه.

ويقول المفيد: مر على طلحة فقال هذا الناكث بيعتي والمنشىء الفتنة في الأمة، والمجلب عليّ، والداعي إلى قتلي وقتل عترتي، أجلسوا طلحة، فأجلس فقال له: «يا طلحة قد وجدت ما وعدني ربّي حقّاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقّاً»، أضجعوا طلحة، وسار، فقال له بعض من كان معه: يا أمير المؤمنين أتكلم كعباً وطلحة بعد قتلهما؟! فقال أما والله لقد سمعا كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله ﷺ يوم بدر.

قال ابن أبي الحديد: مر الإمام بعبد الرحمن بن عتاب، فقال: أجلسوه، فأجلس، فقال: هذا يعسوب قريش، هذا لباب المحض من عبد مناف، ثم قال شفيت نفسي وقتلت معشري إلى الله أشكو عجرى وبجرى. قتلت الصناديد من بني عبد مناف، وأفلتني الأعيار من بني جمح، فقال له قائل: لشد ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين.

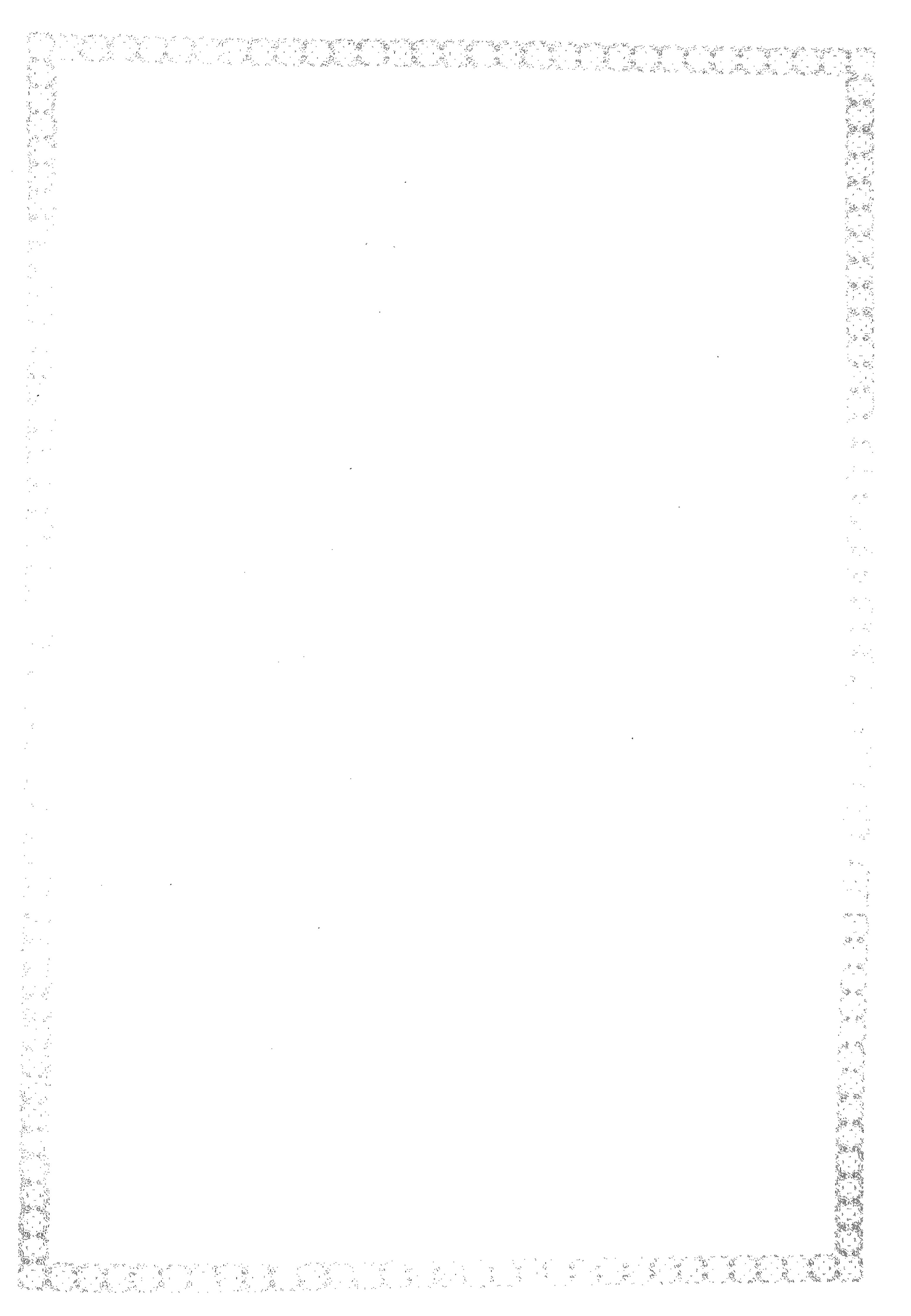
وأقام الإمامعليه السلام بظاهر البصرة ثلاثاً، وأذن للناس في دفن موتاهم، فخرجوا إليهم فدفنوهم.

وفي مروج الذهب: خرجت امرأة من عبد القيس تطوف بالقتلى يوم الجمل، فوجدت ابنين لها قد قتلا، وقد كان قتل زوجها وأخوان لها فيمن قتل قبل مجيء علي البصرة فأنشأت تقول:

شهدت الحروب فشيبنني ... فلم أر يوماً كيوم الجمل
أضر على مؤمن فتنة ... وأقتله لشجاع بطل
فليت الظعينة في بيتها ... وليتك عسكر لم ترتحل

عدد قتلى المعركة

كانت القتلى خمسة عشر ألفاً، قتل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف، وفي المعركة الثانية مثلها، وقتل من أهل الكوفة خمسة آلاف، وقيل كان جميع القتلى عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة، وقيل إنه قد قتل من ضبة ألف رجل، وقتل من بني عدي حول الجمل سبعون.



الإمام في مسجد البصرة

بعد الوقعة بثلاثة أيام دخل الإمام البصرة وتوجه إلى المسجد فصلى، ويقول المفيد: إن الإمام حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الله ذو رحمة واسعة، ومغفرة دائمة، وعفو جم، وعقاب أليم، قضى أن رحمته ومغفرته وعفوه لأهل طاعته من خلفه، وبرحمته اهتدى المهتدون، وقضى أن نقمته وسطوته وعقابه على أهل معصيته من خلفه، وبعد الهدى والبينات ما ضل الضالون، فما ظنكم يا أهل البصرة وقد نكثتم بيعتي وظاهرتم عليّ عدوي.

فقام إليه رجل فقال: نظن خيراً، ونراك قد ظهرت وقدرت. فإن عاقبت فقد اجترمنا، وإن عفوت فالعفو أحب إلى الله تعالى. فقال: قد عفوت عنكم، فإياكم والفتنة، فإنكم أول الرعية نكث البيعة وشق عصا هذه الأمة.

ثم جلس للناس فبايعوه. ويقول الطبري إنه لما فرغ أمير المؤمنين من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة فقسمها على من شهد معه فأصاب كل رجل منهم خمسمائة.

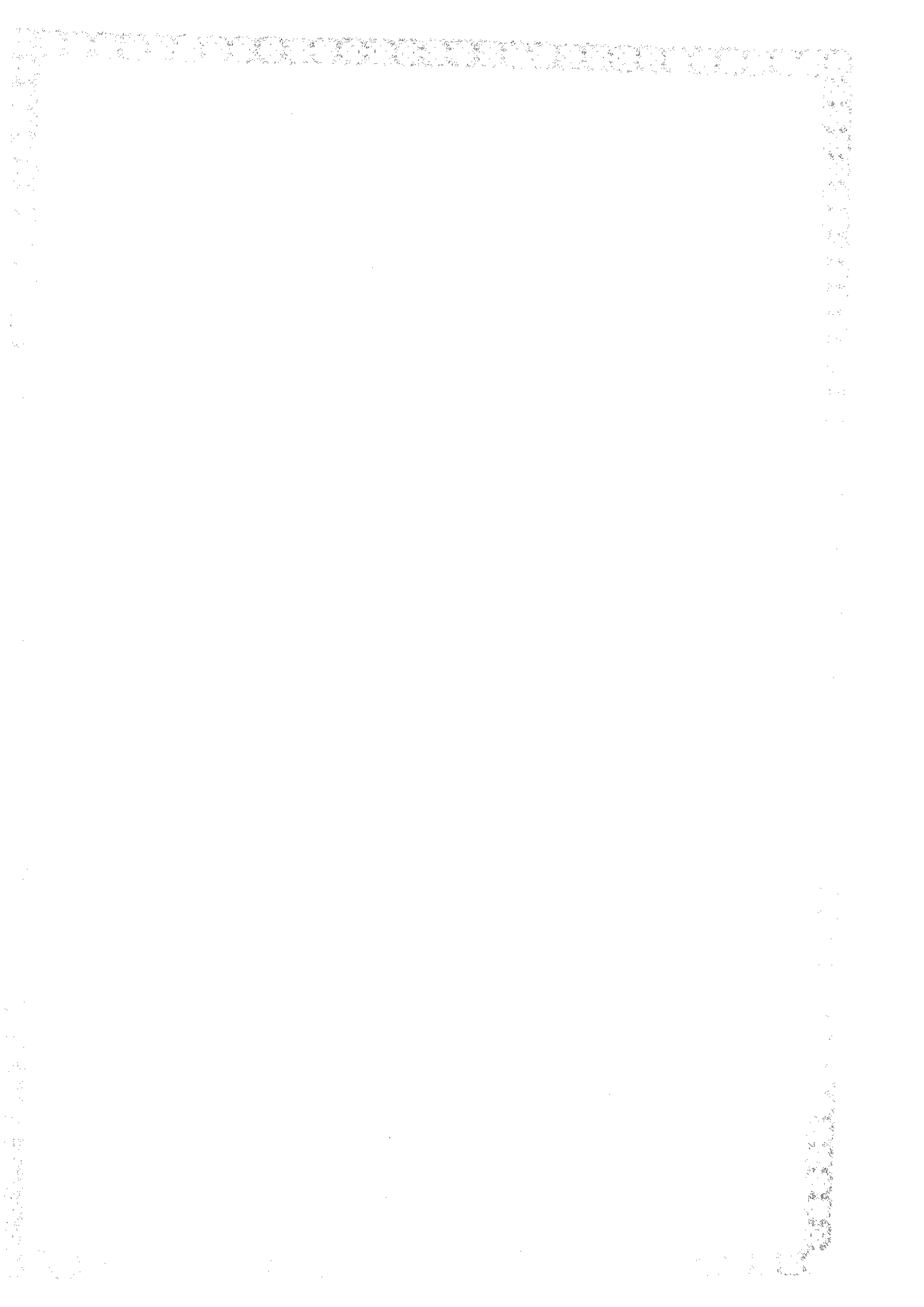
ويقول ابن الحديد ـ عن أبي الأسود الدؤلي: قال لما ظهر علي عليه السلام يوم الجمل دخل بيت المال بالبصرة في أناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم، فلما رأى كثرة ما فيه قال: «غرى غيري» مراراً، ثم نظر إلى المال وصعد فيه بصره وصوب، وقال: أقسموه بين أصحابي خمسمائة خمسمائة، فقسم بينهم فلا والذي بعث محمداً بالحق ما نقص درهماً ولا زاد درهماً،

كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره، كان ستة آلاف درهم، أي ستة ملايين، والناس اثني عشر ألفاً.

ويقول ابن أبي الحديد: اتفقت الرواة كلها على أنه‌عليه‌السلام قبض ما وجد في عسكر الجمل من سلاح ودابة ومملوك ومتاع وعروض فقسمه بين أصحابه، وأنهم قالوا له: اقسم بيننا أهل البصرة فاجعلهم رقيقاً، فقال: لا، فقالوا: كيف تحل لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم؟! فقال: كيف يحل لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام، أما ما أجلب به القوم في معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم، وأما ما دارت عليه الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله.

قال المفيد: ثم كتب بالفتح إلى أهل الكوفة رسالة الإمام إلى أهل الكوفة: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن الله حكم عدل لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال. أخبركم عنا وعمن سرنا إليه من جموع أهل البصرة، ومن تأشب إليهم من قريش وغيرهم مع طلحة والزبير ونكثهم صفقة إيمانهم، فنهضت من المدينة حين إنتهى إليَّ خبر من سار إليها وجماعتهم، وما فعلوا بعاملي عثمان بن حنيف حتى قدمت ذا قار، فبعثت الحسن بن علي وعمار بن ياسر وقيس بن سعد، فاستنفرتكم بحق الله وحق رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله وحقي، فأقبل إلى إخوانكم سراعاً حتى قدموا علي، فسرت بهم حتى نزلت ظهر البصرة، فأعذرت بالدعاء، وقمت بالحجة، وأقلت العثرة والزلة من أهل الردة من قريش وغيرهم، واستتبتهم من نكثهم بيعتي وعهد الله عليهم، فأبوا إلا قتالي وقتال من معي والتمادي في الغي، فناهضتهم بالجهاد فقتل الله من قتل منهم ناكثاً، وولى من ولى إلى مصرهم، وقتل طلحة والزبير وخذلوا وأدبروا، وتقطعت بهم الأسباب، فلما رأوا ما حل بهم سألوني العفو عنهم فقبلت منهم، وغمدت السيف عنهم، وأجريت الحق والسنة فيهم واستعملت عبد

الله بن عباس على البصرة، وأنا سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى، وقد بعثت إليكم زحر بن قيس الجعفي لتسألوه فيخبركم عنا وعنهم، وردهم الحق علينا، ورد الله لهم، وهم كارهون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الإمامُ عليّ عليه السلام والسَّيدة عَائشة

يقول الطبري: توجه الإمام علي إلى أم المؤمنين على بغلته، فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف وجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان ابني خلف، وكان عبد الله قتل مع عائشة وعثمان قتل مع علي، وكانت صفية بنت الحارث تبكي، فلما رأته قالت له: يا علي، يا قاتل الأحبة يا مفرق الجمع، أيتم الله منك بنيك كما أيتمت ولد عبد الله منه. فلم يرد عليها شيئاً.

ودخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها، وفي رواية - أنه لم يسمع أحد من قول عليّ شيئاً إلا أن عائشة كانت امرأة عالية الصوت، قالوا فسمعنا كهيئة لمعاذير إني لم أفعل، ثم قال: جبهتنا صفية، أما إني لم أرها منذ كانت جارية، فلما خرج علي أعادت عليه القول فكف بغلته وقال: أما لهممت، وأشار إلى الأبواب من الدار أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه، وكان بعض الجرحى قد لجأوا إلى أم المؤمنين ومن بينهم مروان بن الحكم في حجرة ومعه جماعة، وعبد الله بن الزبير في حجرة ومعه جماعة وآخرون في حجرة، فأخبر علي بمكانهم عندها فتغافل عنهم، فسكتت، فخرج عليّ، فقال رجل من الأزد: «والله لا تغلبنا هذه السيدة». فغضب الإمام وقال: «صه لا تهتكن ستراً ولا تدخلن داراً ولا تهيجن امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسفهن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف. ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن لمشركات وإن الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه

من بعده، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس.

ويقول ابن أبي الحديد، في شرح النهج: بعث الإمامعليه السلام بعد وقعة الجمل عبد الله بن عباس إلى أم المؤمنين يرجوها بتعجيل الرحيل وقلة العرجة، ويقول ابن عباس: فأتيتها وهي في قصر بني خلف في جانب البصرة، فطلبت الإذن عليها، فلم تأذن، فدخلت من غير إذن، فإذا بيت قفار لم يعدّ لي فيه مجلس، فإذا هي من وراء ستر فضربت ببصري فإذا في جانب البيت رجل عليه طنفسة، فمددت الطنفسة فجلست عليها، فقالت من وراء الستر: يابن عباس أخطأت السنة. دخلت بغير إذن، وجلست على وسادتنا بغير إذننا، فقال لها ابن عباس: نحن أولى بالسنة منك، ونحن علمنا السنة، وإنما بيتك الذي خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وآله فخرجت منه، فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلا بإذنك، ولم نجلس على وسادتك إلا بأمرك، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يطلب منك الرحيل إلى المدينة وقلة العرجة.

قالت: وأين أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب؟!

قال: وهذا علي بن أبي طالب.

قالت: أبيت أبيت.

قال: أما والله إن كان إباؤك فيه إلا قصير المدة عظيم التبعة ظاهر الشؤم بين النكد، وما كان إباؤك فيه إلا حلب شاة حتى صرت ما تأمرين ولا تنهين ولا تعرفين ولا تضعين، وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد:

ما زال إهداء القصائد بيننا ... شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركت كأنك صوتك بينهم ... في كل مجمعة طنين ذباب

قالت: إني معجلة إلى بلادي والله ما من بلد أبغض إليَّ من بلد أنتم فيه.

قال: ولم ذاك وقد جعلناك للمؤمنين أمّاً؟

قالت: يابن عباس تمنون علي برسول الله.

ودار حوار بين ابن عباس والسيدة عائشة، وتوجه ابن عباس وذكر ما دار بينه وبين أم المؤمنين، فقال له الإمام «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم».

عودة أم المؤمنين:

روى الطبري: أن عمار بن ياسر قال للسيدة عائشة، حين فرغ القوم، يا أم المؤمنين، ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك! وجهز الإمام عليّ أمير المؤمنين بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وأرسل معها أخاها محمداً وكان ذلك في يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦.

ويقول المسعودي: إنه وكل بأم المؤمنين نساء ملثمات أركبهن الخيل. وعن هشام الكلبي أنه بعث معها أخاها عبد الرحمن في ثلاثين رجلاً وعشرين امرأة ألبسهن العمائم وقلدهن السيوف، وقال: لا تَقُلْن إنكن نسوة، وتلثمن، ولا يقرب منها رجل، فلما وصلت إلى المدينة عرفتّها أنهن نسوة.

وفي كامل المبرد قال عمرو بن العاص لعائشة: «لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل».

فقالت: ولم؟ لا أبا لك!

فقال: كنت تموتين بأجلك، وتدخلين الجنة، ونجعلك أكبر التشنيع على عليّ.

لماذا خرجت أم المؤمنين:

عندما تزوج الرسول اللهﷺ، من جويرية، بنى لها منزلها إلى جانب

منازل نسائه في جوار المسجد، وأصبحت بذلك من أمهات المسلمين، وبينما هو في شغله بها كان قوم قد بدءوا حديث الإفك المشهور، ويقولون إن الرسول استشار علياً وأسامة بن زيد، فأما أسامة فنفى كل من نسب إلى أم المؤمنين على أنه الكذب والباطل، وأما علي فقال: «يا رسول الله إن النساء كثير» وفي رواية أخرى: «يا رسول الله لم يضيق عليك والنساء غيرها كثير». ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تصدقه، ودعيت الجارية وقيل إن علياً ضربها ضرباً موجعاً وهو يقول: «أصدق رسول الله»، والجارية تقول: «والله ما أعلم إلا خيراً» وتنفي عن عائشة مقالة السوء، ثم كان أن نزل الوحي على الرسول ﷺ ونادى الرسول الكريم وقال: أبشري يا عائشة قد نزل الله باءتك ـ قالت عائشة: «الحمد لله».

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هل كان رأي علي عليه السلام «إن النساء كثير» هو السبب؟ وهل وصل أم المؤمنين هذا الرأي؟ أغلب الظن أنها علمت بهذا الرأي كما سنرى بعد قليل.

والذي لا شك فيه أن أم المؤمنين كانت لا تميل إلى الإمام علي، فعندما قتل عثمان كانت السيدة عائشة في مكة، وفي طريقها إلى المدينة عرفت بمقتل الخليفة، وقال لها فريق من الناس إن طلحة قد بويع فأظهرت بذلك ابتهاجاً فقد كان طلحة مثلها تَيْمياً، ولكنها لقيت في طريقها من أنبأها بحقيقة الأمر، وبأن علياً هو الذي تمت له البيعة في المدينة، فضاقت بذلك ضيقاً شديداً، وأعلنت أنها كانت تؤثر انطباق السماء على الأرض قبل أن ترى علياً وقد أصبح للمسلمين إماماً، ثم قالت لمن معها ردوني. فرجعوا بها أدراجهم إلى مكة[1].

---

(١) الفتنة الكبرى لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين.

ويقول عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين: إنه كان معروفاً أن عائشة رحمها الله لم تكن تحب علياً ولا تهواه، بل كان معروفاً أنها كانت تجد عليه موجدة شديدة منذ حديث الإفك، حين أراد علي أن يواسي النبيﷺ فأشار عليه بأن يطلقها وقال له: «إن النساء غيرها كثير». وكان ذلك قبل أن ينزل الله براءتها في القرآن.

فلم تنس لعلي قوله ذاك، وكانت عائشة شخصية من أقوى الشخصيات التي عرفها تاريخ المسلمين في ذلك العهد لم تكن رقيقة كأبيها، وإنما كانت شديدة كعمر على احتفاظ منها بكثير مما ورثت العرب عن جاهليتها، فكانت تحفظ الشعر وتكثر من حفظه وإنشاده. والتمثيل به، حتى إنها رأت أباها وهو يحتضر فتمثلت قول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وسمعها خليفة رسول الله أبوها فقال لها كالمنكر عليها «بخ بخ يا أم المؤمنين! هلا تلوت قول اللهﷻ:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وكانت من أشد نساء النبي إنكاراً على عثمان، لم تتحرج أن تصيح بها من وراء سترها وهو على المنبر حين عاب عبد الله بن مسعود فأسرف في عيبه، ولم تكن تتحفظ من الاعتراض على كثير من أعمال عثمان ومن سيرة عماله، حتى ظن كثير الناس أنها كانت من المحرضين على الثورة به.

ويعتقد الأستاذ العميد أن أم المؤمنين عائشة كانت تنكر على عليّ أمرين آخرين: أحدهما لم يكن لعلي فيه خيرة، فقد تزوج فاطمة بنت رسول الله ورزق منها الحسن والحسين، فكان أبا الذرية الباقية للنبي، ولم يتح لها هي الولد من رسول الله مع أنه قد أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم في أواخر أيام النبي فكان هذا العقم يؤذيها في نفسها بعض الشيء ولا سيما أنها كانت أحب نساء النبي إلى النبي.

أما الأمر الآخر فهو أن علياً قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبي

بكر رحمه الله، وأسماء الخثعمية هي أم محمد بن أبي بكر الذي نشأ في حجر علي..

ويقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد: إنه لما بويع علي في المدينة لم تكن السيدة عائشة من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه، ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه الصلاة والسلام في مسألة الإفك التي قيل إنه أشار فيها بتطليقها، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان..

أما السيدة الدكتورة زاهية قدورة[1] فترى أن بين الإمام علي والسيدة عائشة خصومة ترجع إلى أسباب كثيرة منها:

١ ـ كانت عائشة أول زوجة بني بها الرسول الله ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها أم فاطمة، ولقيت منه دلالاً وحبّاً فأثار ذلك في نفس فاطمة الزهراء زوجة الإمام علي الألم والامتعاض، ولا شك أن ذلك انتقل بواسطتها إلى الإمام علي، وكانت السيدة عائشة تشعر بهذا التوتر في العلاقات بينها وبين فاطمة عليها السلام، ثم بالتالي مع علي عليه السلام، ولم يكن الأمر يخلو من دعاة السوء الذين ينقلون الكلام من جهة إلى أخرى فتزداد العلاقات توتراً فنجد فاطمة من زوجها ملجأ تشكو إليه وتجد عائشة في أبيها مرجعاً تتألم لديه.

٢ ـ إلى جانب هذا العامل سبب يماثله ذلك أن الرسول الله ﷺ كان يحب فاطمة حبّاً شديداً وقد وضعها في مقام مريم بنت عمران، فقال فيها (سيدة نساء العالمين) وإنها عديلة مريم بنت عمران ـ وقال فيها أيضاً: (يؤذيني ما يؤذيها ويغضبني ما يغضبها وإنها بضعة مني يريبني ما رابها).

---

(١) السيدة الدكتورة زاهية قدورة هي رئيسة قسم التاريخ وعميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانية.

ولا شك أن ذلك يثير في نفس عائشة ألماً فقد كانت تود ألا يشاركها في منزلتها أحد وألا يفوقها شخص في مكانتها.

٣ ـ كان (لحديث الإفك) أبعد الأثر وأعمقه في نفس عائشة فحقدت على كل الذين اتهموها وكان الإمام منهم حتى إنه أشار على النبيﷺ بتطليقها قائلاً: (والنساء سواها كثير)، قبل أن يجري في الأمر تحقيق عادل ـ في حين أنه وقف موقفاً يختلف كل الاختلاف عن هذا الموقف يوم اتهمت مارية القبطية بالتهمة التي اتهمت بها عائشة في (حديث الإفك) فإنه اهتم ببراءتها حتى أثبت ذلك ـ فكان موقف الإمام سبباً في أن يثير في نفس عائشة ألماً وحقداً.

٤ ـ وزاد الأمر تعقداً ما نقل لعائشة عن علي وفاطمة أيام محنتها بحديث الإفك من أنهما أظهرا شماتة سرّاً وقد وردت عليها يوم نزلت براءتها من عند الله وهو ما يفعله المتهم ضد الذين اتهموه وآذوه إذا ما برأه القضاء والعدل.

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن يؤذيها تقريب الرسول لعلي، يدفعها في ذلك الحسد والغيرة وقد كان يسوء علياً وفاطمة ما تلقاه عائشة من حب الرسول وما يلقاه أبوها أيضاً من تفضيل وإكرام.

٥ ـ وقد لعبت العوامل النفسية دورها العظيم في هذا الخلاف فلم ترزق عائشة أولاداً وقد كان الرسول يحب أن يرزق أولاداً ـ ورزقت فاطمة البنين والبنات ـ وكان الرسول يحبهم حباً جمّاً حتى إنه تبناهم وكان يسميهم أولاده، فيثير ذلك في نفس الزوجة التي لم يرزقها الله بالولد الغيرة الشديدة.

٦ ـ اختار الرسولﷺ في مرضه الأخير بيت عائشة يمرض فيه وكان ذلك سبباً تفخر به في اختيارها وتفضيلها، وكانت بقية الزوجات ترجو أن تنال هذا الشرف ـ وكانت فاطمة وعلي يرجوان أن ينالهما فخر إقامة الرسول عندهما ليخدماه ـ فالفخر الذي نالته عائشة بهذا الاختيار قابله حقد

عليها ممن فشل في تحقيق هذا الذي كان يرجوه.

٧ ـ وقد كانت خلافة أبي بكر سبباً في إثارة عاملين مختلفين عند عائشة من جهة وعند فاطمة وعلي من جهة أخرى ـ أما عائشة فقد زهت بما أصابها من خير فهي زوجة حبيبة الله من ناحية وهي ابنة خليفة رسول الله من ناحية أخرى، وبالنسبة لعلي وفاطمة كانت مبايعة أبي بكر خيبة أمل وصدمة لهما ـ ذلك أن علياً كان يظن أنه لن ينازعه أحد في هذا الأمر، وقد قال له عمه: (وقد مات رسول الله ﷺ امدد يدك أبايعك؛ فيقول الناس عم رسول الله ﷺ بايع ابن عم رسول الله ﷺ فلا يختلف عليك اثنان ـ قال: (يا عم وهل يطمع فيها طامع غيري!) ـ ولما تم الأمر لأبي بكر تلكأ علي في بيعته وكانت فاطمة خلال ذلك تناضل في سبيل علي وتجادل في خلافة أبي بكر وكان علي وأنصاره يذيعون أن النبي أوصى لعلي فكانت عائشة ترد (متى أوصى إليه فقد كنت مسندته إلى صدري؟ أو قالت في حجري ـ فدعا بالطست فلقد انخنث في حجري وما شعرت أنه مات فمتى أوصى إليه؟).

لا شك أن أمراً كهذا لا يمكن أن يمر دون أن يزرع في النفوس ـ عند الفريقين ـ جفاء وقد زاد الأمر حدة حين أوصى أبو بكر لعمر، فكان ذلك عاملاً جديداً في نفس عليّ على أبي بكر وأثار شماتة في نفس عائشة وجدت لها رد الفعل الكافي في نفس الإمام علي عليه السلام.

٨ ـ اتهام علي لعائشة في أنها دبرت أمر إمامة أبي بكر الصلاة في مرض الرسول فنسب الإمام عليّ للسيدة عائشة أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فليصل بالناس لأن رسول الله ﷺ كما روى قال: ليصل بهم أحدهم ولم يعين؛ وكانت صلاة الصبح فخرج رسول الله ﷺ وهو في آخر رمق يتهادى بين علي والفضل بن عباس حتى قام في المحراب ثم دخل فمات ارتفاع الضحى؛ فجعل يوم صلاته حجة في صرف الأمر إليه وقال أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله ﷺ في الصلاة ولم

يحملوا خروج رسول الله ﷺ إلى الصلاة لصرفه عنها بل لمحافظته على الصلاة مهما أمكن فبويع على هذه النكتة التي اتهمها علي عليه السلام على أنها ابتدأت منها، وكان الإمام يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ويقول: «إنه لم يقل ﷺ إنكن لصويحبات يوسف إلا إنكاراً لهذه الحال وغضباً منها لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب» ـ هذه هي رواية الشيعة أما رواية السيدة عائشة رضي الله عنها أن الرسول الله ﷺ أصر على أن يؤم أبو بكر الصلاة ـ وهذا اختلاف جوهري له أثر في مجرى الأمور حتى تغلبت كما يظهر في ذلك الوقت رواية عائشة فبايع المسلمون أبا بكر لما ثبت عندهم تقديم الرسول له.

٩ ـ وقد ظهرت نقمة عائشة على الإمام حينما توفيت السيدة فاطمة الزهراء ـ فيروى أن نساء الرسول الله ﷺ ذهبن يعزين في وفاة الزهراء إلا عائشة، فإنها لم تذهب وادعت المرض وأنه نقل عن لسانها لعلي كلام يدل على السرور، ولا شك في أن ذلك اتهام أملاه ما بينهما من أسباب الحقد.

هذه هي الأسباب التي ظهرت في شكل خصومة انتهت بسفك كثير من الدماء في موقعة الجمل.

ويقول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود: «لقد زود الماضي السيدة عائشة بذخر من البغض، ادخرته لابن أبي طالب منذ الساعة التي شهدته فيها لا يقف إلى جانبها حين حاكت حولها الألسن الباغية حديث الإفك، وهي أيضاً مشبوبة الغيرة ككل حواء، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر، وكأية أنثى كان صدرها يجيش بعواطف أمومة مختزنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتحبو بها صغيراً تسعد به، فلم يسعفها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التي عاشتها زوجاً عاقراً، لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البنوة؛ لكم ودت لو دفعت إلى محمد طفلاً من دمها ومن صلبه يضفي عليه فيض حنانه، وتعيش هي على مدى الأحقاب في ذراريه، ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان، وما أحسبها

إلا كانت تشعر بشيء في صدرها يشبه الحسرة وهي تنقل بصرها فترى زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء، ويواليها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاه طفله تمتزج في عروقها دماء الزوجين، غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة، وعاشت في ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد. خديجة الزوج الأولى التي عاشرت رسول الله ربع قرن لم تغضبه خلاله مرة، وتزوجها وهو شاب وهي في طريقها إلى الكهولة، فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعدته، خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نواله، وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن؟ وتهبه من الولد وهي عجوز ما عجزت عنه الجميلة. الصغيرة، وتبقى على الدوام ماثلة في خاطره بعد موتها، لأنها لم تبرح أبداً قلبه، وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز، كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم.. ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيقي إذ تقول: «ما غرت على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة.. وما رأيتها، ولكن كان النبي يكثر ذكرها. وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة.. فيقول إنها كانت.. وكانت.. وكان لي منها ولد»، فهي باقية وإن ذهبت.. تعيش اليوم في خاطر محمد كما عاشت بالأمس في دنياه، وتكاد تملأ عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ولا حسنها ولا صباها، باقية أبداً في الزهراء الرقيقة وفي الحب الأبوي الكريم الذي يفيض به قلب رسول الله، باقية أيضاً في خلجات نفس عائشة بقاء شعور الغيرة العجيب الذي يراودها في كل لحظة، وهل آلم على نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت... وضعفها أمام شبح يطل على بيتها من خلل الماضي، ويلقى ظلالاً قاتمة على سعادتها الزوجية... الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف أو يحجب عنها صورة ضرتها الخطرة وراء ستر النسيان... بل قد حالف خديجة ومضى يعيدها إلى

الحياة مرات ومرات، ويكررها في حفدتها كما كررها في بناتها وأولادها، فإذا هي صور شتى تطالع عائشة كل يوم وتطوف عليها بيتها فتملأ سمعها وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش في وهم الذهن، فأي خليط من المشاعر، كان يجتاح نفسها كلما ألقت العين على محمد وهو يداعب حفدته ويوليهم حنان قلبه الرحيب، أهي الغيرة على الزوج الأولى التي صارت اليوم في أشخاصهم حقيقة تتجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى، أم الحسرة على حرمانها الولد الذي حلمت أن يكون نسلاً لها من رسولا لله تعيش خلاله على مدى الزمن السيار، أم الحقد على غريمها ابن أبي طالب وقد تفرد وحده بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب؟!

كانت أنثى كأية أنثى، تسمع لوحي قلبها وتلبي نداءه، فما خالفت طبيعة المرأة حين غارت وحين ملكتها الحسرة، وحين حقدت، فإن هي إلا واعيتها التي تكلمت ـ برغمها ـ وتحركت ودفعتها إلى موقفها العدائي للإمام، وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة، وضاع صوت العقل الهادىء الخفيض في ضوضاء المشاعر الصخابة.

وعن علاقة الإمام علي بالسيدة أم المؤمنين يقول[1] سعيد الأفغاني: إنه إذا رجعنا ثلاثين سنة قبل مبايعة علي بالخلافة نجد نقطة التحول التي فرضت على عائشة اتجاهها الذي اتجهته مع علي، ولم تستطع الإفلات منه ولا من عاطفتها العنيفة التي لم يخفف تتابع الأيام والسنين من حزنها، فالثابت أنه لم يجتمع أزواج النبيﷺ على شيء اجتماعهن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة، لما خصها النبيﷺ من محبة إذ حلت من قلبه في المنزلة التي لا تسامى، والغيرة بين الضرائر أمر فطرى مألوف قل أن تتنزه عنه امرأة، وكان علي وزوجته السيدة فاطمة بنت الرسول يحاولان حمل الرسول اللهﷺ على التخفيف من حبه لعائشة، ويَسفران لبقية أزواجه بما يرضيهن ويغضب عائشة، وأظن أن مثل هذه السفارة مما لا تغفره أنثى البتة.

---

(١) عائشة والسياسة (سعيد الأفغاني).

ذكر الرواة أن الغيرة اشتعلت يوماً في صدر أم سلمة لمشهد لمست فيه شدة حب النبي ﷺ لعائشة، فأخذتها الغيرة وجعلت تسب عائشة وجعل النبي ﷺ ينهاها فتأبى، وعاين النبي غلياناً في صدر عائشة على هذا العدوان، فرأى من الحكمة أن ينفس عنه بالقصاص العادل، فأمر عائشة بسبها كما سبتها؛ فانطلقت أم سلمة إلى علي وفاطمة ـ وكانا يخصانها بعطف ورعاية، وبقيت أم سلمة في حزب علي حتى ماتت فقالت: إن عائشة سبتها «وقالت لكم وقالت لكم». فكره ذلك عليّ وقال لفاطمة: اذهبي إلى النبي فقولي «إن عائشة قالت لنا وقالت لنا...». فأتته فذكرت ذلك له، فقال النبي ﷺ: «إنها حِبَّة أبيك ورب الكعبة».

وكأن هذا الدرس لم يرق لعلي، فقال للنبي ﷺ: «أما كفاك الآن: قالت لنا عائشة وقالت لنا، حتى أتتك فاطمة فقلت لها: إنها حبة أبيك ورب الكعبة؟»[1]. ولعل مثل هذه السفارة قد تكرر فحفظت عائشة ذلك كله لعلي وفاطمة.

وينبغي ألا ننسى ونحن نذكر ما يقع مثله عادة بين الأحماء أن نشير إلى أمر آخر مهم كانت السيدة عائشة نفسها هي التي تغار، ذلك أنها على شدة حظوتها عند الرسول الله ﷺ وكثرة محبتها له لم ترزق منه الولد، وكان عليه الصلاة والسلام كبير الشغف والفرح بأولاد بنته فاطمة كثير الرعاية لهم والحدب عليهم، وكانت تشهد عائشة من مباسطته لهم العجب العجاب فتشتعل الغيرة في صدرها من الحسن والحسين وتمتد حتى تغار من أبويهما علي وفاطمة، وهذا ـ وإن كان مبعثه الفطرة ومستفيضاً في كل الأسر ـ مما لا يجوز إهماله عند محاولتنا الرجوع في الخصومة بينهما إلى آثارها البعيدة الأولى.

روَّج المنافقون والموتورون من اليهود من أهل المدينة أمر الإفك

---

(١) السمط الثمين.

شفاء لما يمزق قلوبهم من غيظ على نصرة الإسلام ودخول المدينة في حكمه، وتحمل الرسول أذيتهم بصبر بالغ وحكمة واسعة، ولم يكن يخفي عليه طهر عائشة وبراءتها ونيات المرجفين، لكنه أمل أن ينزل الله عليه في أمرهم وحياً فلما استبطأ الوحي دعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستأمرهما في فراق أهله فأتيا، فأما أسامة فأثنى خيراً وأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، فقال: «يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً». وهذا الجواب هو الجواب الوحيد الذي توحى به البديهية والروية معاً، ولكن عليّاً ذهب مذهباً آخر إذ أشار على الرسول الله ﷺ أن يطلق عائشة فقال له: «لم يضيق الله عليك والناس غيرها كثير، واسأل الجارية تصدقك».

ويقول ابن أبي الحديد كما جاء في شرح نهج البلاغة[1]: لما خرجت السيدة عائشة على عليّ في خلافته جعلت أم سلمة تذكرها بهذا الحادث وتقول: «أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه ـ حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعليّ يناجيه فأطال، فأردت أن تهجمي عليهما، فنهيتك فعصيتني، فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية فقلت: ما شأنك؟ فقلت: إني هجمت عليهما وهما يتناجيان، فقلت لعلي: ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام، أفما تدعني يابن أبي طالب ويومي؟ فأقبل رسول الله ﷺ عليّ وهو غضبان محمر الوجه فقال: ارجعي وراءك، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان، فرجعت نادمة ساخطة.

قالت: نعم ـ أذكر ذلك...

كذلك لما بويع أبوها أبو بكر الصديق قيل إن الإمام عليّاً امتنع هو وبنو هاشم حتى إذا انقضت على البيعة ستة أشهر وماتت السيدة فاطمة أقبل

---

(١) يتشكك كثير من الكتاب في صحة هذا القول.

يبايع، ومن طبيعة الأشياء أن تضطغن عائشة على من تخلف عن بيعة أبيها ورأى أنه أحق بالخلافة منه وألا تطيب له نفسها بخير.

ولما قبض الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وآل الأمر إلى أبي بكر الصديق جاءت فاطمة تطلب من أبي بكر ميراثها، فاعتذر أبو بكر واختلف علي وفاطمة مع الخليفة وكان ذلك موضع استياء من السيدة عائشة.

وهناك إشارات عارضة، فعن عطاء بن يسار قال: جاء رجل فوقع في عليّ عليه السلام وفي عمار رضي الله عنه عند عائشة فقالت: «أما علي فلست قائلة لك فيه شيئاً، وأما عمار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما».

كذلك عندما سئلت السيدة عائشة في مسألة الوصاية وكان السؤال: أكان رسول الله ﷺ أوصى إلى علي؟ فقالت: لقد كان رأسه في حجري، فدعا بالطست فبال فيها، فلقد انحنث في حجري وما شعرت به، فمتى أوصى إلى علي؟[1].

وروى الطبري أنه روى عن عائشة أنها قالت: لما اشتد بالرسول وجعه دعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي فأذنّ له، فخرج رسول الله ﷺ بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتي»، قال راوي الحديث: فحدثت بهذا الحديث عنها عبد الله بن عباس فقال: «هل تدري من الرجل الآخر؟» قلت: «لا» قال: «علي بن أبي طالب، ولكنها لا تقدر على أن تذكره بخير وهي تستطيع».

وحتى بعد انقضاء حرب الجمل وانتهاء الأمر بينهما على خير لم يزل ما بنفسها نحوه، فقد ذكروا أنه لما انتهى إلى عائشة قتل علي قالت متمثلة:

---

(١) طبقات ابن سعد.

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

فمن قتله؟ فقيل: رجل من مراد، فقالت:

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

فذكروا أن زينب بنت أبي سلمة كانت حاضرة فقالت: «ألعليّ تقولين هذا؟» فقالت: «إني أنسى فإذا نسيت فذكروني».

وبعض المعاصرين ومنهم الشيخ محمد أحمد فرج السنهوري يذكر أن السيدة عائشة ما خرجت لقتال، وما خرجت إلا لإقامة الحد على البغاة قتلة عثمان الذين أشعلوا الفتنة وسعوا في الأرض فساداً ولإطفاء الفتنة والإصلاح بين الناس، استأذن عليها عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي رسولاً أمير البصرة عثمان بن حنيف وهي بالحفير فأذنت لهما، فدخلا وسلما وقالا إن أميرنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك هذا، أعهد عهده إليك رسول الله ﷺ أم رأي رأيته؟ فقالت؟ ما مثلي يغطي لبنة الخير وإن هذا الرأي رأيته، وإن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله ﷺ مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا عذر فاستحلوا الدم الحرام وسفكوه، وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام وحرمة الخلافة وحرمة الشهر الحرام، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراءنا وما ينبغي لهم من إصلاح، وقرأت: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكر تنهاكم عنه - غضبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم، فقال لها أبو الأسود: فما أنت وسيوفنا وسوط عثمان وأنت حبيس رسول الله ﷺ، أمرك أن تقرى في بيتك فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض، فقالت: وهل أحد يقاتلني؟ أو تقول غير هذا؟ فقال الرسول نعم - فهي لم تأت لقتال والقوم هم الذين يهددون به من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويطالب بإقامة حدود الله، وهو فرض على الناس كافة الرجال والنساء، وأولى به العلماء ذوو المكانة وفي طليعتهم أم المؤمنين، ولكن ما

للأسود وهذا فليس اسماً وفعلاً وحرفاً وما الأسود وما فقه أم المؤمنين.

ويستمر الشيخ السنهوري في قوله؛ فيذكر أن أم المؤمنين لم تعص الله ولم تفترق إثماً بهذه الوقعة، ولا ريب في أنها ندمت بعدها وما كان ندمها من أجل ذنب اقترفته، وإنما كان لإخفاق قصدها النبيل ولقتل من قتل من الجانبين ولاستمرار الفتن مشتعلة بين المسلمين، وما كانت تعني شيئاً من هذا حينما استأذن عليها ابن عباس وهي في كرب الموت وغمه فقالت له: إني أجد غمّاً وكرباً وأنا مشفقة مما أخاف أن أهجم عليه، فقال لها أبشري فوالله لرسول الله أكرم على الله من أن يزوجه جمرة من جمر جهنم، فقالت له: «فرجت عني فرج الله عنك»، فما كان إشفاقها من وقعة الجمل وما كان إشفاقها إلا من أجل حساب الحياة كلها؛ وهذا شأن الأبرار المقربين، ولقد سبقها في ذلك أبوها. وقد روى عن البخاري عن هشام بن عروة عن أبيه أنها أوصت ابن الزبير أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع.

ويختم الشيخ السنهوري بحثه بقوله: إن وقعة الجمل لم تنل من نفسها إلا بقدر ما ذكرت، ولم تمس مكانتها بين المسلمين أي مساس، وبقيت طول حياتها العالمة المجتهدة التي يرجع إليها الجميع ذات المكانة الرفيعة، وكانت تتحدث بفضل الله عليها غير مفاخرة، وتقول السيدة عائشة: «فيّ سبع خصال ليست في أحد من أزواج النبيﷺ: تزوجني النبيﷺ بكراً، ولم يتزوج أحداً من نسائه بكراً غيري، ونزل إليه جبريل بصورتي قبل أن يتزوجني، ولم ينزل بصورة أحد من نسائه غيري، ورأيت جبريل، ولم يره أحد من أزواجه غيري، وكانت من أحبهن إليه نفساً ووالداً، وكان جبريل ينزل عليه بالوحي وأنا معه في شعار، ولم يكن يأتيه وهو مع أحد من أزواجه غيري، ونزل فيّ آيات من القرآن كاد يهلك فيّ فَقام من الناس، ومات في يومي وليلتي وبين سحري ونحري.

وروى ابن سعد وابن أبي شيبة أنها قالت أعطيت تسع خلال ما أعطيتها امرأة: والله ما قول هذا فخراً ـ نزل الملك بصورتي، وتزوجني

لسبع، وأهديت إليه لتسع، وتزوجني بكراً، وكان الوحي يأتيه وأنا وهو في لحاف واحد، وكنت أحب الناس إليه وبنت أحب الناس إليه، ولقد نزلت فيّ آيات من القرآن وقد كادت الأمة تهلك في، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري، وقبض في بيتي لم يله أحد غيري وغير الملك..

أما الشيعة فيرون أن السيدة عائشة أخطأت بخروجها على الإمام العادل مظهرة الطلب بدم عثمان، وهي كانت من أعظم المحرضين عليه، وكانت تقول ما هو معروف مشهور، وتخرج قميص رسول الله ﷺ، وقد تركت عثمان وهو محصور لم تنصره ولم تحرض على نصره، وخرجت إلى مكة فبقيت فيها حتى قتل، ثم خرجت من مكة تريد المدينة وهي لا تعلم بقتله، روى الطبري وابن الأثير أنها لما كانت بسرف لقيها ابن أم كلاب وهو من أخوالها فقالت له: مهيم؟ قال: قتل عثمان، قالت: ما صنعوا؟ قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز، وحارت بهم خير محار، اجتمعوا على بيعة علي: فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ردوني، ردوني. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً. والله لأطلبن بدمه؛ فقال لها: ولم والله؟ إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول، فقال لها ابن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرإ ... يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها ... وما من مثل من قد غدر

وقد أمرت أن تقر في بيتها بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

ويعتذر المعتذرون لها بأنها اجتهدت فأخطأت أو أذنبت فتابت ورحمة الله واسعة، ويصعب علينا[1] التصديق بأن هذا كان اجتهاداً. وإذا جردنا أنفسنا عن التقليد ونظرنا نظراً لم يتأثر بشيء وجدناه بعيداً عن الاجتهاد غاية البعد، وقد قال البعض من الشيعة:

عائش ما نقول في قتالك   سلكت فيه سبل المهالك
ويا حميرا سبك محرم   ولأجل عين ألف عين تكرم

وروى أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبين بسنده أنه لما جاءها قتل علي بن أبي طالب سجدت، وروى فيه أبو الفرج أيضاً ومحمد ابن سعد في الطبقات وذكره المرزباني في معجم الشعراء والطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل: أنه لما أتاها نعيه تمثلت:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى   كما قر عيناً بالإياب المسافر

ثم قالت: من قتله؟ قيل: رجل من مراد: فقالت:

فإن يك نائياً فلقد نعاه   غلام ليس في فيه التراب

قال أبو الفرج: ثم تمثلت:

ما زال إهداء الصغائر بيننا   شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركت كأن قولك فيهم   في كل مجتمع طنين ذباب

إلى هنا أجدني قد أجبت عن السؤال الذي طرحته عن سبب خروج السيدة عائشة، ثم أجدني أطرح السؤال الثاني والأخير، وهو: على من تقع تبعة حرب الجمل المشؤومة؟ ويجيب عن هذا السؤال الأستاذ سعيد الأفغاني فيقول: إن الذي يحمل شر هذه الفتنة مباشرة هم الذين حملوا إثم قتل عثمان والتأليب عليه، فالسبئيون هم الذين ائتمروا بالجيشين وقد أشرفوا على الصلح وأسرعوا فباغتوا الطرفين بإنشاب القتال ـ وأعجلوها

---

(١) أعيان الشيعة (السيد محسن الأمين) الجزء الأول ـ القسم الثاني.

عن التروي والتثبيت، فعليهم إذن وحدهم جريمة هذه الألوف الخمسة عشر من الدماء المهراقة، كما كان عليهم وحدهم إثم قتل عثمان مباشرة، فإذا بلغنا من عليهم التبعات الثانوية (غير المباشرة) فمن قصر أو أخطأ في اجتهاده أو انصاع إلى طموح نفسه أو غلبته منافسته لأخيه؛ وجدنا ترتيب انصبائهم من التبعة في حرب الجمل على ترتيبها في الحملة على الخليفة عثمان رضي الله عنه: من غش له استئثاراً بالمنافع؛ أو تقصير في حقه أو خذلان له أو مجاهرة بنقده، فأوفاهم نصيباً منها الأمويون ثم طلحة فالزبير فعائشة فعلي:

١ ـ أما الأمويون فكانوا قد استغلوا قرابة عثمان أسوأ استغلال، وأبدلوه بما كان يجب له عليهم من المناصحة والعفة: احتكاراً للأعمال واستئثاراً بالأموال وإبعاداً لمن كرهوا من أهل الكفايات، حتى كانت أعمالهم هذه أشد ما أرّث على عثمان، فلما أن قتل انسلوا من أطراف البلاد، واجتمعوا بمكة وعُددهم وما حملوا من أعمالهم من أموال الله: ينفخون في الشر ويحرضون على الطلب بدم عثمان ويستغلون أهواء كل من أحسوا منه كرهاً لعلي أو منافسة له، وأظهروا ذلك كله، وأضمروا من ورائه أمراً آخر: قتل طلحة والزبير ورؤوس الناس من سواهم، وودوا أن يقتل غيرهم عائشة... ليخلص لهم الأمر ويرجع في بني أمية وقد خلت الأرض من منافس لهم.

ويعد يوم الجمل بالنسبة للأمويين هو اليوم الذي كان لهم ما بعده؛ بحيث تولوا من قاتلوا فيه علياً وكافأوهم، ولم يغتفروا لمن قصر فيه، وهذا معاوية وقد صار خليفة يدخل عليه الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة فيجبهه بهذا القول: أنت الشاهر علينا السيف يوم صفين والمخذل أم المؤمنين[1]. وبحق يعد الأمويون، ورأسهم في هذه الفتنة مروان، حلقة وسطى تلي السبئيين أصحاب التبعة المباشرة في هذه الدماء.

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر.

٢ ـ وأما طلحة ـ فكما كان أشد أصحاب الرسول الله ﷺ على عثمان[١]، كان هنا أيضاً أشد الناس على عليّ وأكرههم لخلافته وأوفرهم سعياً في التأليب عليه، وأطولهم يداً في تحريض الجماهير على المطالبة بدم عثمان وسوقهم إلى البصرة، وقد علم: أن إقامة الحدود من حق الإمام لا حق الغوغاء، وأن أولياء عثمان ـ وليس هو منهم ـ أولى منه بهذه الدعوى، وأن هذا الطلب لم يكن في وقته المناسب وأن ثمرته إضعاف أمر عليّ لا الثأر الحقيقي لعثمان.

٣ ـ وأما الزبير فأمره قريب من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه في لدد الخصومة والقوة فيها، ولعل ابنه عبد الله أوفى منه نصيباً من التبعة.

٤ ـ وأما السيدة عائشة فنقدها عثمان كان أشد عليه لما لها من الحرمة والإجلال ونفاذ الكلمة، وقد عرف الأمويون وطلحة والزبير ما يكون لدعواهم من القوة إذا نهضت بها معهم عائشة، وعرفوا ما تكن من الكرة لخلافة علي، فما زالوا يفتلون لها في الذروة والغارب حتى نهضت لما أنهضوها، وحملت من هذه الفتنة نصيبها، ويكاد يكون من المقطوع به أن الأمور لم تكن لتصل إلى العاقبة السيئة التي انتهت بها هذه المأساة لو غابت أم المؤمنين عن فتنة الجمل، ولقد عرف الإمام مصيبته فيها حق المعرفة حين قال: «حاربت خمسة أطوع الناس في الناس: عائشة[٢]، لقد كانت السيدة لهذه الفتنة ـ من حيث لا تريد ـ روحها، وكان مقامها فيها أقوى ما حفز الجماهير على التطوع لها، وعلى تهافتهم على الاستماتة بين يدي جمل عائشة، لقد كان في طبعها ولوع عظيم بالبطولة وإعجاب بالشجاعة ومقت للجبن، لذلك لم تكن تنفك عن تحريض الناس وتقوية قلوبهم، وكان لهذا التحريض والتقوية أثرهما البالغ في الاستماتة بين يديها على ما مر بك، ولقد أثر عنها قولها: «إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير ـ

(١) كلمة محمد بن سيرين (العقد الفريد ٣/ ٨٦).
(٢) التمتة في الأمالي لليزيدي.

كلما خفقت الريح خفقت فأفّ للجبناء». هذا وقد أكثر الناصحون من أخواتها أمهات المؤمنين وأصحاب رسول الله الأجلاء وعقلاء أهل المصرين: البصرة والكوفة، فلم تستجب لنصح أحد، ونفذ قضاء الله، والله سبحانه أعفى النساء من الدخول فيما هو من شأن الرجال، فلم يكلفهن سياسة ولا إدارة ولا إثارة جماهير ولا تجييش جيوش ولا تأليباً على الخلفاء، فإن باشرن شيئاً من هذا كان ذلك هو الفتنة عينها، وكان المجتمع حينئذٍ يعالج داء دخيلا في كيانه ينذر بالشر المستطير.

٥ ـ وأما الإمام فالحق أنه لا يحمل هنا من التبعة شيئاً ـ لقد فر من الشر فراراً ـ صبر عليه وطاوله، وغاب عن وجهه والشر يلاحقه، وكان أكره الجميع للفتنة ولإراقة الدماء، لكن المحافظة على وحدة الأمة وواجب القضاء على الفتن ألزماه المبادرة إلى المخالفين، فأرسل الرسل والمفاوضين وبذل من نفسه خير ما يبذل امرؤ بعيد عن الشر هرّاب منه، وقد وجه الفريقين إلى الصلح حتى كاد يتم لولا عنصر الشر في جيشه: السبئيون.

بقي أن أقول قبل أن أختتم هذا الموضوع إنه ليس شيء أدل على استفظاع الناس ما قامت عنه فتنة الجمل من حال أصحاب بالجمل أنفسهم كما سيأتي بيانه:

١ ـ لقد ندم طلحة، وأصابته حيرة قاتلة، وكان يكثر التفكير ويقول: «اللهم خذ مني لعثمان حتى يرضى».

٢ ـ وكان الزبير أكثر ندماً ويقول: «مغلوب مطلوب يغلبني ابني ويطلبني ذنبي»، حتى لقد هم بترك القتال في أوله لولا تعيير ابنه عبد الله وتعيير عائشة. ثم ترك القتال واعتزل.

٣ ـ أما علي عليه السلام فقد بينت حسرته لما رأى القتلى وعظم الخسارة بهم.

٤ ـ أما السيدة عائشة فقد قلّبت صفحات التائبين والنادمين فما رأيت

حسرة أشد من حسرتها، ولا توبة أصدق ولا أخلص من توبتها، ولا ندماً أعظم إيلاماً من ندمها، لقد قتلها الندم قتلاً، فما أكثر ما تمنت أن لم تكن خلقت، وما أكثر ما تمنت أن تكون حجراً أو مدرة، وكانت تقول: «لأن أكون قعدت في منزلي عن مسيري إلى البصرة أحب إلي من أن يكون لي عشرة من الولد ـ كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام».

والظاهر أنها كانت تكثر من هذه الحسرة، فقد روى الدينوري عنها مثل هذا الحديث؛ قالت: «وددت لو قعدت في بيتي ولم أخرج في هذا الوجه «تعني إلى البصرة»، لكان أحب إليّ من عشرة أولاد لو رزقتهم من رسول الله ﷺ على فضل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعقله وزهده».

ولقد ذكر عندها يوم الجمل مرة فبكت حتى ظنوا أنها لن تسكت، وكانت إذا قرأت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بكت حتى تبلّ خمارها. وعندما وافاها أجلها وقالوا لها: «تدفنين مع رسول الله ﷺ»؟ قالت: «لا ـ إني قد أحدثت بعده، ادفنوني مع أزواج النبي في البقيع» ـ[1] وكانت أم المؤمنين تقول أيضاً: «ليتني لم أخلق»، «يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضي ما عليّ»، «والله لوددت أني كنت شجرة ـ والله لوددت أني كنت مدرة»، «لوددت أن الله لم يكن خلقني شيئاً قط»، «ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين سنة».

---

(١) الطبري.

المأساة الثانية

الإمام ومعاوية:

نقدم لهذه المأساة بما قاله العميد الدكتور طه حسين: كان المسلمون من أهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين أمرهم عثمان على الأمصار. ويقدرون أنهم جميعاً، أو أن بعضهم على الأقل، سينكرون الخلافة الجديدة ويجادلون الخليفة في سلطانه غضباً لعثمان الذي ولاهم، وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاوية ابن أبي سفيان عامل عثمان على الشام، يعرفون قرابته من الخليفة المقتول، ويعرفون طاعة أهل الشام له لطول إقامته فيهم وإمرته عليهم منذ عهد عمر، وكانوا يعرفون مكانة معاوية من بني أمية، ويعرفون الخصومة القديمة بين بني أمية وبني هاشم قبل أن يظهر الإسلام. وحين انتقل النبيﷺ وأصحابه بدينهم الجديد إلى المدينة أصبح أبو سفيان قائد قريش بعد أن قتل قادتها وسادتها يوم بدر، وهو الذي أقبل بقريش يوم أحد فثأر لقتلى بدر من المشركين، وامرأته هند أم معاوية هي التي أعتقت وحشيّاً أن قتل حمزة، فلما قتله أقبلت على ميدان الموقعة، وبحثت عن حمزة حتى وجدته بين القتلى، فبقرت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها. وأبو سفيان هو الذي قاد قريشاً يوم الخندق، وألب العرب على النبي وأصحابه، وأغرى اليهود حتى نقضوا عهدهم مع النبيﷺ وأصحابه؛ وأبو سفيان هو الذي ظل يدبر مقاومة قريش للنبي وكيدها له

ومكرها به حتى كان عام الفتح، فأسلم حين لم يكن له من الإسلام بد.

ومهما يقل الناس في معاوية من أنه كان مقرباً إلى الرسول الله ﷺ بعد إسلامه، ومن أنه كان من كتاب الوحي ومن أنه أخلص للإسلام بعد أن ثاب إليه، ونصح للنبي ﷺ وخلفائه الثلاثة، مهما يقل الناس في معاوية من ذلك، فقد كان معاوية هو ابن أبي سفيان قائد المشركين يوم أحد ويوم الخندق، وهو ابن هند التي أغرت بحمزة حتى قتل، ثم بقرت بطنه ولاكت كبده، وكادت تدفع الرسول الله ﷺ نفسه إلى الجزع على عمه الكريم، وكان المسلمون يسمون معاوية وأمثاله من الذين أسلموا بأخرة ومن الذين عفا النبي عنهم بعد الفتح بالطلقاء، لقول الرسول الله ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذه مقدمة لا بد منها للمأساة الثانية التي جاءت الإمام علياً من بلاد الشام، وكانت بدون شك أشد هولاً، ولا تزال آثارها باقية إلى الآن، فالخصم[1] في الشام عنيف يحيط به جند أولو قوة وأولو بأس شديد، فأما عنف هذا الخصم وهو معاوية فيمكن أن نقدره حين نلاحظ أنه ابن أبي سفيان الذي حارب النبي بعد بدر فأبلى في حربه أشد البلاء وأقواه، وأظهر في هذه الحرب قوة وقسوة وكيداً ودهاء، ولم يسلم إلا بأخرة حين لم ير من الإسلام بدّاً، وحين لم يكن له إلا أن يختار بين الإسلام والموت، وقد ورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته كذلك، ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله وحفيظه عليهم، وهم قد وتروها يوم بدر، فثار لها المشركون يوم أحد، ولكن ضغنها لم يهدأ وحفيظتها لم تسكن حتى فتحت مكة، فأسلمت كارهة كما أسلم زوجها كارهاً.

وزيادة على ذلك أن معاوية كان ينتظر الإمام في ثبات وثقة

---

(١) الفتنة الكبرى ـ عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين.

واطمئنان، وكان معاوية يسير سيرة أقل ما توصف به ـ كما يقول أستاذنا العميد الدكتور طه حسين ـ أنها سيرة الرجل العربي الجواد الداهية، يعطي الناس ما وسعه إعطاؤهم، ويصل الذين يريد أن يتألفهم من الرؤساء والقادة لا يجد في ذلك بأساً ولا جناحاً، فكان الطامعون يجدون عنده ما يريدون، وكان الزاهدون يجدون عند علي ما يحبون، أما الإمام فقد كان مؤمناً بالخلافة كما تصورها المسلمون أيام أبي بكر وعمر، وفي الصدر الأول من خلافة عثمان، يرى أن من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس لا يؤثر منهم أحداً على أحد، ويرى أن من الحق عليه أن يحفظ على المسلمين مالهم، لا ينفقه إلا بحقه، فهو لا يستبيح لنفسه أن يصل الناس من بيت المال، بل هو لا يستبيح لنفسه أن يأخذ من بيت المال لنفسه وأهله إلا ما يقيم الأود لا يزيد عليه. جاءه أخوه عقيل بن أبي طالب مسترفداً فقال لابنه الحسن: إذا خرج عطائي فسر مع عمك إلى السوق فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين جديدتين.

وكما بينت كان معاوية ينتظر في اطمئنان لم يتعرض لحرب، على حين يهتم الإمام بأم المؤمنين ومن معها يريد أن يردهم إلى الطاعة، وكانت نتيجة حرب الجمل كما بينت أن أقتتل الشيوخ من المهاجرين والأنصار، فقتل طلحة والزبير وعادت أم المؤمنين إلى المدينة، وكثر القتل في أهل البصرة والكوفة، وبذلك يكون الإمام قد خاض حرباً منكرة قتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير.

وكانت سياسة معاوية تعظيم قتل عثمان، وكان معاوية قد أشار على عثمان قبل قتله برأي قال فيه: «الرأي أن تأذن لي بضرب أعناق هؤلاء القوم، قال: من؟ قال: علي وطلحة والزبير. قال عثمان: سبحان الله!.. أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه، ولا ذنب كبوه؟ قال معاوية: فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك. قال عثمان: لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء.

قال معاوية: فاختر مني إحدى ثلاث خصال.

عثمان: ما هي؟

معاوية: أرتب لك ههنا أربعة آلاف من خيل أهل الشام، يكونون لك ردءاً وبين يديك يداً.

عثمان: من أين أرزقهم؟

قال: من بيت المال.

عثمان: أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمي؟ لا فعلت هذا!

قال: فثانية.

قال: وما هي؟

قال: فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد، واضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته.

قال عثمان: سبحان الله! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم؟ لا أفعل هذا.

قال معاوية: فثالثة.

قال: وما هي؟

قال: اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت.

قال عثمان: نعم هذه لك. إن قتلت فلا يطل دمي[١].

وفي رواية أخرى أن معاوية قال له غير ذلك: اخرج معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا تطيقه. قال: لا أبتغي بجوار رسول الله بدلاً.

---

(١) الإمامة والسياسة.

ويعلق الأستاذ العلامة المرحوم العقاد على الآراء التي أشار بها معاوية على الخليفة فيقول: ما من رأى منها إلا النفع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان، وربما كان في معظمها ما يضره ولا يجديه، فليس قتل علي وطلحة والزبير بالأمر الهين الذي يدفع الشر عن الخليفة، وليس هو بالخطة التي يختارها معاوية لنفسه لو كان في موضع عثمان، وقد أعفى معاوية نفسه من التضييق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم عبد الرحمن بن خالد، فليس في خطته التي يختارها لنفسه ويحمل تبعتها على عاتقه أن يقتل ثلاثة من أقطاب الصحابة كعلي وطلحة والزبير، كما أشار على عثمان، وإنما يبوء عثمان بتبعتها ويترك الأمر من بعده لمعاوية بغير منافس ينافسه عليها بعد مقتل الثلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر، أما أهل الشام فهم في ولايته لا يعرفون أحداً غيره ينافسه باسمهم عند اختلاف المختلفين، وليس ثمة مختلفون إذا نفذ القضاء في الأقطاب المقتولين.

وأما الإشارة على عثمان بإقامة أربعة آلاف من خيل الشام يحرسونه؛ فهو تسليم الحجاز إلى يدي معاوية في حياة الخليفة وبعد حياته، فلا يقدر أحد على بيعة فيه غير البيعة التي يرضاها، ولا تقع هذه البيعة أصلاً لمن يستجيب لها أو لا يستجيب، والخروج من المدينة إلى الشام مع معاوية ينقل العاصمة إلى دمشق، ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية في جميع الحالات، والدليل على منفعة معاوية بتلك المطالب التي عرضها على الخليفة في شدته مطلبه أن تكون له ولاية الدم بعد مقتله، فإنه بمثابة ولاية العهد بإذن صاحب الأمر؛ إذ كان القصاص إنما يتولاه القائم بالشريعة حيث تقام حدود الدين، ولم يكن عثمان ليخشى عليه القتل من فرد يعتدي عليه غيلة فيكون عمل ولي الدم أن يقتاده إلى الحاكم القائم بالشريعة، ولكنه خشي عليه القتل من جماعات ثائرة لا يتولى إدانتها والقصاص منها غير صاحب سلطان أقوى من سلطانها وسلطان من تؤيده

وتطيعه على شرطها، فإذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان فقد طلب ولاية العهد، وفارقه وهو يعلم أنه مقتول.

وأوشك الخليفة أن يقتل، فإذا نظرنا في أرجاء العالم الإسلامي يومئذٍ لم نجد أحداً أقدر على نجدته من معاوية، لأنه الوالي المستقر ولايته منذ عشرين سنة يقصي عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه، وغيره من الولاة في ذلك العهد بين معزول أو معتزل أو مهدد في سلطانه كما هدد الخليفة في عاصمته، ومن كان حول الخليفة من أثرياء المدينة لم يكن في وسعه أن ينصره بقوة أقوى من الدولة وحراسها وأشياعها، فإذا جمع السفهاء جماحهم الذي يغلب الدولة على قوتها وهيبتها فحريّ ألا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر والنصيحة، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي أن ذوي الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم كما أخذهم باللوم لأنهم لم ينصروه، ومن هؤلاء أبو الطفيل عامر بن وائلة الصحابي.

قال له معاوية: ألست من قتلة عثمان؟

قال أبو الطفيل: لا، ولكنني ممن حضره فلم ينصره.

قال: وما منعك من نصره؟

قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار.

قال معاوية: أما لقد كان واجباً عليهم أن ينصروه؟

فقال أبو الطفيل: فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام.

فقال معاوية: أما طلبي بدمه نصرة له؟

فضحك أبو الطفيل ثم قال: أنت وعثمان كما قال الشاعر!

لا ألفينك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زودتني زادي

ووقعت الوقعة، ومات الخليفة قتيلاً، وذهب معاوية يطالب بدمه، وينكر على عليّ بيعته لأنه لا يسلمه قتلة عثمان ممن يذكرهم إجمالاً أو يسميهم بأسمائهم، وآل الأمر كله بعد حين إلى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء، فلم يأخذ واحداً منهم بجريرة مشهودة، ولم يحاسب أحداً على جريرة مستورة تتطلب الإشهاد، وكان يلقي الرجل منهم فلا يزيد على أن يسأله كما سأل أبا الطفيل: ألست من قتله عثمان؟ ثم يصرفه في أمان، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزوداً بالعطاء.

وظهر من مبدأ الخصومة أن الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة اللاعجة التي تثير الثائرة وتضرم الحروب، فإن معاوية قد حالف عمرو بن العاص وكافأه بولاية مصر، وهي ولاية عزله منها عثمان.

ولم يخف هذا الموقف الذي لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته، فقد قدم معاوية بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة إبنة عثمان وبكت ونادت أباها، فقال معاوية: يابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس[1].

فالمطالبة بدم عثمان إنما كانت ـ كما يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد ـ قضية قائمة حين كانت لازمة للتحريض على عليّ وبث الدعوة والتمكين لمعاوية، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن في وسع علي أن يفعله سكت عن الثأر وحديثه، إلا ما كان من قبيل الحوار العقيم في المجالس، وقبل من نفسه العذر ضعيفاً هزيلاً، ولم يكن يقبله قوياً معززاً بالواقع والبينة ممن لا لوم عليه؛ وأخيراً فإن كل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله

---

(١) العقد الفريد.

وبعده ثابت النفع لمعاوية غير ثابت النفع لعثمان، وبذلك تكون الثورة التي ثارها معاوية باسم عثمان ثورة في طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمسها من مقتل الخليفة الشهيد!!

رسول الإمام إلى معاوية:

بعث الإمام علي عليه السلام جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية، وانطلق جرير حتى أتى الشام، ودخل على معاوية فقال: «أما بعد يا معاوية فقد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصريين وأهل الحجاز واليمن ومصر وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليمامة، ولم يبق إلا هذه الحصون التي أنت بها لو سال عليها سيل من أوديته غرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل، ودفع إليه كتاب الإمام علي وفيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم» سلام عليك. أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضاً، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو رغبة دوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون، فأدخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إليّ قبولك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك، وقد أكثرت في قتلة عثمان، فأدخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله، وأما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنني أبرأ قريش من دم عثمان، واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل

لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى، وقد أرسلت إليك من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايعه، ولا قوة إلا بالله».

فكتب معاوية رسالة أرسلها إلى الإمام علي مع أبي مسلم عبد الرحمن جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب. أما بعد فإن الله اصطفى محمداً بعلمه، وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه، ثم اجتبى له من المسلمين أعواناً أيده بهم فكانوا في المنازل عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، وكان أنصحهم لله ورسوله خليفته ثم خليفة خليفته ثم الخليفة الثالث المقتول ظلماً عثمان، فكلهم حسدت، وعلى كلهم بغيت، عرفنا ذلك في نظرك الشزر. وقولك الهجر. وتنفسك الصعداء، وإبطائك عن الخلفاء، في كل ذلك تقاد كما يقاد الجمل المخشوش، ولم يكن لأحد منهم أشد حسداً منك لابن عمتك، وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقرابته وفضله، فقطعت رحمه، وقبحت حسنه، وأظهرت له العداوة، وأبطنت له الغش، وألبت الناس عليه حتى ضربت آباط الإبل إليه من كل وجه، وقيدت الخيل من كل أفق، وشهر عليه السلاح في حرم رسول الله ﷺ، فقتل معك في المحلّة وأنت تسمع الهائعة لا تدرأ عنه بقول ولا فعل، ولعمري يابن أبي طالب لو قمت في حقه مقاماً تنهى الناس فيه عنه وتقبح لهم ما اهتبلوا منه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً، ولمحا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة له والبغي عليه، وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنين: إيواؤك قتلته فهم عضدك ويدك وأنصارك، وقد بلغني أنك تنتفي من دم عثمان وتتبرأ منه، فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به، ثم نحن أسرع الناس إليك، وإلا فليكن بيننا وبينك السيف، ووالذي لا إله غيره لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله، والسلام».

ومن هذا الخطاب المملوء بالمغالطات نرى:

١ ـ أن معاوية لم يكن يريد السلم.

٢ ـ أن معاوية اتهم الإمام بحسد الخلفاء وعدم الإسراع في بيعتهم، وأنه لم يبايع إلا مضطراً.

٣ ـ أنه يتهم أيضاً الإمام بحسد ابن عمته والقعود عن نجدته حتى ضيق عليه الثائرون به.

٤ ـ يطلب معاوية من الإمام أن يثبت براءته من دم عثمان بتسليم قاتليه.

٥ ـ أنه تحدى الإمام بزعمه للإمام أنه إذا دفع إليه قتلة عثمان أسرع ومعه أهل الشام إلى بيعته.

وقد بينت فيما سبق بالتفصيل أن تلك الغيرة على عثمان لم تكن إلا حجة فقط لكي يستر بها مهاجمته للإمام، كما بينت أن هذا الموقف لم يكن خافياً على أبناء عثمان ولا على الناس جميعاً.

الإمام يرفض ويرد:

وقد رفض الإمام ما طلبه معاوية، ورد بالكتاب الذي قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبي سفيان، أما بعد، فإن أخا خولان قدم عليَّ بكتاب منك تذكر فيه محمداً وما أكرمه الله به من الهدى والرحمن، فالحمد الله الذي صدق له الوعد ومكن له في البلاد وأظهره على الدين كله، وقمع به أهل العداوة والشنآن من قومه الذين كذبوه وشنعوا عليه، وظاهروا عليه وعلى إخراج أصحابه، وقلبوا له الأمور حتى ظهر أمر الله وهم له كارهون، فكان أشد الناس عليه الأدنى فالأدنى من قومه إلا قليلاً ممن عصم الله.

وذكرت أن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أعواناً أيده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم خليفته وخليفة من بعده، ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم، وإن المصاب بهما لرزء جليل. وذكرت أن ابن عفان كان في

الفضل ثالثاً، فإن يكن عثمان محسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزى بها، وإن يكن مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً رحيماً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره وإني لأرجو ـ إذا أعطى الله المؤمنين على قدر أعمالهم ـ أن يكون قسمنا أوفر قسم أهل بيت من المسلمين.

إن الله بعث محمداً ﷺ فدعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له، فكنا أهل البيت أول من آمن وأناب، فمكثنا وما يعبد الله في ربع سكن من أرباع العرب أحد غيرنا، فبغانا قومنا الغوائل وهموا بنا الهموم، وألحقوا الوسائط، واضطرونا إلى شعب ضيق وضعوا علينا فيه المراصد، ومنعونا الطعام والماء العذب، وكتبوا بينهم كتاباً ألا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يُبايعونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا أو ندفع إليهم نبينا فيقتلوه أو يمثلوا به، وعزم الله لنا على منعه والذب عنه وسائر من أسلم من قريش أخلياء ممن نحن فيه، منهم من حليف ممنوع وذي عشيرة لا تبغيه كما بغانا قومنا، فهم من التلف بمكان نجوة وأمن. فمكثنا بذلك ما شاء الله.

ثم أذن الله لرسوله في الهجرة وأمره بقتال المشركين، فكان إذا حضر البأس ودُعيت نزال قدم أهل بيته فوقَى بهم أصحابه. فقتل عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وجعفر يوم مؤتة، وتعرض من لو شئت أن أسميه سميته لمثل ما تعرضوا له من الشهادة، لكن آجالهم حضرت ومنية أخرت.

وذكرت إبطائي عن الخلفاء وحسدي لهم، فأما الحسد فمعاذ الله أن أكون أسررته أو أعلنته، وأما الإبطاء فما أعتذر إلى الناس منه، ولقد أتاني أبوك حين قبض رسول الله ﷺ وبايع الناس أبا بكر فقال: «أنت أحق الناس بهذا الأمر، فأبسط يدك أبايعك»، وقد علمت ذلك من قول أبيك. فكنت الذي أبيت ذلك مخافة الفرقة لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية، فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشدك، وإلا تفعل فسيغني الله عنك.

وذكرت عثمان وتأليبي الناس عليه، وإن عثمان صنع ما رأيت،

فركب الناس منه ما قد علمت، وأنا من ذلك بمعزل إلا أن تتجنى، فتجنَّ ما بدا لك. وذكرت قتلته بزعمك وسألتني دفعهم إليك وما أعرف له قاتلاً بعينه، وقد ضربت الأمر إلى أنفه وعينيه فلم أره يسعني دفع من قبلي ممّن اتهمته وأظننته إليك. ولئن لم تنزع عن غيك وشقائك لتعرفن الذين تزعم أنهم قتلوه طالبين لا يكلفونك طلبهم في سهل ولا جبل.. والسلام».

وظاهر من هذا الكتاب أن الإمام علياً عليه السلام يريد أن يبرز أن أهل البيت احتملوا في الإسلام ما لم يحتمل غيرهم وما لم يحتمل أبو بكر وعمر وعثمان خاصة، فهم لم يحصروا، ولم يهجروا، ولم يضيق عليهم في الرزق، فأهل البيت إذاً أولى الناس بالنبي، وأحقهم بالأمر بعده. ثم ذكر الهجرة وما كان من القتال في سبيل الله وذكر أن النبي، كان يقدم أهل بيته لحماية أصحابه في مواطن البأس[1].

الحرب:

وأخيراً تبين لأهل الشام وأهل العراق أن الحرب قائمة لا شك فيها؛ يرى أهل الشام أن يثأروا للخليفة المظلوم، ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن يكرهوا أهل الشام على البيعة والطاعة قبل كل شيء، ويرى أهل الشام أن طاعة علي لا تلزمهم لأن الناس لم يبايعوه عن رضا منهم جميعاً ولأنه عطل حدّاً خطيراً من حدود الله وهو القصاص ممن قتل الخليفة المظلوم، ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن كثرة المسلمين الضخمة قد بايعت علياً في الحرمين والمصرين وفي مصر أيضاً فأصبحت طاعته واجبة، وأصبح أهل الشام طائفة باغية يجب أن تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله.

---

(١) الفتنة الكبرى للأستاذ الدكتور طه حسين.

رسالة الإمام إلى عماله:

كتب الإمام علي عليه السلام إلى عماله في الآفاق يأمرهم بالمسير إليه، ويحث الناس على الجهاد معه، فكتب إلى مخنف بن سليم عامله على أصبهان وهمذان: إذا أتيت بكتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك وأقبل إلينا. وكتب إلى عبد الله بن عباس: أما بعد فأشخص إلى من قبلك من المسلمين والمؤمنين، وذكرهم بلائي عندهم وعفوي عنهم، واستبقائي لهم، ورغبهم في الجهاد وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل. فقرأ عليهم ابن عباس كتاب علي عليه السلام. وقال أيها الناس استعدوا للمسير إلى إمامكم وانفروا في سبيل الله خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم.

وقال هاشم بن عتبة: «سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله، فأحلوا حرامه وحرموا حلاله، واستولاهم الشيطان، ووعدهم الأباطيل، ومناهم الأماني حتى أزاغهم عن الهدى، وقصد بهم قصد الردى، وحبب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها كرغبتنا في الآخرة، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله رحماً، وأفضل الناس سابقة وقدماً، وهم يعلمون منك مثل الذي علمنا، ولكن كتب عليهم الشقاء، ومالت بهم الأهواء، وكانوا ظالمين، فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة، وقلوبنا منشرحة ببذل النصيحة، وأنفسنا بنورك جذلة على من خالفك وتولى الأمر دونك، والله ما أحب لي ما في الأرض مما أقلت وما تحت السماء مما أظلت، وأني واليت عدوّاً لك أو عاديت وليّاً لك».

فقال عليّ عليه السلام: «اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك والمرافقة لنبيك صلى الله عليه وآله».

وصعد الإمام المنبر وقال: «اعلموا أن الله جعل أمراس الإسلام

متينة، وعراه وثيقة، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه، وتناول ما ليس له، وما لا يدركه: معاوية وجنده الفئة الباغية الطاغية، يقودهم إبليس ويدليهم بغروره. فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عني فإن الذود إلى الذود إبل ـ ومن لم يزد عن حوضه يتهدم. ثم إني آمركم بالشدة في الأمر والجهاد في سبيل الله وألا تغتابوا مسلماً وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله».

ماذا قال الحسن والحسين

وقام الحسن بن علي عليه السلام خطيباً ـ وقال: «إن مما عظم الله عليكم من حقه، وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره، لا يؤدي شكره ولا تبلغه صفة ولا قول، ونحن إنما غضبنا لله ولكم، فإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم، واستحكمت عقدتهم، فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده، ولا تخاذلوا فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة، وكفاهم جوائح الذلة، وهداهم إلى معالم الملة.

والصلح تأخذ منه ما رضيت به   والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقام الإمام الحسين فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أهل الكوفة، أنتم الأحبة الكرماء، الشعار دون الدثار، جدّوا في إحياء مآثر دينكم، وإسهال ما توعر عليكم، ألا إن الحرب شرها ذريع، وطعمها فظيع، وهي جرع متحساة، فمن أخذ لها أهبتها فذاك صاحبها، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها فذاك كمن ألا ينفع قومه ويهلك نفسه.

القتال على الماء:

سار الإمام علي في جيشه الكبير، وكان معاوية قد سبقه وأنزل أصحابه في صفين، ولكن أصحاب علي لم يجدوا على الفرات شريعة يستقون منها، ودعا الإمام صعصعة بن صوحان فقال: ائت معاوية فقل إنا

سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قد قدمت بخيلك تقاتلنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالقتال، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك. وهذه أخرى قد فعلتموها حلتم بين الناس وبين الماء، فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيها بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم. وإن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا. فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ قال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان، حصروه أربعين يوماً يمنعونه الماء ولين الطعام، اقتلهم عطشاً قتلهم الله. وقال عمرو بن العاص: خل بين القوم وبين الماء، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم. فأعاد الوليد مقالته، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سفيان وهو أخو عثمان من الرضاعة: امنعهم الماء إلى الليل فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، وكان رجوعهم هزيمتهم، امنعهم الماء منعهم الله إياه يوم القيامة.

فقال صعصعة: «إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة الخمر». فهاج عليه أنصار معاوية، فقال لهم: كفوا عن الرجل فإنه رسول، فقال صعصعة لمعاوية: هل لك أن ترد عليّ؟ قال: سيأتيكم رأيي. فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف، فأرسل إلى أبي الأعور: امنعهم الماء. وقال السليل ابن عمرو يخاطب معاوية:

امنع الماء من صحاب علي ... أن يذوقوه والذليل ذليل
واقتل القوم مثلما قتل الشـ ... ـيخ ظمأً والقصاص أمر جميل
فامنع القوم ماءكم ليس للقو ... م بقاء وإن يكن فقليل

وفرح أهل الشام بالغلبة على الماء. فقال معاوية: يأهل الشام هذا والله أول الظفر، لا سقاني ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتى يقتلوا بأجمعهم عليه. وتباشر أهل الشام، فقام إلى معاوية رجل من أهل الشام يقال له المعري الهمداني ـ وكان ناكساً وكان له لسان، وكان صديقاً ومؤاخياً لعمرو بن العاص: يا معاوية، سبحان الله أن سبقتم القوم إلى

الفرات فغلبتموهم عليه تمنعونهم عنه، أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه، أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له! هذا والله أول الجور. لقد شجعت الجبان، وبصرت المرتاب، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك. فأغلظ له معاوية وقال لعمرو: اكفني صديقك. فأتاه عمرو فأغلظ له، فقال الهمداني في ذلك:

لعمر أبي معاوية بن حرب — وعمرو ما لدائهما دواء
سوى طعن يحار العقل فيه — وضرب حين تختلط الدماء
فلست بتابع دين ابن هند — طوال الدهر ما أرسى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب — وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولي في حوادث كل أمر — على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درك يابن هند — لقد ذهب الحياء فلا حياء
أتحمون الفرات على رجال — وفي أيديهم الأسل الظماء
وفي الأعناق أسياف حداد — كأن القوم عندكم نساء
فترجو أن يجاوركم علي — بلا ماء وللأحزاب ماء

وتوجه الأشعث إلى الإمام علي وقال: يا أمير المؤمنين، أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف، خل عنا وعن القوم، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت. ونادى الأشتر في الناس من كان يريد الموت أو الماء فميعاده الصبح فإني ناهض إلى الماء، فأتاه من ليلته اثنا عشر ألف رجل، وشد عليه سلاحه وهو يقول:

ميعادنا اليوم بياض الصبح — هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا ولا أمر بغير نصح — دبوا إلى القوم بطعن سمح
لا صلح للقوم وأين صلحي — حسبي من الإقحام قاب رمح

وطلب الأشعث من الجنود أن يقتحموا الخيل، فاقتحموها حتى وضعت سنابكها في الفرات، وأخذت القوم السيوف فولوا مدبرين، فقال الإمام هذا يوم نصرنا فيه الأشعث بالحمية، وقال الأشعث: يا أمير

المؤمنين، قد غلب الله لك على الماء.

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: ما أظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم كما منعتهم أمس! أتراك ضاربهم عليه كما ضاربوك عليه، وما أغنى عنك أن تكشف لهم السوأة.

قال: دع عنك ما مضى. ما ظنك بعلي؟ قال ظني أنه لا يستحل منك ما استحللت منه، وأن الذي جاء له غير الماء. فلما غلب عليّ على الماء، فطرد عنه أهل الشام، بعث إلى معاوية: إنا لا نكافيك بصنعك، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء، فأخذ كل منهما بالشريعة مما يليه. وقال علي لأصحابه إن الخطب أعظم من منع الماء. وقال معاوية: لله در عمرو ما عصيته في أمر إلا أخطأت الرأي فيه.

الإمام يراسل معاوية بصفّين:

ودعا الإمام عليه السلام بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي: وقال لهم: ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل وإلى الطاعة والجماعة وإلى أتباع أمر الله تعالى. فقال له شبث: ألا تطعمه في سلطان توليه إياه ومنزلة تكون له بها أثرة عندك إن هو بايعك؟

قال علي: ائتوه الآن فألقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه.

وتوجه رسل الإمام إلى معاوية ـ وقال له بشير بن عمرو: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإن الله مجازيك بعملك، وإني أنشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها بينها...

فقطع معاوية عليه الكلام فقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك!!

فقال عمرو الأنصاري: سبحان الله! إن صاحبي ليس مثلك، إن صاحبي أحق البرية بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال معاوية: فيقول ماذا؟

قال: أدعوك إلى تقوى ربك، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دينك، وخير لك في عاقبة أمرك.

قال معاوية: ويطل دم عثمان، لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً.

وقال شبث بن ربعي: يا معاوية، إنه لا يخفي علينا ما تقرب وما تطلب، إنك لا تجد شيئاً تستهوي به الناس إلا أن قلت لهم قتل إمامكم مظلوماً فهلموا نطلب بدمه، فاستجاب لك سفهاء رذال، وقد علمنا أنك أبطأت عليه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي تطلب، ورب مبتغ أمراً يحول الله دونه، وربما أوتي المتمني أمنيته وربما لم يؤتها، والله ما لك في واحدة منهما خير، والله إن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالاً. ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تسحق صلا النار، فاتق الله يا معاوية ولا تنازع الأمر أهله.

معاوية: إني أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه، ثم عتبت بعد فيما لا علم لك به، ولقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما وصفت وذكرت. انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف.

واستمرت المراسلة بين الإمام علي ومعاوية ثلاثة أشهر، وليس عند معاوية شيء يقوله للإمام سوى مقتل عثمان وأن الإمام قتل عثمان ويطلب تسليم قتلته وقيل إن المراسلة بينهما استمرت خمساً وثمانين مرة في ثلاثة أشهر إلى أن دخل أبو أمامة الباهلي وأبو الدرداء على معاوية فقالا: علام تقاتل هذا الرجل؟! فوالله لهو أقدم منك، وأحق بهذا الأمر منك، وأقرب من النبيﷺ، فعلام تقاتله؟ فكان جوابه كالعادة: أقاتله على دم عثمان وأنه أوى قتلته، فقولا له فليقدنا من قتلته وأنا أول من بايعه، فانطلقا إلى علي فأخبراه فقال: هم الذين ترون، فخرج عشرون ألفاً أو أكثر مسربلين في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقالوا: كلنا قتلته، فإن شاءوا فليروموا

ذلك منا، فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال، حيث إذا كان شهر رجب وخاف معاوية أن يبايع الناس علياً على القتال أخذ في المكر وأخذ يحتال.

على أنه بمجرد أن انسلخ شهر المحرم واستقبل صفر سنة ٣٧ بعث علي نفراً من أصحابه حتى إذا كانوا في عسكر معاوية نادى مرثد ابن الحارث الجشمي: يا أهل الشام، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأصحاب رسول الله ﷺ يقولون لكم إنا والله ما كففنا عنكم شكّاً في أمركم ولا بغياً عليكم، وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم ثم انسلخ، وأنا قد نبذنا إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. (وفي رواية) أمره فنادى، يأهل الشام، ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استنبذتكم واستأنيتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه فلم تتناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حق، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم، وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتائب وأوقدوا النيران وجاءوا بالشموع، وبات الإمام ليلته كلها يعبىء الناس ويكتب الكتائب ويدور في الناس ويحرضهم.

وكان الإمام يأمر عساكره في كل موطن لقوا معه عدوه فيقول: لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدءوكم، وإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلا بإذني، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة إلا بإذني، وإن شتمن أعراضكم وتناولن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول، ولقد كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة فيعير بها عقبة من بعده.

وسمع من الإمام علي﵇ أيام الجمل وصفين والنهروان أنه كان يقول للناس: عباد الله، اتقوا الله﷿ وغضوا الأبصار وأخفضوا الأصوات وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة والمبارزة والمعانقة والمكادمة، وأثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين، اللهم ألهمهم الصبر، وأنزل عليهم النصر، وأعظم لهم الأجر.

القتال:

في يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأ القتال العنيف فخرج من أهل الكوفة الأشتر وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة، فاقتتلوا قتالاً شديداً جل النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض، ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجالة حسن عددها وعدتها، وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي فاقتتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض، وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر وخرج عمرو بن العاص فاقتتل الناس كأشد القتال وجعل عمار يقول: يأهل الإسلام، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين، فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى النبيﷺ فأسلم. وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسولهﷺ وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم، ألا وإنه معاوية. وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل، فأمره أن يحمل في الخيل فحمل، وصيروا له، وشد عمار فأزل عمرو بن العاص عن موقفه، وبارز زياد بن النضر أخاً من أمه من بني عامر وهو معاوية بن عمرو العقلي، وخرج محمد بن علي بن أبي طالب وخرج إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمعين عظيمين، فاقتتلوا كأشد القتال، ثم إن عبيد الله بن عمر أرسل إلى محمد بن الحنفية أن أخرج إلي أبارزك، قال له: نعم، ثم خرج إليه يمشي، فبصر به علي، فقال: من هذان المتبارزان؟ فقيل له: ابن

الحنفية وابن عمر، فحرك عليّ دابته ثم دعا محمداً فوقفت له وقال: أمسك دابتي، فأمسكها ثم مشى إليه علي فقال: أنا أبارزك، قال ليس لي في مبارزتك حاجة، وأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه: منعتني من مبارزته، فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله، قال: يا بني لو بارزته أنا لقتلته، ولو بارزته أنت لرجوت من أخذ بها لحق ومن تركها مرق ومن فارقها محق. نحن أهل بيت الرحمة وقولنا الصدق ومن فعالنا القصد، ومنا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام ومنا قراء الكتاب، ندعوكم إلى الله وإلى رسوله وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره وابتغاء رضوانه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان وتوقير الفيء لأهله، ألا وإن من أعجب العجب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما، وقد علمتم أني لم أخالف رسول الله ﷺ قط، ولم أعصه في أمر قط، أفيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال وترعد فيها الفرائض نجدة أكرمني الله بها فله الحمد، ولقد قبض رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حجري ولقد وليت غسله بيدي وحدي تقلبه الملائكة المقربون معي، وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله.

وفي ليلة الأربعاء قال الإمام في خطبة أخرى: ألا إنكم ملاقو العدو غداً إن شاء الله، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله الصبر والنصر، والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين.

ثم انصرف ووثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم يصلحونها، ولما كان الليل بعث الإمام منادياً فنادى: يأهل العراق، اغدوا على مصافكم نصبح أهل الشام في عسكرهم؛ ونادى معاوية: أين الجند المقدم؟ فخرج أهل حمص في راياتهم عليهم أبو الأعور السلمي، ثم نودي: أين أهل الأردن؟ فخرجوا في راياتهم عليهم سفيان بن عمرو السلمي، وفي اليوم الخامس خرج بن العباس والوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالاً

شديداً، ودنا ابن عباس من الوليد يسب بني عبد المطلب، فأرسل إليه ابن عباس أن أبرز إلي فأبى، وقاتل ابن عباس يومئذٍ قتالاً شديداً، ثم انصرفوا، ثم خرج شمر بن أبرهة بن الصباح الحميري في ذلك اليوم فلحق بعلي، ومعه وفد من أهل الشام، فلما رأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص وما خرج إلى الإمام من قبائل أهل الشام فت ذلك في عضد معاوية وعمرو، وقال الأخير: يا معاوية، إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلاً له من محمدﷺ قرابة قريبة ورحم ماسة وقدم في الإسلام لا يعتد أحد بمثلها، ونجدة في الحرب لم تكن لأحد من أصحاب محمدﷺ؟ إنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم، وقدمائهم في الإسلام ولهم في النفوس مهابة، ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل. وعندما سمع معاوية ذلك حاول أن يخضب في أهل الشام، وكذلك حاول عمرو بن العاص بعده.

وعندما علم الإمام بما قاله معاوية وعمرو بات ليلته كلها يعبىء الناس حتى إذا أصبح زحف الناس. وخرج إليه معاوية وأهل الشام، وتقابل القوم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانصرفوا عند المساء، وكل غير غالب، وأخذ الإمام يحرض أصحابه ويوصيهم وصايا مهمة في الحراب فقال: «إن الله قد دلكم على تجارة تنجيكم من العذاب: إيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله، وجعل ثوابه مغفرة الذنوب، ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر، وأخبركم بالذي يحب فقال: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص، وقدموا المدرع، وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار، والتووا في أطراف الرماح فإنه أمرر للأسنة، وراياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا في أيدي شجعانكم المانعي الذمار، وايم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بعد الصبر ينزل النصر».

وطلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يسوي صفوف أهل الشام، فقال له عمرو: على أن لي حكمي إن قتل الله ابن بي طالب واستوسقت لك البلاد.

فقال معاوية: أليس حكمك في مصر؟

فقال عمرو: وهل مصر تكون عوضاً عن الجنة وقتل ابن أبي طالب ثمناً لعذاب النار؟!

معاوية: إن لك حكمك أبا عبد الله إن قتل ابن أبي طالب رويداً لا يسمع أهل الشام كلامك.

فقال عمرو موجهاً الكلام لأهل الشام: «سووا صفوفكم، وأعيروا ربكم جماجمكم، وجاهدوا عدو الله وعدوكم، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم، واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين».

ولم يكتف معاوية بذلك بل لجأ إلى «ذي الكلاع» وطلب منه أن يحرض الناس على قتال الإمام، وكان من أخطر أصحاب معاوية ففعل وكان مما قاله: كان مما قضى الله أن ضم بيننا وبين أهل ديننا صفين، وإنا لنعلم أن فيهم قوماً كانت لهم مع رسول الله ﷺ سابقة ذات شأن. وخطر عظيم، ولكنني ضربت الأمر ظهراً وبطناً فلم يسعني أن يهدر دم عثمان...

وأقبل ذو الكلاع في حمير ومن لف لفها ومعه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من قراء أهل الشام، قد بايعوا على الموت وهي ميمنة أهل الشام وعليها ذو الكلاع، فحملوا على ربيعة وهي ميسرة أهل العراق وعليها عبد الله بن العباس حملة شديدة، فتضعضعت رايات ربيعة، وانصرف أهل الشام فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى كروا وعبيد الله بن عمر يقول:

يأهل الشام هذا الحي من أهل العراق قتلة ابن عفان وأنصار علي، وقد أدركتم ثأركم في عثمان وهلك علي وأهل العراق، فشدوا على الناس شدة شديدة، فثبتت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلا قليلاً من الضعفاء وثبت أهل الرايات وأهل البصائر منهم والحفاظ وقاتلوا قتالاً شديداً. حتى إذا كان يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٣٧ خطب الناس معاوية وحرضهم وكان مما قاله: يأهل الشام تلقون غداً أهل العراق فكونوا على إحدى ثلاث أحوال، إما أن تكونوا قوماً طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا في بيضتكم، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكمﷺ، وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نسائكم وأبنائكم.

عمار بن ياسر وعمرو بن العاص

وفكر ذو الكلاع في أن يجمع بين عمرو وعمار بن ياسر عندما سمع أن رسول اللهﷺ قال: «يلتقي أهل الشام وأهل العراق وفي إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر».

واجتمع فعلاً ذو الكلاع ومعه أبو نوح الكلاعي مع عمرو بن العاص عند معاوية، وقال ذو الكلاع لعمرو: هل لك في رجل ناصح يخبرك عن عمار بن ياسر لا يكذبك، قال من هو؟

قال: ابن عمي هذا وهو من أهل الكوفة.

فقال له: إني لأرى عليك سيماء أبي تراب.

فقال أبو نوح: عليّ سيماء محمدﷺ وأصحابه، وعليك سيماء أبي جهل وفرعون.

وقال عمرو: أفيكم عمار بن ياسر؟

قال نوح: ما أنا بمخبرك عنه حتى تخبرني لم تسألني عنه، فإن معنا من أصحاب رسول الله ﷺ عدة غيره وكلهم جادّ على قتالكم.

عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول إن عماراً تقتله الفئة الباغية، وأنه ليس ينبغي لعمار أن يفارق الحق، ولن تأكل النار منه شيئاً».

قال أبو نوح: لا إله إلا الله والله أكبر. والله إنه لفينا جاد على قتالكم».

عمرو: والله إنه لجاد على قتالنا؟

أبو نوح: نعم والله الذي لا إله إلا هو. لقد حدثني يوم الجمل أنا سنظهر عليهم، وحدثني أمس أن لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق وأنتم على باطل، وكذلك قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

عمرو: هل تستطيع أن تجمع بيني وبينه؟

أبو نوح: نعم.

وجمع بينهما.

وقال عمرو موجها الحديث إلى عمار بن ياسر إني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم، أذكرك الله إلا حقنت دماءهم فعلام تقاتلنا؟!

عمار: أمرني رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين وقد فعلت، وأمرني أن أقاتل القاسطين فأنتم هم، وأما المارقون فما أدري أأدركهم أم لا أيها الأبتر. ألست تعلم أن رسول الله ﷺ قال لعلي: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وأنا مولى الله ورسوله وعلي بعده.

عمرو: لم تشتمني يا أبا اليقظان ولست أشتمك؟

عمار: وبم تشتمني؟ أتستطيع أن تقول إني عصيت الله ورسوله يوماً قط؟!

عمرو: إن فيك أسبات سوى ذلك.

عمار: إن الكريم من أكرمه الله، كنت وضيعاً فرفعني الله، ومملوكاً فأعتقني الله، وضعيفاً فقواني الله، وفقيراً فأغناني الله.

عمرو: ما ترى في قتل عثمان؟

عمار: فتح لكم باب كل سوء.

واشتد الحوار بينهما، فقام أهل الشام وركبوا خيولهم ورجعوا، فبلغوا معاوية ما كان بينهم، فقال هلكت العرب إذا أخذتهم خفة العبد الأسود (يعني عمار بن ياسر)، ومشى عبد الله بن سويد إلى ذي الكلاع فقال له: لم جمعت بين الرجلين؟ قال لحديث سمعته من عمرو، وذكر أنه سمعه من رسول الله ﷺ، وهو يقول لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية».

اشتداد القتال والمبارزة

اشتد القتال بين الفريقين، وكانت الغلبة لأهل العراق حتى بدأ اليأس يدب في نفس معاوية، فقال لعمرو بن العاص أما ترى يا أبا عبد الله إلى ما قد وقعنا فيه؟ كيف ترى أهل العراق غداً صانعين؟ إنا لفي خطر عظيم، وخرج معاوية فارّاً لائذاً إلى بعض مضارب العسكر فدخل فيه، وبعث معاوية إلى خالد بن المعمر إنك قد ظفرت ولك إمرة خراسان إن لم تتم، فطمع خالد في ذلك ولم يتم فأمّره معاوية حين بايعه الناس على خراسان فمات قبل أن يصل إليها.

وبرز رجل من حمير اسمه كريب بن الصباح ليس في أهل الشام يومئذٍ رجل أشهر شدة بالبأس منه، ثم نادى: من يبارز؟ فبرز إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي فقتل المرتفع، ثم نادى: من يبارز؟ فبرز إليه الحارث بن الجلاح فقتله، ثم نادى: من يبارز؟ فبرز إليه عايذ بن مسروق الهمداني فقتل عايذاً، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض، ونادى: هل بقي من يبارز، فبدر إليه علي﵇، ثم ناداه: ويحك يا كريب إني أحذرك وأدعوك إلى سنة الله ورسوله، ويحك لا يدخلنك ابن آكلة الأكباد، وكان جوابه: «ما أكثر ما سمعت هذا الكلام منك! فلا حاجة لنا فيه، أقدم إذا شئت، من يشتري سيفي وهذا أثره»، فقال علي﵇: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ثم مشى إليه فلم يمهله أن ضربه ضربة خر منها قتيلاً، ثم نادى: من يبارز، فبرز إليه الحارث بن وداعة والمطاع بن المطلب فقتلهما، وبعد ذلك نادى الإمام: «يا معشر المسلمين (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرامات

قصاص. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتّقين)». ثم قال موجهاً الكلام إلى معاوية: «ويحك يا معاوية، هلم فبارزني، ولا يقتلن الناس فيما بيننا. فقال عمرو: «اغتنمه منتهزاً فقد قتل ثلاثة من أبطال العرب، وإني أطمع أن يظفرك الله به». فقال له معاوية: ويحك يا عمرو! والله إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي، اذهب. إليك عني، فليس مثلي يخدع.

وطلب عمرو بن العاص من قومه أن يجدوا في القتال.

وقام عبد الله بن العباس خطيباً، وقال فيما قال: إن اضطراب هذه الأمة سببه أن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعواناً على عليّ بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وصهره، وأول ذكر صلى معه، وقد شهد مع رسول الله ﷺ كل مشاهده، على حين كان معاوية وأبو سفيان مشركين يعبدان الأصنام، لقد قاتل علي مع رسول الله ﷺ، والإمام يقول: «صدق الله ورسوله»، ومعاوية وأبو سفيان يقولان كذب الله ورسوله، فما معاوية في هذه بأبر ولا أنقى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلكم، والله إنكم لعلى الحق، وإن القوم لعلى الباطل فلا يكونوا أولى بالجد في باطلهم منكم في حقكم أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر وقال: «أمضوا يا عباد الله إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم عثمان، والله ما أظنهم يطلبون دمه، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها، وعلموا لو أن الحق لزمهم لحال بينهم وبين ما يرغبون فيه منها، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون، ولولا هي ما بايعهم من الناس رجلان.

ومضى عمار - ومضى معه أصحابه، فلما دنا من عمرو بن العاص قال: يا عمرو، بعت دينك بمصر! تبّاً لك؛ وطالما بغيت الإسلام عوجاً.

وجعل عمار يقاتل ويقول صبراً عباد الله. وكان لواء أهل الشام مع أبي الأعور السلمي، ولم يزل عمار ينخسه حتى شب القتال واقتتل الناس قتالاً شديداً لم يسمع بمثله، وكثرت القتلى، وكان على عمار يوم هذه الوقعة درع وهو يقول: أيها الناس الرواح إلى الجنة. وقال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص: والله إن هذه الراية قد قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن ثم قال:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذيل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى عمار، وقد اشتد ظمؤه وحين شرب قال: «الجنة تحت الأسنة. اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه». ثم حمل عليه ابن جون السكسكي وقتله.

ولا بد هنا من وقفة لكي نستمع إلى ما قاله أستاذنا الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي عن عمار بن ياسر، قال: «لم يجيء أحد بعمار إلى صفين، لم يستكرهه عليّ على الحرب ولا على الخروج معه، وإنما كان عمار شيخاً نيف على التسعين، شاخ جسمه، ولكن قلبه وعقله وبصيرته ظلت بمأمن من الشيخوخة، فكان شابَّ الحديث، وكان شاب المناظرة، وكان شاب الجهاد، وهو الذي سلم على عائشة بعد وقعة الجمل، ثم قال لها: كيف رأيت ضرابنا يا أُمّه! قالت: لست لك بأم، ولست لي بابن، قال متضاحكاً: بل أنت أمي وأنا ابنك وإن كرهت. يريد أن القرآن قد نزل بأن أزواج النبي أمهات المؤمنين - فلن تستطيع عائشة أن تغير ما نزل به القرآن. وكان عمار أشد أصحاب علي تحريضاً على الحرب، وكان يقول لأصحابه حين رأى بعض انكشافهم: والله لو ضربونا

حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل.

وفي قتل عمار يقول الدكتور طه أيضاً: «ما تزال قتله من الأحاديث المأثورة بين المسلمين، فهو ابن أول شهيدين في الإسلام. فتن أبو جهل أباه ياسراً وأمه سمية حتى قتلهما، كما هو معروف، وهو الذي قال له النبي: ويحك يابن سُمَيَّة! تقتلك الفئة الباغية، ولقد أشفق الزبير من حرب عليّ حين عرف أن عماراً معه. وكان خزيمة بن ثابت الأنصاري يتبع علياً في صفين، ولكنه لا يقاتل وأنما يتحرى أمر عمار، فلما عرف أنه قد قتل قال: الآن استبانت الضلالة، ثم قاتل حتى قتل.

رأى أن أهل الشام قد قتلوا عماراً، فعرف أنهم الفئة الباغية التي ذكرها النبي في حديثه ذاك.

ووقع قتل عمار من معاوية وأصحابه وقعاً أليماً مروعاً لم يشكوا في أن النبي قال له: تقتلك الفئة الباغية، وإنما حاولوا أن يخفوا علمهم بهذا الحديث، فلما لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً تأولوه، وقال معاوية: أنحن قتلناه؟ إنما قتله الذين جاءوا به!

وبعد ذلك كانت وقعة مشهورة بوقعة الخميس، وهي التي قتل فيها أعلام العرب. ويروى أن الإمام علياً عليه السلام نادى: يا معاوية ـ يكررها ـ فقال معاوية: اسألوه ما شأنه؟ قال: أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة، فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، وقال لمعاوية متجاهلاً عمراً: «ويحك علام يقتتل الناس بيني وبينك؟ أبرز إليّ فأينا قتل صاحبه فالأمر له. فالتفت معاوية إلى عمرو، فقال: ما ترى يا أبا عبد الله؟ أبارزه، فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل، وأعلم أنك إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي.

فقال معاوية: يا عمرو ليس مثلي يخدع عن نفسه. والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه.

ثم انصرف معاوية راجعاً إلى آخر الصفوف وعمرو معه، وقال معاوية

ويحك يا عمرو! ما أحمقك وحقدها معاوية على عمرو، وقال: ما أظنك يا عمرو إلا مازحاً: فلما جلس معاوية مجلسه أقبل عمرو حتى جلس، فقال معاوية:

يا عمرو إنك قد قشرت لي العصا ... برضاك في وسط العجاج برازي
ولقد أعدت فقلت مزحة مازح ... والمزح يحمله مقال الهازي
فإذا الذي منتك نفسك خالياً ... قتلي جزاك بما نويت الجازي

فرد عليه عمرو قائلاً:

معاوي إن نكلت عن البراز ... لك الويلات فانظر في المخازي
وما ذنبي بأن نادى علي ... وكبش القوم يدعى للبراز
فلو بارزته بارزت ليثاً ... حديد الناب ينفذ كل بازي
وتزعم أنني أضمرت غشّاً ... جزاني بالذي أضمرت جازي
أضيع في العجاجة يابن هند ... وعند الباه كالتيس الحجازي

على أنه كان من رأى أبرهة بن الصباح بن أبرهة الحميري أن يبارز معاوية عليّاً، ولكن معاوية رفض وكره مبارزة علي فقال أبرهة في ذلك:

لقد قال ابن أبرهة مقالاً ... وخالفه معاوية بن حرب
وكم بين المنادى من بعيد ... ومن يغشى الحروب بكل عضب
أيهجرني معاوية بن حرب ... وما هجرانه سخطاً لربي
وعمرو إن يفارقني بديني ... لفي سعة إلى شرق وغرب

وبرز يومئذ عروة بن داود الدمشقي فقال: إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلم إلي، فتقدم إليه علي، فقال له أصحابه: ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر، فقال: والله ما معاوية اليوم فأغيظ لي منه، ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين سقطت إحداهما يمنة والأخرى يسرة وارتج العسكران لهول الضربة، ثم قال يا عروة اذهب فأخبر قومك. أما والذي بعث محمداً بالحق لقد عاينت النار وأصبحت وكذلك طلب الوليد بن عقبة من معاوية مبارزته.

معاوية يفاوض ابن عباس:

بدأ اليأس يدب في نفس معاوية فقال لعمرو بن العاص إن رأس الناس بعد علي هو عبد الله ابن عباس، فلو ألقيت إليه كتاباً فإنه إن قال شيئاً لم يخرج علي عنه، وقد أكلتنا الحرب ولا أرانا نصل إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام. فقال له عمرو: إن ابن عباس لا يخدع، ولو طمعت فيه لطمعت في علي، وأصر معاوية على الكتابة إلى ابن عباس، فكتب إليه عمرو يقول: «أما فإن الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء، وأنت رأس هذا الجمع بعد علي، فانظر فيما بقي ودع ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حيّاً ولا صبراً، واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق وأن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا، ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكنا نقول ليتها لم تكن، وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع أو مؤمن مشاور وهو أنت. وختم كتابه بقوله:

طال البلاء وما يرجى له آسي	بعد الإله سوى رفق ابن عباس
يابن الذي زمزم سقيا الحجيج له	أعظم بذلك من فخر على الناس
انظر فدى لك نفسي قبل قاصمة	للظهر ليس لها راق ولا آس
إني أرى الخير في سلم الشآم لكم	والله يعلم ما بالسلم من بأس
فيها التقى وأمور ليس يجهلها	إلا الجهول وما النوكى كأكياس

فأتى ابن عباس بالكتاب إلى أمير المؤمنين فضحك وقال: قاتل الله ابن العاص! ما أغراه يابن عباس، أجبه وليرد عليه شعره الأفضل ابن العباس فإنه شاعر، فكتب ابن عباس إلى عمرو: «أما بعد، فإني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياء منك. لقد مال بك معاوية إلى الهوى وبعته دينك بالثمن اليسير، ثم خطبت بالناس في عشوة طمعاً في الملك فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع، فإن كنت ترضى الله بذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك، وهذه

الحرب فيها معاوية كعلي، ابتدأها علي بالحق وانتهى فيها إلى الغدر. وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف، وليس أهل العراق فيها كأهل الشام. بايع أهل العراق عليّاً وهو خير منهم، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه، وليس أنا وأنت فيها بسواء، أردت الله وأردت أنت فإن ترد شرّاً لا نسبقك به وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه، ثم قال لأخيه الفضل يابن أم أجب عمراً فقال الفضل:

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس ... فاذهب فليس لداء الجهل من آس
إلا تواتر طعن في نحوركم ... يشجى النفوس ويشفي نخوة الرأس
هذا الدواء الذي يشفي جماعتكم ... حتى يطيعوا عليّاً وابن عباس
أما علي فإن الله فضله ... بفضل ذي شرف عال على الناس
إن تعقلوا الحرب تعقلها مخيبة ... أو تبعثوها فإنا غير أنكاس
قد كان منا ومنكم في عجاجتها ... مالاً يرد وكل عرضة البأس
قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة ... هذا بهذا وما بالحق من بأس
لا بارك الله في مصر فقد جلبت ... شرّاً وحظك منها حسوة الكأس

وعلق معاوية على كتاب ابن عباس وعلى الشعر بقوله: إن قلب ابن عباس وقلب علي قلب واحد وكلاهما ولدا عبد المطلب.

ليلة الهرير وانتهاء المعركة:

وتبادل الإمام ومعاوية رسائل كثيرة لم تأت بنتيجة إلى أن كان يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الأول سنة ٣٧، وفي ليلة شديدة الحر ترامى الفريقان بالنبل حتى فنيت نبالهم، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تقصفت واندقت، ثم مشى بعضهم إلى بعض بالسيوف ـ وقد كسروا جفونها ـ وعمد الحديد، فلم يسمع السامع إلا تغمغم القوم وتكادم الأفواه وصليل السيوف ووقع الحديد بعضه على بعض، وكان أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً، وكسفت الشمس، ومرت مواقيت أربع صلوات لم يسجد لله فيهن سجدة، ولم يصلوا لله صلاة إلا

التكبير، واستمر القتال من نصف الليل إلى ارتفاع الضحى وافترقوا على سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة، وهي ليلة الهرير، والأشتر في ميمنة الناس، وابن عباس في الميسرة، وعلي في القلب، والأشتر في هذه الحال يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها، فلم يزل يفعل ذلك حتى أصبح المعركة خلف ظهره، ونادت المشيخة في تلك الغمرات: يا معشر العرب الله الله في الحرمات من النساء، وجعل الأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام: ازحفوا قيد رمحي هذا، فإذا فعلوا قال: ازحفوا قاب هذا القوس. فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس الإقدام، وكان الأشتر يقول لهم: ألا من بشرى نفسه لله ويقاتل مع اشتر. وقاتل الأشتر أهل الشام قتالاً عنيفاً، وانتقل الإمام عليه السلام إلى القبلة واتجه إلى الله سبحانه وتعالى ورفع يديه ثم نادى الله: يا رحمن يا واحد يا صمد يا الله، يا إله محمد، اللهم إليك نقلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وامتدت الأعناق، وشخصت الأبصار، وطلبت الحوائج، إنا نشكو إليك غيبة نبينا صلى الله عليه وآله، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

ثم توجه إلى جيشه قائلاً: أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم، ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم على الله عز وجل.

نتيجة وقعة الهرير
وحيلة رفع المَصاحف

كانت نتيجة وقعة الهرير أن حاقت الهزيمة بجيش معاوية، فاستدعى عمرو بن العاص وقال له: يا عمرو، إنما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفيصل، فما ترى؟ قال: «أرى أن رجالك لا يقومون لرجاله، ولست مثله، هو يقاتلك على أمر، وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم، ولكن ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا، ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك في القوم، فإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لحاجتك إليه».

فقال معاوية: صدقت.

وأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح، وأخذوا ينادون يأهل العراق، كتاب الله بيننا وبينكم.

اختلاف أصحاب الإمام:

في هذا الموقف قال الإمام علي عليه السلام: «اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكيم الحق المبين».

وكان أصحاب الإمام أربع طوائف:

١ ـ أهل البصرة المخلصون له في الظاهر والباطن، العارفون بحقه، العالمون بأنها خدعة، وهم القليل أمثال الأشتر وحجر بن عدي والحصين ابن المنذر.

٢ ـ المخلصون له بقلوبهم، لكنهم خدعوا، أو أحبوا البقاء، أمثال حريث بن جابر بن شداد.

٣ ـ الذين ليس للإمام في قلوبهم مكانته التي يجب أن تكون له، مضافاً إلى أنهم قد خدعوا، وهم القراء أهل الجباه السود، وهؤلاء كانوا وما زالوا في كل عصر أضر من الفساق المتجاهرين بالفسق.

٤ ـ المنافقون الذين يظهرون النصيحة ويبطنون الغش أمثال الأشعث بن قيس الذي يقول فيه المرحوم الأستاذ عباس العقاد: «كان الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزباً على حزب لو خلصت نيته، وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه، طمع هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي ﷺ، فدعا قومه أن يتوجوه، وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر في حصنه أياماً ويئس من الغلبة، فاستسلم على أن يصان دمه ودم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن، فقتل كل من فيه، ونجا بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقبل توبته، وزوجه أخته أم فروة، فلما نشبت الفتنة بين علي ومعاوية كان هو من حزب علي يتطلع للفرصة السانحة».

ويؤيد الدكتور طه حسين رأي العقاد في الأشعث فيقول واصفاً بعض أنصار الإمام: «وأكبر الظن أن بعض الرؤساء من أصحاب علي لم يكونوا يخلصون له نفوسهم ولا قلوبهم، ولم يكونوا ينصحون له، لأنهم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين، وكانوا يندمون في دخائل أنفسهم على تلك الأيام الهينه اللينة التي قضوها أيام عثمان ينعمون بالصِّلات والجوائز والإقطاع، ولست أذكر من هؤلاء إلا الأشعث بن قيس الكندي ذلك الذي أسلم أيام النبي، ثم ارتد بعد وفاته، وألب قومه حتى ورطهم في الحرب،

ثم أسلمهم وأسرع إلى المدينة تائباً، فلم يعصم دمه من أبي بكر فحسب، ولكنه أصهر إليه وتزوج أخته، ثم خمل في أيام عمر، وظهر في أيام عثمان، فتولى له بعض أعماله في فارس، فلما هم علي أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته، ويقال إنه طالبه بشيء من مال المسلمين».

واختلف فعلاً أصحاب الإمام عليه السلام وقد بينت آنفاً نموذجاً فريداً في نوعه، وهو الأشعث بن قيس، وسنرى حالاً أنه كان النصير الأول للتحكيم بل سنرى أكثر من ذلك.

وأما في ربيعة ـ وهي الجهة الرئيسية ـ فقد قام كردوس بن هانىء البكري فقال: «أيها الناس إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه، ولا تبرأنا من علي مذ توليناه، وإن قتلانا لشهداء، وإن أحياءنا الأبرار، وإن عليّاً لعلى بينة من ربه، وما أحدث إلا الإنصاف، وكل محق منصف، فمن سلم له نجا، ومن خالفه هلك».

وأما شفيق بن ثور البكري فقد قال كلاماً طويلاً ختمه بقوله: «وقد أكلتنا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلا في الوداعة».

وأما خالد بن المعمر ـ فقد قال: «يا أمير المؤمنين، إنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك، فإن لم تره فرأيك أفضل».

وقام الحصين بن المنذر الرقاشي فقال: «أيها الناس، إن لنا داعياً فقد حمدنا ورده وصدره، وهو المصدق على ما قال، والمأمون على ما فعل، فإن قال لا قلنا لا، وإن قال نعم قلنا نعم».

ماذا قال الإمام:

روى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال عندما رفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى حكم القرآن: «عبد الله، أنا أحق من أجاب إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب ابن سلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم،

صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال، إنها كلمة حق يراد بها باطل، إنهم والله رفعوها حقاً، إنهم يعرفونها ولا يعملون بها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ومكيدة، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا».

والذي لا شك فيه أن الإمام عليه السلام لم ينخدع برفع المصاحف، وكرر قوله: «إن معاوية ليس بصاحب دين ولا قرآن، وإن معاوية وأصحابه يكيدون ويخادعون ويتقون حر السيف».

وكان الإمام يرى ألا حكم إلا لله، وأن السبيل إلى حكم الله هو القتال حتى يذعن أهل الشام، ولكن الأغلبية من أصحابه لم تذهب مذهبه.

وكتب معاوية رسالة إلى الإمام قال فيها: «فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وصلاح للأمة وحقن للدماء وألفة للدين وذهاب للضغائن والفتن، أن يحكم بيننا وبينكم حكمان أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك فيحكمان بما في كتاب الله بيننا».

أخبار المحكمين:

جاء الأشعث بن قيس إلى الإمام عليه السلام، وألح على الإمام في أن يختار على أبا موسى الأشعري وأكره الإمام إكراهاً على قبوله، واختار معاوية عمرو بن العاص.

ومما قاله الإمام في اختيار الأشعري: «إني لا أرضى بأبي موسى، ولا أرى أن أوليه»، فقال الأشعث ويزيد بن حصين: نحن لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه، فقال لهم الإمام: إنه ليس لي برضى، وقد فارقني وخذل الناس عني، ثم هرب حتى أمنته وبعد أشهر».

ولا يستبعد الدكتور طه حسين أن يكون الأشعث بن قيس ـ وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم ـ قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام

وداهيتهم، ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً ودبروا أن يقتتل القوم، فإن ظهر أهل الشام فذاك، وإن خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب علي، وجعلوا بأسهم بينهم شديداً، وقد تم لهم ما دبّروا إن كانوا قد دبروا شيئاً واستكره الأشعث ومن أطاعه عليّاً على كف القتال.

الإمام يرشح ابن عباس:

وحاول الإمام ترشيح ابن عباس للتحكيم فقال مخاطباً الأشعث بن قيس ومن معه: «هذا ابن عباس أوليه التحكيم»، فقالوا والله ما نبالي أنت كنت أو ابن عباس، لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، فقال الإمام: فإني أجعل الأشتر، قال الأشعث: «وهل سعر الأرض علينا غير الأشتر؟ وهل نحن إلا في حكم الأشتر؟». قال: وما حكمه؟ قالوا: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد.

وعن أبي جعفر محمد بن علي الباقرعليه السلام قال: لما أراد الناس عليّاً على أن يضع حكمين قال لهم: إن معاوية لم يكن ليضع أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله، فعليكم بعبد الله بن عباس، فأرموه به فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله، ولا يحل عقدة إلا عقدها، ولا يبرم أمراً إلا نقضه، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه. فقال الأشعث بإصرار: لا والله لا يحكم فينا مضربان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعله رجلاً من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر.

فقال الإمامعليه السلام: «إني أخاف أن يخدع يمينكم فإن عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هواه».

وفي إصرار الأشعث على اختيار أبي موسى من الدلالة على عدم إخلاصه للإمام ما فيه، وليس من المستبعد إطلاقاً أن يكون الأشعث قد اتصل بعمرو بن العاص كما سبق أن ذكرنا.

وأخيراً ـ لما رأى الإمام إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم - قالعليه السلام: قد أبيتم إلا أبا موسى؟

قالوا: نعم.

قال: فاصنعوا ما أردتم.

فبعثوا إلى أبي موسى، وكان معتزلاً بأرض من أرض الشام يقال لها عرض، فأتاه مولى له، فقال: إن الناس قد اصطلحوا، قال: الحمد لله.

قال: وقد جعلوك حكماً.

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فجاء أبو موسى حتى دخل عسكر عليعليه السلام.

كتاب الصّلح

واجتمع المفوضون من الفريقين، فكتبوا صحيفة هذا نصها كما رواه البلاذري:

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قاضي عليٌّ على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين: أنّا ننزل عند حكم الله، وبيننا كتاب الله فيما اختلفا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا، ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله فإنهما يتبعانه، وما لم يجداه مما اختلفا فيه في كتاب الله نصّاً أمضيا فيه السنة العادلة الحسنة الجامعة غير المفرقة، والحكمان عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ـ وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكمان بما وجدا في كتاب الله نصّاً، فما لم يجداه في كتاب الله يُسمى عملاً فيه بالسنة الجامعة غير المفرّقة، وأخذا من علي ومعاوية ومن الجندين كليهما، وممن تأمرا عليه من الناس عهد الله ليقبلن ما قضيا به عليهما، وأخذا لأنفسهما الذي يرضيان به من العهد ومن الثقة بالناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما وأموالهما، وأن الأمة لها أنصار على ما يقضيان به على عليّ ومعاوية وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما، وأن على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يصلحا بين الأمة ولا يرداهم إلى فرقة ولا حرب، وأن أجل القضية إلى

شهر رمضان، فإن أحبا أن يعجلاها دون ذلك عجلا، وإن أحبّا أن يؤخراها عن غير ميل منهما أخراها، وإن مات أحد الحكمين قبل القضاء فإن أمير كل شيعة وشيعته يختارون مكانه رجلاً لا يألون عن أهل المعدلة والنصيحة والإسقاط، وأن يكون مكان قضيتهما التي يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز، لا يحضرهما فيه إلا من أرادا، فإن رضيا مكاناً غيره فحيث أحبا أن يقضيا، وأن يأخذ الحكمان من كل واحد من شاءا من الشهود ثم يكبا شهادتهم في هذه الصحيفة أنهم أنصار على من ترك ما فيها: اللهم نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً أو ظلماً أو حاول له نقضاً.

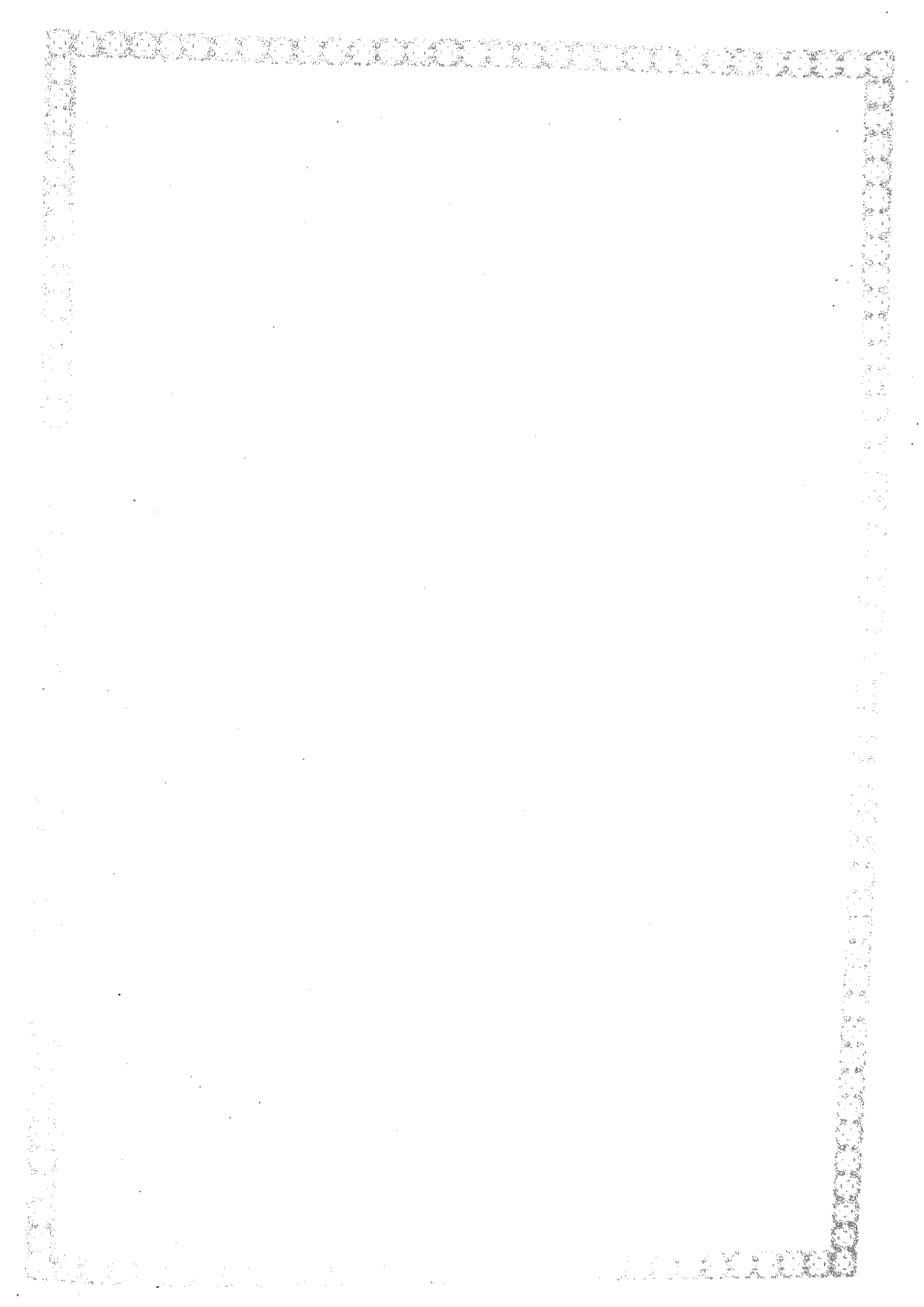
وشهد بما في الكتاب من أصحاب علي: عبد الله بن عباس والأشعث بن قيس والأشتر مالك بن الحارث وسعيد بن قيس الهمداني والحصين والطفيل ابنا الحارث بن المطلب وأبو أسيد ربيعة بن مالك الأنصاري وعوف بن الحارث بن المطلب القرشي وعقبة بن عامر الجهني وعمرو بن الحمق الخزاعي والإمام الحسن والإمام الحسين وعبد الله بن جعفر الهاشمي والنعمان بن عجلان الأنصاري وحجر بن عدي الكندي وربيعة بن شرحبيل وحجر بن يزيد والحارث بن مالك الهمداني وعقبة بن زياد.

ومن أهل الشام من أصحاب معاوية: حبيب بن مسلمة الفهري وأبو الأعور بن سفيان السلمي وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي وحبيب بن مسلمة وبُسْر بن أرطأة القرشي ومعاوية بن خديج الكندي وحمزة بن مالك الهمداني ويزيد بن الحر الثقفي وعبد الله بن عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة القرشي وعتبة بن أبي سفيان ومحمد بن عمرو بن العاص ومحمد بن أبي سفيان وحمزة بن مالك، وغيرهم.

ويرى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أن ليس في كتاب الصلح الموضوع الأصلي الذي اختلفا من أجله فيقول: إن الخطير هو أن

الفريقين قد حددا في صحيفتهما كل شيء إلا هذا الموضوع الذي اختلفا فيه، والذي يجب أن يقضي فيه الحكمان، ففيم كانا يختلفان بالفعل؟ كان معاوية يطلب بدم عثمان، ويريد أن يسلم إليه عليٌّ قتلة الخليفة المظلوم. وكان علي لا يعرف لعثمان قاتلاً بعينه، ولا يقدر على أن يُسلم إلى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قتل. أفكان الفريقان يريدان من الحكمين أن يفصلا في هذه القضية؟ وإذاً فما بالهما لم ينصا عليها. بل لم يذكرا عثمان وقتلته في الصحيفة أصلاً، وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير، وبعد أن استحصد أمره، واشتد بأسه، أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين، وكان علي يرى أنه قد بويع الخلفاء من قبله، بايعه أهل الحرمين وهم أصحاب الحل والعقد، وبايعه أهل الأمصار إلى الشام، فقد اجتمعت له إذاً بيعة الكثرة الكثيرة من المسلمين عامة، ومن المهاجرين والأنصار خاصة، ولم يبق لمعاوية إلا أن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويدخل معه أصحابه من أهل الشام، فإن لم يفعلوا فهم الفئة الباغية التي أُمِر المسلمون بقتالها إن أبت الصلح، وكرهت العافية، حتى تفيء إلى أمر الله. وإذاً فما بال الفريقين لم ينصا على ذلك في صحيفتهما، بل لم يذكرا الخلافة ولا الشورى في الصحيفة أصلاً؟!

ويرى كثيرون ـ وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين ـ أن كتاب الصلح قد أرضى الفريقين المختصمين، وأن الذين كتبوا هذا الكتاب قد كرهوا الحرب وسئموا القتال وتعجلوا السلم، كذلك كانت نتيجة هذه الصحيفة اختلاف في صفوف أهل العراق وائتلاف في صفوف أهل الشام.



اجتماع الحكمين بدومة الجندل

واجتمع الحكمان بدومة الجندل التي وقع عليها الاختيار لتكون وسطاً بين العراق والشام، وأخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام، ويقول إنك قد صحبت رسول الله ﷺ قبلي، وأنت أكبر مني فتكلم، وجعل يقدمه في كل شيء، وهدفه في ذلك أن يبدأ بخلع الإمام، وقال عمرو بن العاص: أخبرني يا أبا موسى ما رأيك؟ قال: رأيي أن أخلع هذين الرجلين علياً ومعاوية، ثم نجعل هذا الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاءوا. فقال له عمرو: الرأي ما رأيت. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون. وهنا المسألة الهامة: من يتكلم أولاً؟ وقد ذكرت أن عمراً كان دائماً يقدم أبا موسى، وفي روايات كثيرة أن ابن عباس أشفق من خداع عمرو، فأشار على أبي موسى أن يتأخر حتى إذا تكلم عمرو استطاع هو أن يتكلم بعده، وقال له: ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك، وإن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك فيتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تتكلم أنت بعده، فإن عمراً رجل غدار، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت به في الناس خالفك».

وكان رد أبي موسى على ابن عباس: «إنا قد اتفقنا». ولم يستمع إلى رأيه، إنما قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة. ثم قال مخاطباً الجماهير: «أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية، ونستقبل هذا الأمر، فيكون شورى بين

المسلمين، فيولون أمورهم من أحبوا، وإني قد خلعت عليّاً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتم لها أهلاً».

ثم تنحى فقعد، وقام عمرو بن العاص مقامه فقال: «إن هذا قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه».

وهنا قال أبو موسى: «ما لك! لا وفَقك الله! قد غدرت وفجرت، وإنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث».

فابتسم عمرو وهو يقول: «إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً...».

وهنا أقبل شريح بن هانىء رئيس الوفد من أصحاب علي فقنع عمراً بسوطه، وقام محمد بن عمرو فقنع شريحاً بسوطه.

وصدق المرحوم الأستاذ العقاد إذ يقول: «كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه».

وانتهت المأساة بهذه المهزلة، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة!

والتمس أصحاب عليّ أبا موسى، فركب ناقته فلحق بمكة، فكان ابن عباس يقول: قبح الله أبا موسى! حذرته.. أمرته بالرأي فما عقل. وكان أبو موسى يقول: قد حذرني ابن عباس غدرة الفاسق، ولكن اطمأنت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة.

بهذا تنتهي مهزلة التحكيم التي دبرها عمرو بن العاص. وشرى دينه بإمارة مصر التي عزله عنها معاوية في الوقت المناسب، وولاها عبد العزيز بن مروان بن الحكم. ولنستمع إلى ما قال عمرو في كتاب أرسله إلى معاوية:

معاوية الحال لا تجهل   وعن طرق الحق لا تعدل

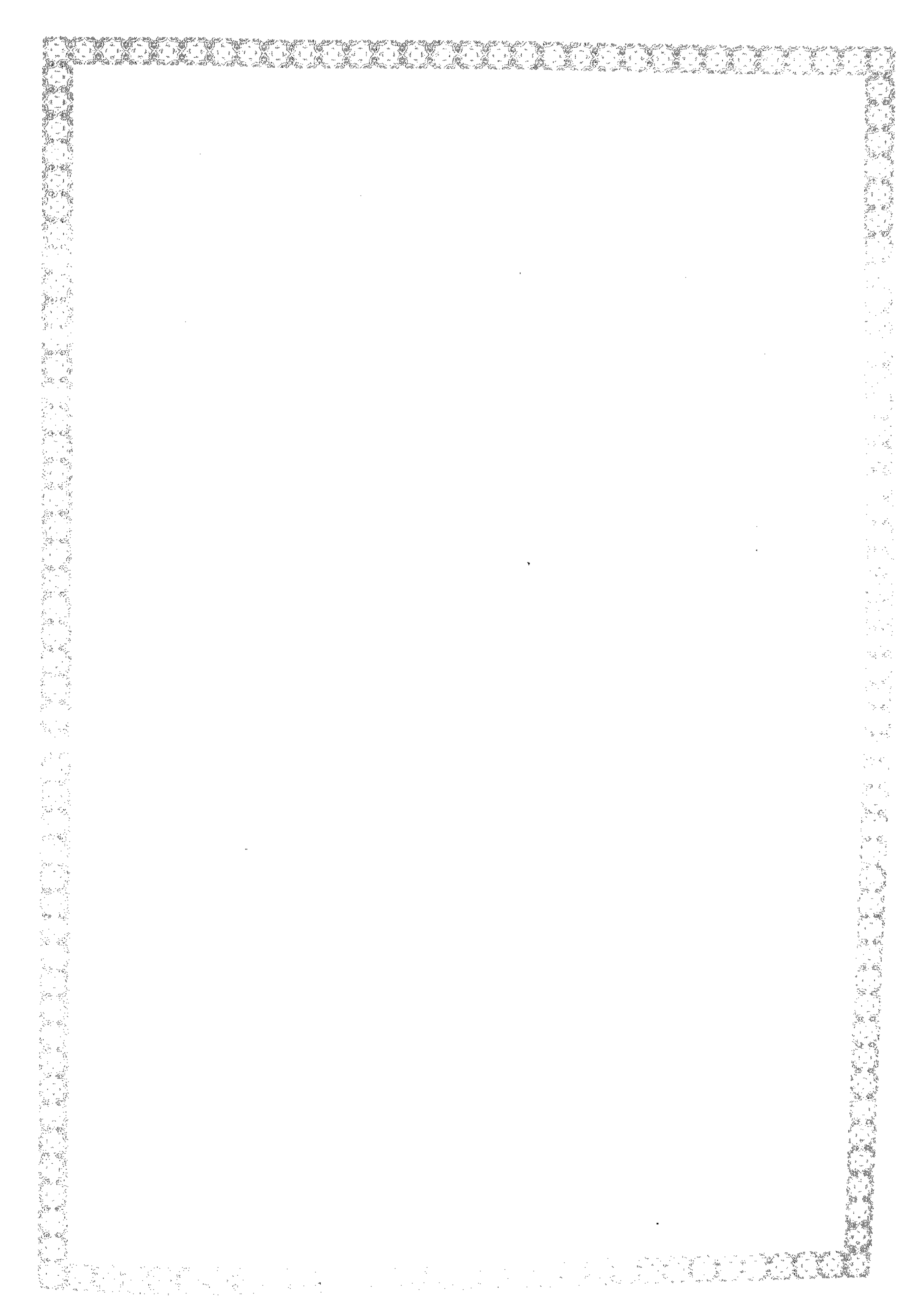
خلعت الخلافة من حيدر كخلع النعال من الأرجل
وألبستها لك يابن اللئام كلبس الخواتم في الأنمل
ولولاي كنت كمثل النساء تعاف الخروج من المنزل
ولم تك والله من أهلها ورب العباد ولم تكمل
فأين الحصى من نجوم السماء وأين الحسام من المنجل
وأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من علي
وأعطيت مصراً لعبد العزيز ولم تعطني حبة الخردل

الإمام بعد التحكيم:

لم يدهش الإمام علي بن أبي طالب لما سمعه عن مهزلة التحكيم، كأنه كان يتوقعه، وإنما ذكر تحذيره لأصحابه في صفين حين رفعوا المصاحف فقال لهم: «إن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن». وقد خطب الإمام بعد أن أتاه أمر الحكمين فقال: «الحمد لله، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق المجرب تورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وهذه الحكومة أمري، ونخلت لكم رأيي، لو يطاع لقصير رأي، ولكنكم أبيتم إلا ما أردتم، فكنت وإياكم كما قال أخو هوزان.

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

ألا إن الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حُكم الكتاب وراء ظهورهما، وارتأيا الرأي من قبل أنفسهما ـ فأماتا ماأحيا القرآن، وأحييا ما أمات القرآن ثم اختانا في حكمهما، فكلاهما لا يرشد ولا يسدد، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، فاستعدوا للجهاد، وتأهبوا للمسير، وأصبحوا في معسكركم يوم الإثنين إن شاء الله».



المأساة الثالثة

الخوارج وواقعة النهروان:

من هم الخوارج؟ هم الذين أنكروا التحكيم الذي وقع يوم صفين، وقالوا لا حكم إلا لله، ويقال لهم الحرورية، نسبة إلى المكان الذي اجتمعوا فيه، ويقال له حروراء، ويسمون أنفسهم الشراة، لأنهم يزعمون أنهم ـ شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم[1].

وقد اجتمع الخوارج، وأبرموا فيما بينهم ميثاقاً: «إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله، وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما، وحكموا الرجال في دينهم، ونحن على الشخوص من بين أظهرهم، وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق».

وروى الطبري أنه لما وقع التحكيم ورجع علي من صفين رجعوا مباينين له، فلما انتهوا إلى النهر أقاموا به، ويؤيد ابن الأثير ذلك فيقول أيضاً إنه لما رجع علي من صفين فارقه الخوارج، وأتوا حروراء فنزلوا بها، وكانوا اثني عشر ألفاً، ونادى مناديهمّ عبد الله بن الكواء: الأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقامت الشيعة فقالوا لعلي: في أعناقنا بيعة ثانية، نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت.

---

(١) قال أحدهم ـ وهو معدان الإيادي:

سلام على من بايع الله شارياً ... وليس على الحزب المقيم سلام

فقالت الخوارج: استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا، وبايعتم عليّاً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى، فقال لهم زياد بن النضر: أما والله ما بايعنا عليّاً إلا على كتاب الله وسنة نبيه، ولكنكم لما خالفتموه وجاءته شيعته قالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت. ونحن كذلك، وهو على الحق والهدى، ومن خالفه ضال مضل.

ويقول الطبري أن الإمام عليّاً بعث إليهم ابن عباس، فرجع ولم يصنع شيئاً.

وقال المبرد وغيره: لما وجه ابن عباس إليهم ليناظرهم قال لهم ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟ قالوا له: قد كان للمؤمنين أميراً، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان، فليتب بعد إقراره بالكفر نعدله. فقال ابن عباس: ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن يقر على نفسه بالكفر. قالوا: إنه حكم ـ قال: إن الله أمر بالتحكيم في قتل صيد، قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين؟ فقالوا: إنه حكم عليه فلم يرض، فقال: إن الحكومة كالإمامة، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما، فقال بعضهم لبعض: جعلوا احتجاج قريش حجة عليهم، فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، وقال جل شأنه: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

قال المبرد ثم ناظرهم أمير المؤمنين بعد مناظرة ابن عباس. ولنقرأ ما دار بين الإمام وعبد الله بن الكواء قائد الخوارج:

الإمام علي: ما الذي نقمتم علي بعد رضاكم ولايتي، وجهادكم معي، وطاعتكم لي؟ فهلا برئتم مني يوم الجمل؟!

ابن الكواء: لم يكن هناك تحكيم.

الإمام علي: يابن الكواء، ويحك! أنا أهدى أم رسول الله ﷺ؟

ابن الكواء: بل رسول الله ﷺ.

الإمام علي: فما سمعت قول الله ﷻ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ ـ أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون؟

ابن الكواء: إن ذلك احتجاج عليهم. وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين، فنحن أحرى أن نشك فيك.

الإمام علي: وإن الله تعالى يقول: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾.

ابن الكواء: ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم.

وبعد مناقشة طويلة قال ابن الكواء: «إنك صادق في جميع قولك، غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين».

الإمام علي: ويحك يابن الكواء! إني إنما حكمت أبا موسى، وحكم معاوية عمراً.

ابن الكواء: فإن أبا موسى كان كافراً.

الإمام علي: متى كفر؟ أحين بعثته أم حين حكم؟

ابن الكواء: بل حين حكم.

الإمام علي: أفلا ترى أني إنما بعثته مسلماً فكفر في قولك بعد أن بعثته؟ أرأيت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله فدعاهم إلى غيره ـ هل كان على رسول الله ﷺ من ذلك شيء؟

ابن الكواء: لا.

الإمام علي: ويحك! فما كان علي أن ضل أبو موسى؟ أفيحل لكم بضلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس.

وقال لهم علي: ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف

قلت لكم إن هذه مكيدة، وإنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لأتوني، وسألوني؛ أفتعلمون أن أحداً كان أكره لكم للتحكيم مني؟

قالوا: صدقت.

الإمام علي: هل تعلمون أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه، فاشترطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله، فمتى خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء، وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدوني.

قالوا: اللهم نعم. حكمت في دين الله برأينا، ونحن مقرون بأنا كفرنا، ولكننا الآن تائبون فأقر بما أقررنا به وتب ننهض معك الشام.

الإمام علي: أما تعلمون أن الله قد أمر بالتحكيم في شقاق بين الرجل وامرأته، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾.

ولم تثمر المناقشة التي كان يرجوها الإمام بل تأثر.

ومن شعره الذي قاله وكان يردده لما سامره أن يقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام أنه قال: أبعد صحبة رسول الله ﷺ والنفقة في الدين أرجع كافراً، ثم أنشد:

يا شاهد الله علي فاشهد أني على دين النبي أحمد

من شك في الله فإني مهتدي

ويقول ابن أبي الحديد: كل فساد في خلافة عليّ أصله الأشعث، ولولا تصرفه مع الإمام ما كانت حرب النهروان، فقد حدث أن الإمام علياً خرج إلى الخوارج في حروراء وناشدهم فاستجابوا، فقالوا إنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم، وقد تبنا فتب إلى الله كما تبنا نعد معك، فقال الإمام أنا أستغفر الله من كل ذنب. فرجعوا معه وهم ستة آلاف، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ورآه ضلالا، فأتى الأشعث علياً فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالاً

والإقامة عليها كفراً. فقام علي يخطب الناس فقال:

من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالا فقد ضل، ومن هذا يتبين أن الإمام أراد أن يسلك مع الخوارج مسلك التعريض، فقال لهم كلمة مجملة يقولها الأنبياء والمعصومون فرضوا بها، فألجأه الأشعث إلى التصريح حيث سأله بحضور من لا يمكنه معه إلا التصريح فانتقض ما دبره.

ويقول الطبري: لما وصل الإمام علي إلى النهر بعث إليهم: ادفعوا لنا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام، فلعل الله يردكم إلى خير مما أنتم عليه، فقالوا كلنا قتلتهم، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم، وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم، واحتج عليهم، وقال لهم: ركبتم عظيماً من الأمر، تشهدون علينا بالشرك، وتسفكون دماء المسلمين. فلم ينجح ذلك فيهم، وخطبهم أبو أيوب الأنصاري فقال: إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها، فعلام تقاتلوننا؟ فقالوا: إنا لو تابعناكم اليوم حكمتم غداً، قال: فإني أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل، وقال لهم الإمام علي: أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة وصدها عن الحق الهوى، ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم مكيدة، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأني أعرف بهم منكم، عرفتهم أطفالاً ورجالاً، وهم أهل المكر والغدر، وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم، فعصيتموني، حتى إذا أقررت بأن حكمت، فلما فعلت شرطت واستوثقت، فأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة، فنبذنا أمرهما، ونحن على أمرنا الأول، فما الذي بكم؟ ومن أين أتيتم؟ قالوا: إنا حكمنا، فلما حكمنا أثمنا، وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا، فإن تبت كما تبنا فنحن منك ومعك، وإن أبيت فاعتزلنا فإنا منابذوك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين، فقال الإمام علي أصابكم حاصب

(والحاصب هي الريح الشديدة التي تثير الحصباء)، ولا بقي منكم آبر، أبعد إيماني برسول الله ﷺ، وهجرتي معه، وجهادي في سبيل الله، أشهد على نفسي بالكفر؟! لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، ثم انصرف عنهم، فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيئوا للقاء الرب ـ الرواح الرواح إلى الجنة.

وخرج الإمام عليّ فعبأ أصحابه، وعبأت الخوارج، ورفع الإمام رايته مع أبي أيوب فناداهم: من جاء هذه الراية ممن لم يقتل فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن، فانصرف خمسمائة فارس منهم، وبقي مع الإمام ألفان وثمانمائة وزحفوا إلى علي ويقول المسعودي إن الإمام وقف عليهم بنفسه فدعاهم إلى الرجوع والتوبة فأبوا، ورموا أصحابه، فقيل له قد رمونا. فقال كفوا. فكرروا القول عليه ثلاثاً وهو يأمرهم بالكف حتى أتى برجل قتيل متشحط بدمه، فقال الإمام الله أكبر! الآن حل قتالهم. احملوا على القوم. فحمل رجل من الخوارج على أصحاب علي فخرج فيهم وجعل يغشى كل ناحية ويقول:

أضربهم ولو أرى عليّاً ألبسته أبيض مشرفيّاً

فحمل عليه الإمام وقتله ثم خرج منهم آخر فحمل على الناس ففتك فيهم وجعل يكر عليهم وهو يقول:

أضربهم ولو أرى أبا حسن ألبسته بصارمي ثوب غبن

فخرج إليه عليّ وهو يقول:

يأيهذا المبتغى أبا حسن إليك فانظر أينا يلقى الغبن

وحمل عليه وشكه بالرمح وترك الرمح فيه، وانصرف علي وهو يقول: لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره.

روى أبو عبيدة معمر بن المثنى قال: التفت علي إلى أصحابه فقال لهم: شدوا عليهم، فأنا أول من يشد عليهم، وحمل بذي الفقار حملة

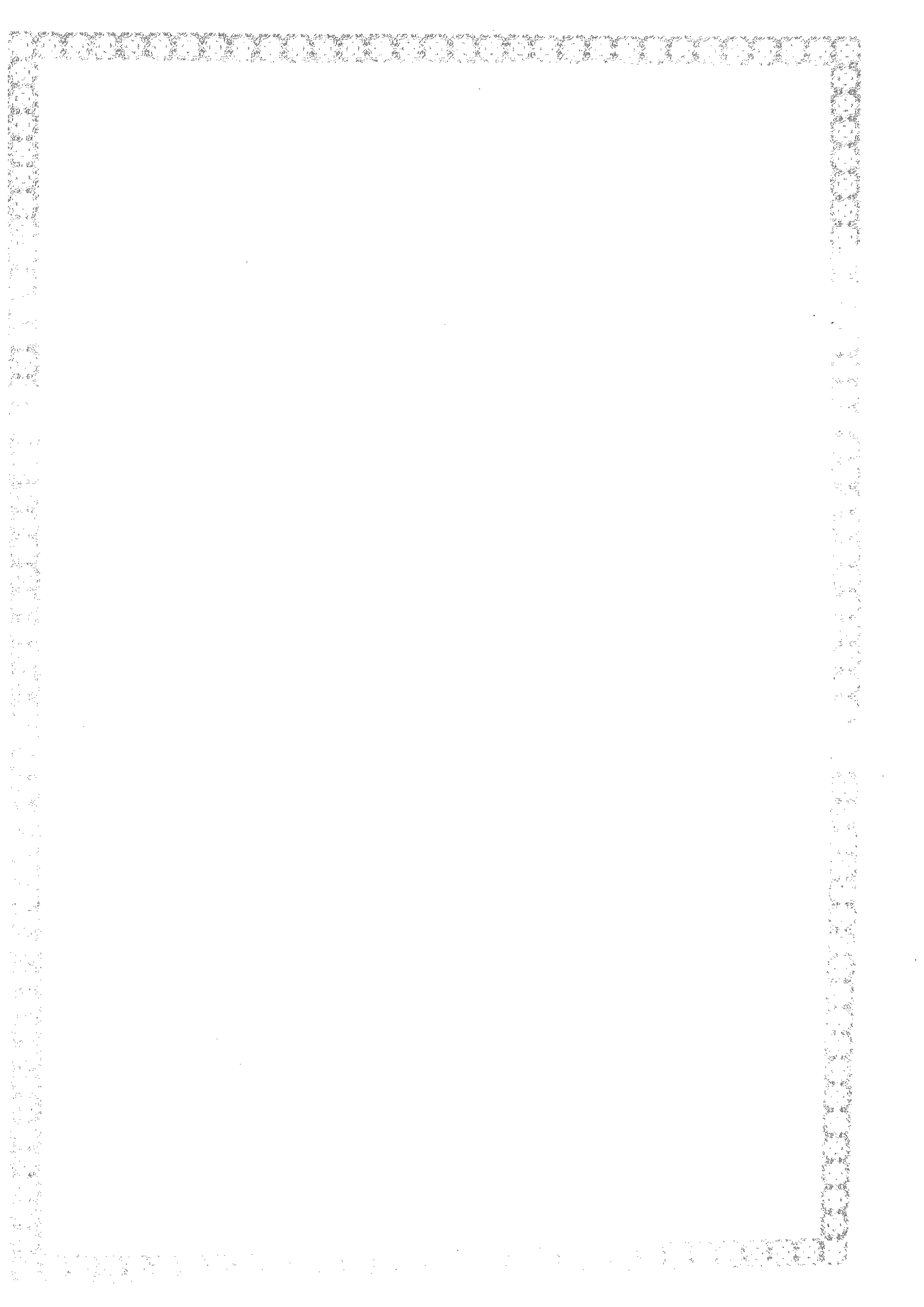
عنيفة ثلاث مرات، كل حملة يضرب به حتى يعوج متنه ثم يخرج فيسويه بركبتيه، ثم يحمل به حتى أفناهم ولم يبق منهم سوى أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال.

قال ابن الأثير: ولما فرغ علي من أهل النهر حمد الله وأثنى عليه وقال إن الله قد أحسن بكم، وأعز نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم بالشام، قالوا: يا أمير المؤمنين، نفدت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا إلى مصرنا، لنستعد، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا وكان المتصدي للإمام كالعادة الأشعث ابن قيس.

تسلل الجند ودخلوا الكوفة، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم، وأيقن الإمام أن القوم مارقون من يده، ولا طاعة له عليهم، فانكسر عليه رأيه في المسير، وحاول للمرة الأخيرة أن يخطبهم فقال: «أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدوكم، ومن جهاده القربة إلى اللهﷻ، ودرك الوسيلة عنده، حيارى عن الحق، جفاة عن الكتاب، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله، وكفى بالله وكيلاً، وكفى بالله نصيراً». فلم ينفروا. وكان السلم محبباً إليهم. ومضى أصحاب الإمام في إيثار الراحة والدعة والنكوص عن الحرب كلما دعوا إليها.

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه، وأعانه طلاب المنافع عامدين، وأعانه الخوارج غير عامدين، واشترى ضمائر الرؤساء، وأفسدهم على إمامهم، وجعلهم بالقياس إليه منافقين، يعطونه الطاعة بأطراف ألسنتهم، ويطوون قلوبهم على المعصية والخذلان.

بقي الإمام في الكوفة يائساً منعزلاً عن الناس يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه، ويوجس شرّاً من أقرب المقربين إليه، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام، ويكفا السيف عن هذه الأمة فلا نزاع ولا قتال.



المأساة الأخيرة

يقول الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل: اجتمع زعماء الخوارج، ومنهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى، والبرك بن عبد الله التميمي الصريمي واسمه الحجاج. وعمرو بن أبي بكر التميمي السعدي، وتذاكروا أمر الناس، وعابوا الولاة، ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم، فلو شرينا أنفسنا لله، وقتلنا أئمة الضلال، وأرحنا منهم البلاد! فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علياً، وقال البرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا ألا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، وأخذوا سيوفهم فسموها، وأتى ابن ملجم الكوفة فلقي أصحابه بها، وكتمهم أمره، ورأى يوماً أصحاباً له من تيم الرباب، ومعهم امرأة منهم اسمها قطام»، قتل أبوها وأخوها يوم النهر، وكانت فائقة الجمال فخطبها، فقالت: لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي.

فقال: أما قتل علي فما أراك ذكرته وأنت تريديني.

قالت: بل التمس غرته، فإن أصبته شفيت نفسك ونفسي، ونفعك العيش معي، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها.

قال: والله ما جاء بي إلا قتل علي، فلك ما سألت.

قالت: سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك.

وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان فأجابها، وأتى ابن ملجم شبيب بن بحرة، فقال: هل لك في شرف الدنيا والآخرة، قال: وما ذاك؟ قال: قتل علي بن أبي طالب.

قال شبيب: ثكلتك أمك! لقد جئت شيئاً إدّاً، كيف تقدر على قتله؟!

قال: أكمن له في المسجد، فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه.

قال: ويحك! لو كان غير علي لكان أهون، قد عرفت سابقته وفضله وبلاءه في الإسلام وما أجدني أنشرح لقتله.

قال: أما تعلمه قتل أهل النهر العباد الصالحين؟!

قال: بلى.

قال: فلنقتله بمن قتل من أصحابنا. فأجابه. فلما كانت ليلة الجمعة ـ وهي الليلة التي واعد ابن ملجم فيها أصحابه على قتل علي ومعاوية وعمرو ـ جاءوا قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة، فدعت لهم بالحرير وعصبتهم به.

وخرج الإمام عليه السلام ونادى: الصلاة الصلاة، فضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب، وضربه ابن ملجم على قرنه بالسيف وقال: الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك، ويقول أبو الفرج فضربه ابن ملجم فأثبت الضربة في وسط رأسه.

وفي الاستيعاب اختلفوا: هل ضربه في الصلاة أو قبل الدخول فيها، وهرب القوم نحو أبواب المسجد، وتبادر الناس لأخذهم، قال أبو الفرج فأما شبيب فأخذه رجل فصرعه، وقيل إن الذي قتله ابن عم له، وأما ابن ملجم فلحقه رجل من همذان وقبض عليه، وأخذ السيف من يده وجاء به أمير المؤمنين.

واحتمل الإمام فأدخل داره، وجلست أم كلثوم عند رجليه، ففتح

عينيه، فنظر إلى الحسن والحسين فقال: الرفيق الأعلى خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً. ثم عرق، ثم أغمي عليه، ثم أفاق فقال: رأيت رسول الله ﷺ يأمرني بالرواح إليه عشاء ثلاث مرات.

يقول ابن الأثير: - وأدخل ابن ملجم على أمير المؤمنين وهو مكتوف فقال: أي عدو الله! ألم أحسن إليك؟ قال: بلى. فما حملك على هذا؟ شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. قال علي: لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلق الله، ثم قال النفس بالنفس، إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين، وتقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن إلا قاتلي.

ثم وجه كلامه إلى نجله الإمام الحسن قائلاً «انظر يا حسن إذا أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثلن بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمُثْلَة ولو بالكلب العقور».

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يولد الإمام في الكعبة وأن يموت شهيداً في بيت من بيوت الله. وكان ذلك في ليلة الجمعة ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ.

وفي قتل الإمام يقول ابن أبي مياس المراوي[١].

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة	كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة	وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا	ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وطلب الإمام الحسن إحضار ابن ملجم، فلما مثل بين يديه قال له ابن ملجم: ما الذي أمرك به أبوك؟

---

(١) نسب البعض هذا الشعر للفرزدق.

ـ أمرني ألاّ أقتل غير قاتله، وأن أشبع بطنك، وأنعم وطأك، فإن عاش اقتص أو عفا، وإن مات ألحقك به.

فقال الأثيم: «إن كان أبوك ليقول الحق ويقضي به في حالة الغضب والرضا».

ثم ضربه الإمام الحسن ضربة بالسيف وقتله ولم يمثل به.

وقد اختلف المؤرخون في مسألة التمثيل به، فذهب فريق من المأرخين إلى أنه من الموضوعات الهامة، وذلك لنهي أمير المؤمنين عنه مكرراً قول رسول الله ﷺ: «المُثلة حرام ولو بالكلب العقور». فكيف يسوغ لريحانة الرسول وسبطه أن يعرض عن وصية أبيه.

كما اختلف القائلون في الشخص الذي مثل بابن ملجم، فالمحب الطبري ذكر أن الذي مثل به الإمام الحسين ومحمد بن الحنفية، وقد نهاهما الحسن عن ذلك فلم يذعنا له. وذكر أبو الفداء أن الذي قام بذلك عبد الله بن جعفر، وذكر ابن أبي الحديد أن الحسن هو الذي قام به. وذكر الأستاذ العميد الدكتور طه حسين: «إن الشيء المحقق هو أن ولاة الدم لم ينفذوا وصية علي في أمر قاتله، فهو قد أمرهم أن يلحقوه به ولا يعتدوا، ولكنهم مثلوا به أشنع تمثيل فلما مات حرقوه بالنار».

والذي أميل إليه أن التمثيل بابن ملجم لم يكن من أسباط الرسول لأن الإمام علي بن أبي طالب قال للحسن يوصيه: «يا بني ارفق بأسيرك وارحمه وأشفق عليه». فقال له الحسن «يا أبتاه، قتلك هذا اللعين، وفجعنا بك، وأنت تأمرنا بالرفق به».

فأجابه أمير المؤمنين: يا بني نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة، أطعمه مما تأكل واسقه مما تشرب، فإن أنا مت فاقتص منه بأن تقتله، ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت جدك رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»، وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به، وأنا أولى بالعفو، فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً.

ونعود إلى عمرو بن العاص ومعاوية لنرى مدى تنفيذ المؤامرة فيهما، فأما عمرو بن العاص فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلي بالناس، فضربه عمرو بن بكير وهو يحبسه عمراً فقتله، فقال عمرو: «أردتني وأراد الله خارجة». وأمر بقتله، وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله وقد خرج للصلاة فوقعت الضربة على إليته، وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكي بالنار أو شراب يمنع النسل، فجزع معاوية من النار ورضي بانقطاع النسل وهو يقول: «في يزيد وعبد الله ما تقرّبه عيني».

وأخيراً فهي المصادفة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة، فيذهب الإمام وحده ضحية هذه المؤامرة ويفلت زميلاه منها: معاوية وعمرو بن العاص.

والرواة يختلفون بعد ذلك في قبر الإمام - يقولون إنه دفن بالكوفة وعُمي قبره حتى لا ينبشه الخوارج، وقوم يقولون: إن الحسين نقله بعد ذلك إلى المدينة فدفنه إلى جانب فاطمة زوجه، والغلاة من خصوم الشيعة يزعمون أنه نقل إلى الحجاز في تابوت وضع على بعير ولكن ناقليه أضلوا بعيرهم ذاك، فأخذه جماعة من الأعراب ظنوا أن عليه مالاً في ذلك التابوت، فلما رأوا أن فيه جثة قتيل دفنوه في مكان مجهول من الصحراء، والكلام كما يقول الدكتور طه حسين في هذه الروايات المختلفة لا ينقضي، وليس فيه طائل أو غناء.

وقد انتهى النبأ بموت علي إلى أهل المدينة، وبلغ السيدة عائشة فتمثلت قول الشاعر:

وألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

كأنها أرادت أن تقول: إن علياً قد أراح بموته واستراح، وليس من شك في أنه استراح بموته من شقاء كثير، ولكن الشك كل الشك في أنه أراح، بل اليقين كل اليقين هو أن موت علي رضي الله عنه لم يُرح أحداً، وإنما أورث المسلمين عناء وخلافاً لم ينقضيا بعد، وما أرى أنهما سينقضيان قبل وقت

يعلم الله وحده أيقصر أم يطول[١].

وصية أمير المؤمنين عليه السلام:

ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه وأبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين: «بسم الله الرحمن الرحيم» هذا ما أوصى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولاً بالحق واعملا للأجر (للآخرة)، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، أوصيكما وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغهم كتابي هذا من المؤمنين بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، وإن البغضة حالقة الدين ولا قوة إلا بالله، انظروا ذوي أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب، والله الله في الأيتام، لا تغيروا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من عال يتيماً حتى يستغني أوجب الله له الجنة، كما أوجب لآكل مال اليتيم النار، والله الله في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم، والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم، والله الله في بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا، وأن أدنى ما يرجع به من أَمَّهُ أن يغفر له ما سلف من ذنبه، والله الله في الصلاة فإنها خير العمل وإنها عمود دينكم، والله الله في الزكاة فإنها تطفىء غضب ربكم، والله الله في صيام شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، فإنما يجاهد في سبيل الله

---

(١) الفتنة الكبرى للعميد الدكتور طه حسين.

رجلان: إمام هدى، ومطيع له مقتد بهداه، والله الله في ذرية نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم، والله الله في أصحاب نبيكم الذين لم يحدثوا حدثاً، ولم يؤوا محدثاً، فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم، ولعن المحدث منهم ومن غيرهم والمؤوى للمحدث، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم، والله الله في النساء وما ملكت أيمانهم، فإن آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: أوصيكم بالضعيفين: نسائكم وما ملكت أيمانهم، ثم قال الصلاة الصلاة ولا تخافن في الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم، قولوا للناس حسناً كما أمركم الله ﷻ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي الله الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم، عليكم بالتواصل والتباذل والتبار، وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب، حفظكم الله أهل البيت وحفظ فيكم نبيكم، وأستودعكم الله خير مستودع وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

ويقول ابن الأثير إن الإمام دعا الحسن والحسين عليهم جميعاً السلام وقال لهم نفس الوصية، ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال هل حفظت ما أوصيت به أخويك قال: نعم قال: فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقهما عليك، ولا تقطع دونهما أمراً، ثم قال أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه.

وقال للحسن: أوصيك أي بني بتقوى الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش.

ثم كرر قوله في شأن ضاربه، وقال للحسن: «أبصروا ضاربي، أطعموه من طعامي، وأسقوه من شرابي».

ثم قال: «إذا أنا مت فلا تغال في كفني، وصلي عليَّ، وكبر عليَّ سبعاً، وفي رواية خمساً، وغيب قبري».

قال ابن الأثير: ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى توفي عليه السلام.

روائع من كلام أمير المؤمنين

١ ـ في حديث الإمام علي بن أبي طالب عن الدنيا يقول: إنها تغوي وتسلم، وتذل وتضر، (والآخرة تسر)، وهي أمد (والآخرة أبد)، ومحل الغِيَر ودار المحن، وغنيمة الحمقى، وضحكة المغتر، وأمنية الأرجاس، ومطلقة الأكياس، إذ هي ظل زائل، ومنقطعة، وعواريها مرتجعة وفانية، كيوم مضى وشهر انقضى، وهي العاجلة، الفَرَح بها حُمْق، والاغترار بها خُرق، لأنها دار الغرباء، وسوق الخسران، المواصل لها مقطوع، والكمال فيها مفقود، هي مصرع العقول، وعالم النقائص والآفات، الوله بها أعظم فتنة، وهي كما تجبر تكسر، وكما تقبل تدبر، وهي بالآمل الكبير بها قُل، والترغيب فيها يوجب المقت، والزهد فيها هو الراحة العظمى! هي حلم، والاغترار بها ندم، وسُمّ أكله من لا يعرفه. ومعدن الشر ومزرعته، ودار الأشقياء ومنيتهم وموطنهم، ولأن الأمر قريب، والرحيل وشيك يقول: الموت مريح، وهو مفارقة دار الفناء، وارتحال إلى دار البقاء، والأعمال الدنيا تجارة الآخرة، والحازم من ترك الدنيا للآخرة، والرابح من باع العاجلة بالآخرة والفقر والغنى بعد العرض على الله، والجنة دار الأمان ودار الأتقياء ومعبرة الآخرة، وهو لذلك يذكّر الإنسان بالموت ويقصر الأمل، ويقول: الحي لا يكتفي، والأمل حجاب الأجل، وهو خادع ضار لا غاية له ويصرع، الأماني أشتات تخدعك، وعند الحقائق تدعك، وتدني الآجال وتنقطع بها العمر أنفاس معدودة والساعات تنهب الأعمار، والذكر الجميل أحد العمرين!

وروى عن الصادق عن آبائه ـ عنه ـ قال: إني كنت في (فدك) في بعض حيطانها حين صارت لفاطمةعليها السلام إذا أنا بامرأة قد هجمت عَلَيّ وفي يدي مسحاة وأنا أعمل بها، فلما نظرت إليها طار قلبي مما تداخلني من جمالها فشبهتها ببثينة بنت عامر بن الجمحي، وكانت من أجمل نساء قريش فقالت لي:

«يابن أبي طالب فهل لك أن تتزوجني فأغنيك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض ويكون لك الملك»؟

فقلت لها: من أنت حتى أتزوجك من أهلك؟.

فقالت: أنا الدنيا.

فقلت لها: ارجعي واطلبي زوجاً غيري.

وأنشأتُ:

فغرّى سواي إنني غير راغب ... لما فيك من عِزّ وملك ونائل
وقد قنعت نفسي بما قد رُزِقتُه ... فشأنك يا دنيا وأهل الغوائل
فإني أخاف الله يوم لقائه ... وأخشى عقاباً دائماً غير زائل!

وفي التفسير المنسوب للإمام الزكي الحسن العسكري قال: دخل جابر بن عبد الله الأنصاري على أمير المؤمنين عليعليه السلام، فقال له:

يا جابر قوام الدنيا بأربعة: عالم يستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني جواد بمعروفه، وفقير لا يبيع دينه بدنيا غيره!

يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه. فإن فعل ما يجب لله عليه عرضها للدوام والبقاء، وإن قصر فيما يجب لله عليه عرضها للزوال والفناء.

وأنشأ يقول:

ماأحسن الدنيا وإقبالها ... إذا أطاع الله من نالها!

من لم يواس الناس في فضله عرض للإدبار إقبالها
فاحذر زوال الفضل يا جابر وأعط من دنياك من سالها

ثم قال: إذا كتم العالم العلم لأهله، وزها الجاهل في تعلم ما لا بد منه، وبخل الغني بمعروفه، وباع الفقير آخرته بدنياه، حل البلاء وعظم العقاب:

وكم رأينا من ذوي ثروة لم يقبلوا بالشكر إقبالها
تاهوا على الدنيا بأموالهم وقيدوا بالبخل أقفالها
لو شكروا النعمة جازاهم مقالة الشكر التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفركمُ غالها

وقال الإمام عليه السلام: يابن آدم أيامك ثلاثة، يوم أنت فيه فاعمل فيه لنفسك واجهد لها، وأمس ماض بخيره وشره لا تدركه إلى يوم القيامة، وغد مقبل بسعده ونحسه لا تدري أتبلغه أم لا. ثم أنشد:

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلا وأصبحت في يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة فثن بإحسان وأنت حميد
ولا ترخ فعل الخير يوماً إلى غد لعل غداً يأتي وأنت فقيد

ويقول عليه السلام:

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأرزاق حظّاً وقسمة فَقِلَّة حِرصِ المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعُها فما بال متروك به الحر يبخل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرىء الله بالسيف أفضل

وذكر الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾، أنها نزلت في «علي» ـ قال: جاء مسكين، فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد. مسكين من مساكين المؤمنين. أطعموني يطعمكم الله، فسمعه علي فقال:

فاطم ذات المجد واليقين   يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين   قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين   يشكو إلينا جائع حزين
كل أمري بكسبه رهين   وفاعل الخيرات يستبين
موعده جنة عليّين   حرمها الله على الضنّين
وللبخيل موقف مهين   تهوي به النار إلى سجّين

شرابه الحميم والغِسلين

ويقول الإمام عليّ حاثّاً على رعاية النعم:

إذا كنت في نعمة فارعها   فإن المعاصي تزيل النعم

ويقول الأستاذ العلامة العقاد معلقاً على قول الإمام: «يا دنيا غرى غيري... غرى غيري»: «وإنها لأكثر من كلمة وأكثر من دعاء - إنها لسان قدر وعنوان حياة، فقد خلق الإمام وفي كل خليقة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا على ضرب من ضروب الاجتراء، خلق شجاعاً بالغاً في الشجاعة، وزاهداً بيِّن الزهد، ودارساً محبّاً للحقيقة الدينية يتحراها حيث اهتدى إليها، والشجاع جريء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة، والزاهد جريء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم، وطالب الحقيقة جريء على الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها، فأي مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارىء من الطوارىء كما عرف بالإقبال على الدنيا؟ صام الناس قبله عن الدنيا، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها، هدأت حماسة الدعوة النبوية وثابت الطبائع إلى مألوفها الذي أشربت عليه، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط في تاريخها القديم، وأقبل الناس على الدنيا، بل هرولوا إلى الدنيا، وإذا بخليفة جريء عليها زاهد فيها يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها، يصد ماذا؟ يصد الطوفان وهو مندفع من وراء السدود، يصد الطبيعة الإنسانية وهي منطلقة من عقال التقوى، يصد ما لا سبيل إلى صده بحال،

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره، فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء، وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له وكل حركة سعى إليها أو سعت إليه، ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا وقد غرت حوله كل إنسان».

وعن الدين؛ يفهم من حديثه عنه: أن الدين ذخر، والعلم دليل، ولا يصلحه إلا العقل، وهو يعصم ويصد عن المحارم ويجل. ويصفه بأنه حبور وأفضل مطلوب وأقوى عماد، وأنه شجرة أصلها التسليم والرضا، وثمرتها الزهد، الصدق لباسه واليقين رأسه، والإخلاص غايته، والجهاد عماده، والجدل فيه يفسد اليقين، ويقرر أن الوفاء عنوان وفور الدين وقوة الأمانة، وأن الشك يفسد الدين والمرتاب لا دين له، والمصيبة بالدين أعظم المصائب، وإخوان الدين أبقى مودة، والدين أشرف النسبين، والمغبون من فسد دينه، والخيانة دليل على قلة الورع وعدم الديانة، ويقول عليه السلام:

إن المكارم أخلاق مطهرة ... فالدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين باقيها
والنفس تعلم أني لا أصادقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها

وعن الإيمان يقول: إن الإيمان أمان ونجاة، وأعلى غاية، وشفيع منج، وشهاب لا يخبو، وأمارات العز، وأفضل الأمانين، وأصح الولائج، وبريء من الحسد والنفاق، منزه عن الزيغ والشقاق، وهو صبر في البلاء وشكر في الرخاء.

ويصفه بأنه إخلاص العمل، وبأن الصبر رأسه وثمرته، والصدق حليته وأقوى دعائمه، والفقر زينته، واليقين عنوانه، ولذا يقول:

«المرء بإيمانه، والمؤمن بعمله، ألف مألوف متعطف، كيس عاقل: (إذ الكافر فاجر جاهل)، الوجل شعاره، والرفق أخوه، والتقوى حصنه، والحلم نظام أمره، وهو منيب مستغفر تواب (إذ المرتاب يستكبر، والمنافق

متكبر مصر مرتاب)، لين هين، سهل مؤتمن (إذ الكافر خب، شديد الخداع، جاف خائن)، ينصف من لا ينصفه، مغمور بفكرته ضنين بخلته، لين العريكة، سهل الخليقة، (إذ الكافر شرس الخليقة سيىء الطريقة)، قليل الزلل كثير العمل (إذ المنافق قليل العمل كثير الخطل)، سيرته القصد، وسنته الرشد، يعاف اللهو، ويألف الجد، صدوق اللسان، بذول الإحسان، ينتظر إحدى الحسنيين غريزته النصح، وسجيّته الكظم، وهو لا يظّلم ولا يتأثم، فالمؤمنون أعظم أحلاماً، خيراتهم مأمولة، وشرورهم معدومة، الوجل والخوف شعارهم، والشوق خاصة العارفين منهم، والتجمل من أخلاقهم.

فالأمانة إيمان، والنجاة مع الإيمان، والفضل مع الإحسان، (إذ المكر السيىء والغل مجانبان للإيمان).

ومن حديثه عن العلم: إن العلم عز وحرز، وأعظم وأغلى كنز لا يفنى، وجمال لا يخفى، ونسب لا يُخفى، وحياة جلالة تنجي وتنجد، وأجل بضاعة، ونعم الدليل، وأشرف هداية، ومكسب النبل وداعي الفهم، وزينة الأغنياء، وغنى الفقراء، ومصباح العقل، وينبوع الفضل، وقائد الحلم وأصله، ونزهة المتقين، وخير دليل لا ينتهي، العامل به كالسائر على الطريق الواضح، والعلم بالله ﷻ شرف مرجوّ، وهو رشد لمن عمل به، ويهدي إلى الحق. وينسب العقل للعلم بقوله: العلم عنوان العقل والجهل فساد كل أمر.

ويقول عليه السلام:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله	وأجسادهم قبل القبور قبور
وإن أمراً لم يحي بالعلم ميت	وليس له حين النشور نشور

❀ ❀ ❀

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
فقم بعلم ولا تطلب به بدلاً	فالناس موتى وأهل العلم أحياء

❀ ❀ ❀

العلم زين فكن للعلم مكتسباً وكن له طالباً ما عشت مقتبسا
اركن إليه وثق بالله واغن به وكن حليماً رزين العقل محترسا

ويقول الإمام أيضاً: العقل يوجب الحذر، والجهل يوجب الغرر، العقل حيث كان إلف مألوف، وينبوع الخير، وصلاح كل أمر، وشجرة ثمرها الحياء والسخاء، الجهل يفسد المعاد، والهوى ضد العقل وعدوه، والغفلة ضد الحزم، اللهو والحقد من ثمار الجهل، واليقظة استبصار ونور، والغفلة غرور وأضرّ الأعداء، العاقل يطلب الكمال، والجاهل يطلب المال: الظفر بالحزم، والحزم بالتجاريب وبإجالة الرأي، والتجارب لا تنقضي والعاقل منها في زيادة. العاقل من اتعظ بسواه وأمات شهوته، والقوى من قمع لذته، والجاهل من انخدع بهواه، ولذا يقول: العلم ينجيك والجهل يرديك، ويعلل ذلك بأن العقل مركبه والتواضع ثمرته والفهم آيته.

وفي هذا يقول عليه السلام:

وأفضل قسم الله للمرء عقله وليس من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه
يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه على العقل يجري علمه وتجاربه
فمن كان غلاباً بعقل ونجدة فذو الجد في أمر المعيشة غالبه
يزين الفتى في الناس صحة عقله وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله وإن كرمت أعراقه ومناصبه

ويرى الإمام عليه السلام أن العلم لقاح المعرفة وإحدى الحياتين، العالم حي وإن كان ميتاً، والجاهل ميت وإن كان حيّاً، العلم حياة وشفاء، والجهل موت وداء، الحلم حلية العلم وعلة السلم. العالم ينظر بقلبه وخاطره، والجاهل بعينه وناظره.

وعن **العمل** يقول الإمام عليه السلام: إنه عنوان الطوية وشعار المؤمن، وأكمل خلف، ويربط الإمام العلم بالعمل ويقول: العلم بالعمل. ويوضح

فهمه للصلة بينهما بقوله: العلم بغير عمل وبال، والعمل بغير علم ضلال.

ويقول أيضاً إن العاقل من يعتمد على عمله والجاهل من يعتمد على أمله، والإخلاص أشرف نهاية وهوخير العمل، والعمل بطاعة الله أربح، والرجاء لرحمة الله أنجح، والعمل كله هباء إلا ما أخلص فيه، والنية الصالحة أحد العملين، والتوكل أفضل عمل، والأعمال ثمار النيات، والعمل الجليل ينبىء عن علو الهمة، والمواساة أفضل الأعمال، والمداراة أحمد الخلال، والإيثار فضيلة، والبر عمل مصلح، والإحسان غنم، والعفو من الإحسان، والمحسن والعاقل من صدّقت أقواله أفعاله، والكيس من عرف نفسه وأخلص أعماله، والصدقة أفضل القرب والحسنات، والكريم من بذل إحسانه، واللئيم من أكثر امتنانه، والعاقل من بذل نداه، والحازم من كف أذاه، والشكر ترجمان النية ولسان الطوية.

ويقول عليه السلام حاثّاً على العمل:

وما طلبُ المعيشة بالتمني	ولكن ألق دلوك في الدلاء
تجئك بمائها يوماً ويوماً	تجئك بحمأة وقليل ماء

وعن العبادة يفهم من حديثه عنها أنها فوز، أولها انتظار الفرج بالصبر، وأفضلها اليقين، والإخلاص روحها وثمرتها وغايتها، والفكر عبادة، والانفراد راحة المتعبدين، والإيثار أفضل عبادة وأجل سيادة، والغريب من ليس له حبيب، والمتعبد ليس غريباً، والإشراك كفر، والتوحيد حياة النفس. وهو ألا تتوهم، والتسليم ألا تتهم، والمتعبد سخي، والبخل بالموجود سوء ظن بالمعبود، والإحسان محبة، والدنيا بالإنفاق، والآخرة بالاستحقاق، والذكر جلاء البصائر ونور السرائر ومجالسة المحبوب، وهداية العقول، وتبصرة النفوس، ولذة المحبين، وهو نور يشرح الصدر، وأهل القرآن والذكر هم أهل الله وخاصته.

ويناجي، عليه السلام، الله سبحانه وتعالى فيقول:

لبيك لبيك أنت مولاه	فارحم عبيداً إليك ملجاه

ياذا المعالي إليك معتمدي … طوبى لمن كنت أنت مولاه
طوبى لمن كان نادماً أرقاً … يشكو إلى ذي الجلال بلواه
وما به علة ولا سَقَمٌ … أكثر من حبه لمولاه
إذا خلا في الظلام مبتهلا … أجابه الله ثم لبَّاه
سألت عبدي وأنت في كنفي … وكل ما قلتَ قد سمعناه
صوتك تشتاقه ملائكتي … فذنبك الآن قد غفرناه
في جنة الخلد ما تمناه … طوباه طوباه ثم طوباه
سلني بلا خشية ولا رهب … ولا تخف إنني أنا الله

ويستمر عليه السلام مناجياً فيقول:

لك الحمد ياذا الجود والمجد والعلا … تباركت تعطي من تشاء وتمنع
إلهي وخلاقي وحرزي وموئلي … إليك لدى الإعسار واليسر أفزع
إلهي لئن جلَّت وجمَّت خطيئتي … فعفوك عن ذنبي أجل وأوسع
إلهي لئن عطيت نفسيَ سؤلها … فها أنا في أرض الندامة أرتع
إلهي ترى حالي وفكري وفاقتي … وأنت مناجاتي الخفية تسمع
إلهي فلا تقطع رجائي ولا تزغ … فؤادي فلي في سيب جودك مطمع
إلهي لئن خيبتني أو طردتني … فمن ذا الذي أرجو ومن ذا أشفع
إلهي أجرني من عذابك إنني … أسيرٌ ذليلٌ خائف لك أخضع
إلهي فآنسني بتلقين حجتي … إذا كان لي في القبر مثوى ومضجع
إلهي فإن عذبتني ألف حجة … فحبل رجائي منك لا يتقطع
إلهي أذقني طعم عفوك يوم لا … بنون ولا مال هنالك ينفع
إلهي إذا لم ترعني كنت ضائعاً … وإن كنت ترعاني فلست أضيع
إلهي إذا لم تعف عن غير محسن … فمن لمسيء بالهوى يتمتع
إلهي لئن فرطت في طلب التقى … فها أنا إثر العفو أقفو وأتبع
إلهي ذنوبي بذت الطود واعتلت … وصفحك عن ذنبي أجل وأرفع
إلهي أقلني عثرتي وامح حوبتي … فإني مقر خائف متضرع
إلهي أنلني منك روحاً ورحمة … فلست سوى أبواب دارك أقرع

إلهي لئن أقصيتني أو طردتني فما حيلتي يا رب أم كيف أصنع
وكلهم يرجو نوالك راجياً لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمع
إلهي يمنِّيني رجائي سلامة وقبح خطيئاتي عليّ يشنِّع
إلهي فإن تعفو فعفوك منقذي وإلا فبالذنب المدبر أصرع
إلهي بحق الهاشمي وآله وحرمة أبرار هُمُ لك خشع
إلهي فانشرني على دين أحمد تقيّاً نقيّاً قانتاً لك أخشع
ولا تحرمنّي يا إلهي وسيدي شفاعته الكبرى فذاك المشفع
وصلّ عليه ما دعاك موحد وناداك أخيار ببابك ركع

ويفهم من حديثه عن **اليقين** أن اليقين جلباب الأكياس، وأفضل نور، وزهادة التوكل من قوته، وهو يثمر الزهد، والمغبوط من قوى يقينه. والشاك لا يقين له، إذ الشك يطفىء نور القلب، واليقين يرفع الشك، والريبة توجب الظنة، والارتياب يوجب الشرك، والثقة بالله أقوى عمل، والتوكل كفاية لمن اعتمد، وحصن الحكمة، وأفضل عمل، والطاعة تطفىء غضب الرب، والعمل رفيق الموقنين، والصدق أشرف خلائقه، (وللوصول إلى اليقين يجب حق الحق).

ويفهم من حديثه عن **الحق** أن الحق أحق أن يتبع، وهو سيف قاطع، وأفضل وأوضح سبيل وأقوى ظهير، (إذ الباطل أضعف نصير) والخضوع لغير الحق دناءة، والتعاون على إقامة الحق أمانة وديانة، المغلوب به غالب، والمحارب له محروب! والعقل رسول الحق، والصدق لسانه، وهو سيف على أهل الباطل، القول به خير من العي والصمت، والعزلة حسن التقوى، والعز إدراك الانتصار بالحق، والحق يزيل الباطل.

وله عليه السلام في وصف العزيز بالحق والمحب له:

ومحترس من نفسه خوف ذلة تكون عليه حجة هي ماهيا
فجانب أسباب السفاهة والخنا عفافاً وتنزيهاً فأصبح عاليا
وصان عن الفحشاء نفساً كريمة أبي همة إلا العلا والمعاليا

نراه إذا ما طاش ذو الجهل والصبا حليماً وقوراً صائن النفس هاديا
له حلم كهل في صرامة حازم وفي العين إن أبصرت أبصرت ساهيا
يروق صفاء الماء منه بوجهه فأصبح منه الماء في الوجه صافيا
ألم تره يرعى ذماماً لجاره ويحفظ منه العهد إذ ظل راعيا
صبوراً على صرف الليالي دريئة كتوماً لأسرار الضمير مداريا
له همة تعلو على كل همة كما قد علا البدر النجوم الدراريا

ثم لنستمع إليه عليه السلام وهو ينصح ابنه الحسين عليه السلام:

ابنّي إن الذكر فيه مواعظ فمن الذي بعظاته يتأدب
فاقرأ كتاب الله جهدك واتله فيمن يقوم هناك أو من ينصب
بتفكر وتخشع وتقرب إن المقرب عنده المتقرب
واعبد إلهك ذا المعارك مخلصاً وانصت إلى الأمثال فيما تضرب
وإذا مررت بآية مخشية تصف العذاب فقف ودمعك يسكب
يا من يعذب من يشاء بعدله لا تجعلني في الذين تعذب
إني أبوء بعثرتي وخطيئتي هرباً وهل إلا إليك المهرب
وإذا مررت بآية في ذكرها وصف الوسيلة والنعيم المعجب
فاسأل إلهك بالإنابة مخلصاً دار الخلود سؤال من يتقرب
لتنال عيشاً لا انقطاع لوقته وتنال ملك كرامة لا تسلب
بادر هواك إذا هممت بصالح خوف الغوالب إذ تجيء وتغلب
وإذا هممت بسيىء فاغمض له وتجنب الأمر الذي يتجنب

ومن حديثه عن العدل يفهم أن العدل أقوى أساس، وأشرف سجية، وهو ملاك، والجور هلاك. ويصفه بأنه إنصاف وراحة، وعنوان النبل، وأفضل الشيم، وأنه فوز ومكانة وحياة (إذ الجور ممات)، وأنه حياة الأحكام، وقوام الرعية، إذ به تصلح البرية، وهو فضيلة السلطان. ويصف الظلم بأنه عقاب يسلب ويزيل ويطرد النعم.

ولننظر إلى كتابه الذي أرسله إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامله

على «أردشير خرّة»، ومن هذا الكتاب نرى كيف كان الإمام يعدل في الرعية، ويقسم بالسوية، قال: «بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وأغضبت إمامك، أنك تقسم فيء المسلمين الَّذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك، فوالَّذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقّاً لتجدن بك عليّ هواناً، ولتَخِفنّ عندي ميزاناً، فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً.

ألا وإن حقّ من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا سواء يَردون عندي عليه ويَصدون عنه».

وهذا كتاب آخر يوجهه إلى بعض عماله تجد فيه ما يجب أن يتصف به العامل المسؤول من شدة ولين حسبما تقتضيه الظروف، وأن يسير بالعدل في الرعية بدون تحيز: «أما بعد فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأثيم، وأشدّ به لهاة الثغر المخوف، فاستعن بالله على ما أهمك، وأخلط الشدة بضغث من اللين، وأرفق ما كان الرفق أرفق، واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة، أخفض للرعية جناحك، وألن لهم جانبك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية حتى لا يطمع العظماء في حيفك ولا ييأس الضعفاء من عدلك، والسلام».

وصَاياه

من وصية له عليه السلام يوجهها لعسكره قبل لقاء العدو بصفين قال: «لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا مُعوراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالنهر أو الهراوة فَيُعَيَّر بها وعقبه من بعده».

وهذه وصية أخرى وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو فقال:

«فإذا نزلتم بعدو، أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قبيل الأشراف أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كيما يكون لكم ردءاً وَدونكم مرَدّاً، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ومناكب الهضاب، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو مأمن، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً، وإن غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كِفةً، ولا تذوقوا النوم إلا غِراراً أو مضمضة...».

ومنها قوله للولاة: «إني سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله، وقد

أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهباً إلى شيعة فنكلوا بمن تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم...».

ومن وصيته عليه السلام لمعقل بن قيس الرياح حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له قال:

«اتق الله الذي لا بد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، ولا تقاتلن إلا من قاتلك، وسر البردين - أي الغداة والعشي - وغور بالناس، ورفّه بالسير، ولا تسر أول الليل، فإن الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعناً، فأرح فيه بدنك، وروّح ظهرك، فإذا وقفت حين يتبطح السحر، أو حين ينفجر الفجر، فسِر على بركة الله، فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى يأتيك أمري، ولا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والاعتذار إليهم».

ومن وصيته عليه السلام يوصي بها من يستعمله على الصدقات، وتعدّ هذه الوصية المثل الأعلى في العدالة في الإسلام.

«انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعنَّ مسلماً، ولا تجتازنَّ عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية لهم، ثم تقول: عباد الله أرسلني إليكم وليّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليّه، فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه وتوعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا

أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تُنفرنّ بهيمة ولا تفزعنَّها، ولا تسوءنّ صاحبها فيها، واصدع المال صَدعين، ثم خَيّره، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره، ثم اصدع الباقي صَدعين ثم خيّره، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله، فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقِله، ثم اخلطهما، ثم اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله، ولا تأخذن عوداً ولا هَرِمةً ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار، ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم، فيقسمه بينهم، ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً غير مُعنِف ولا مجحف ولا مغلب ولا متعب، ثم احدر إلينا ما اجتمع عندك نُصَيّره حيث أمر الله، فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألاّ يحول بين ناقة وبين فصيلتها، ولا يُمصّر لبنها فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدنها ركوباً، وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها، وليرفه على اللاّغب، وليستأن بالنقب والظالع، وليوردها ما تمر به من الغدر، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جوادّ الطرق، وليروحها في الساعات، وليمهلها عند النِّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدناً مُنقيات غير متعبات ولا مجهودات، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله».

وعهده إلى مالك الأشتر فيه من الوصايا والحكم ما لم يحوه عهد قبله أو بعده. يقول الإمام عليه السلام: «واردد إلى الله ورسوله ما يضعك من الخطوات، ويشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ إرشادهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ـ فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة ولا يَحْصُر من الفيء إلى

الحق إذا عرفه، ولا تُشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقَفَهم في الشبهات، وآخذهمُ بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتياب الرجال له عندك، فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعمل فيه بالهوى وتُطلب به الدنيا».

ويقول سلام الله عليه: «ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية، ولا تُحدثن سنةً تضر بشيء من ماضي تلك السّنن فيكون الأجر لمن سنَّها، والوزر عليك بما نقضت منها...

وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك...

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كتَّاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكلا قد سمى الله سهمه، ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجنود حصون الرعية، وزين الوُلاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم - ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يُصلحهم ويكون من وراء حاجتهم، ثم لا قوامَ لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث

من القضاة والعمال والكتّاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويُؤتمنون عليه من خَواصّ الأمور وعَوامّها، ولا قوامَ لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رِفدهم ومعونتهم وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي حقّ بقدر ما يصلحه، وليس يخرج الوالي من حقية ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خفّ عليه أو ثقل. فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً، وأفضلهم حلماً ممن يبطىء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العف، ولا يقعد به الضعف.

ثم ألصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشُعب من العرف، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به، ولا تَحقِرنّ لُطفاً تعاهدتم به وإن قل؛ فإنه داعية لهم وإلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها، فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه. . .

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءَهم من خُلوف أهليهم حتى يكون همتهم همّاً واحداً في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحهم إلا بحيطتهم على ولاة الأمور وقلة استثقال دُولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم، فأفسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله.

ثم اعرف لكل امرىء منهم ما أبلى، ولا تضيفنّ بلاء امرىء إلى غيره، ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه، ولا يدعونَّك شرف امرىء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً».

الإمام يصف أهل البيت

يقول الإمام عليّ عليه السلام في وصف أهل البيت:

هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وصمتهم عن حِكَم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه. هم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق في نصابه، وإنزاح الباطل عن مُقامه وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل.

لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد، ولا يُسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين، وإليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والوراثة ـ الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله...

ومن كلامه أيضاً في وصفهم:

«فأين يتاه بكم، بل كيف تَعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمَّة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العِطاش...

«انظروا أهل بيت نبيكم فألزموا سمَتهم واتبعوا أثَرَهم، فلن يُخرجوكم من هُدى، ولن يُعيدوكم في رَدى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا...

ألا إن مثل آل محمدﷺ لمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون».

ولم يخطر ببال الإمامعليه السلام تحية أهل البيت، وقد جاء ذلك في كتاب لهعليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها قال: «أمَّا بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداًﷺ نذيراً للعالمين ومهيمناً على المرسلين، فلما مضىﷺ تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يُلقى في روعي، ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعدهﷺ عن أهل بيته، ولا أنهم نحوه عني من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس عن فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمدﷺ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثَلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السّراب أو كما يتقشع السّحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه».

من كلماته البَليغة

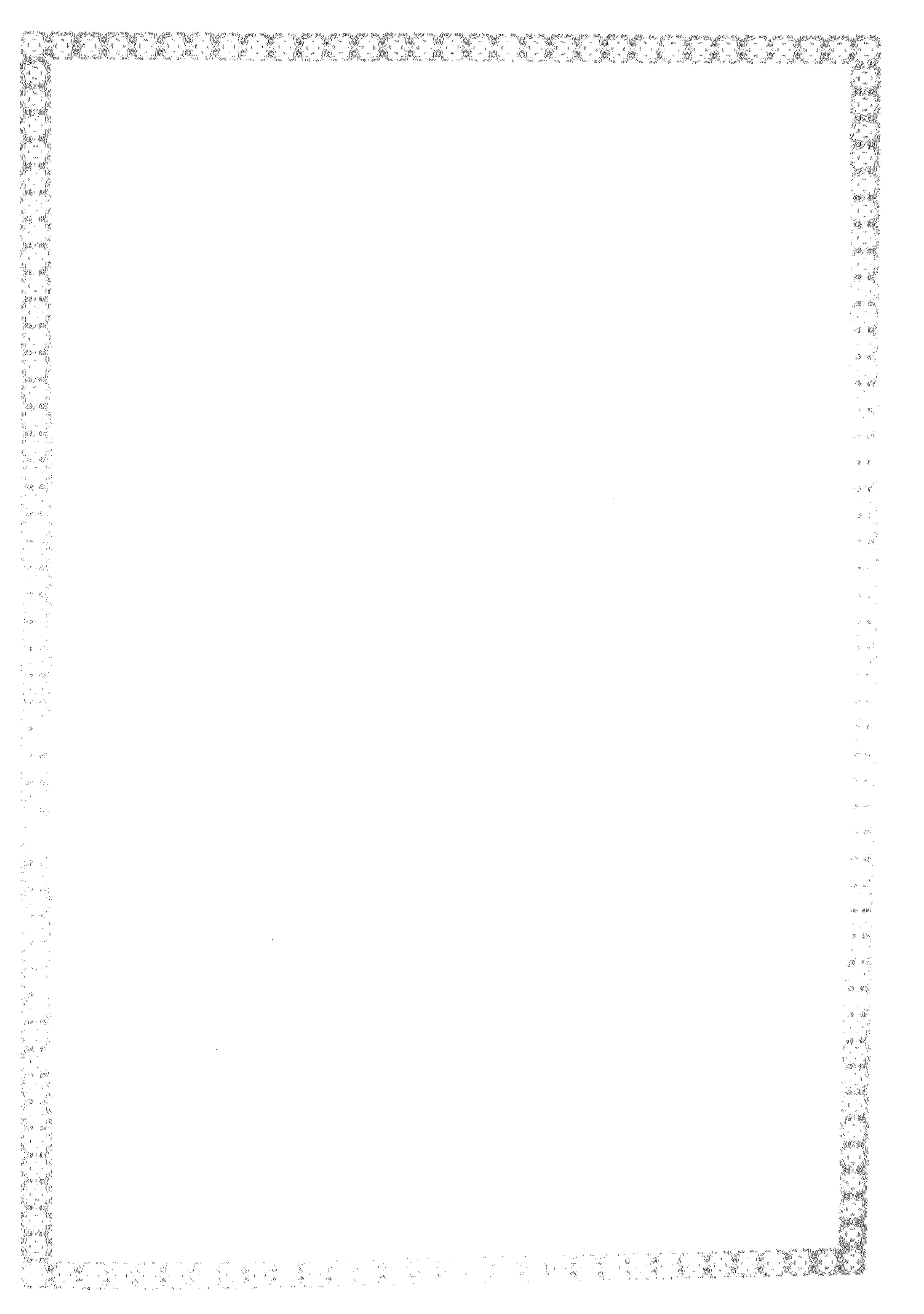
- اللهم كما صنت وجهي عن السجود[1] لغيرك، فصن وجهي عن مسألة غيرك.
- أربع القليل منهن كثير: النار والعداوة والمرض والفقر.
- إياك وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول يروق منظره ويقبح أثره.
- الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه.
- العامل بغير علم كسائر في غير طريق فلا يزيده بُعدَه عن الطريق إلا بعداً عن حاجته.
- أرجح الناس عقلاً وأكملهم فضلاً من صحب أيامه بالموادعة وإخوانه بالمسالمة وقبل من الزمان عفره.
- لا تطلب الحياة لتأكل بل اطلب الأكل لتحيا.
- من حسدك لم يشكرك على إحسانك إليه.

---

(١) كما بينت: ولد الإمام داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها. وفي شرح ابن أبي الحديد عن الإمام: «أسلم على يديه ـ يقصد الرسولﷺ ـ قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة، أو يخالط عقله شوب من شرك موروث»، وإذا كان لم يعرف عن الإمام عبادته للأصنام كذلك فإن أمه فاطمة بنت أسد أيضاً لم تسجد لصنم.

- الحاسد المبطن للحسد كالنمل يمج الدواء ويبطن الداء.
- الحاسد يرى زوال نعمتك نعمةً عليه.
- رحم الله أمرأ سمع حكماً فوعى، ودعى إلى رشاد فدنا، وأخذ بحجزة هاد فنجا.
- أوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله سبحانه وتعالى.
- ما شككت في الحق مذ رأيته.
- لا يُدرك الحقّ إلا بالجد.
- احترس من ذكر العلم عند من لا يرغب فيه، ومن ذكر قديم الشرف عند من لا قديم له، فإن ذلك مما يحقدهما عليك.
- العامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح فلينظر أسائر هو أم راجع.
- الأدبُ عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما ازداد ريّاً ازداد مرارة.
- عقل الكاتب في قلمه.
- لا تسبن إبليس في العلانية وأنت صديقه في السر.
- أعم الأشياء نفعاً موت الأشرار.
- ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه.
- لا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود.
- ليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلّفت، وهمّك فيما بعد الموت.
- احذر كل عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره أو اعتذر عنه.

- إن عقدت بينك وبين عدوك عُقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عَهدك بالوفاء، وارعَ ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنَّةً دون ما أعطيت.
- بادروا آجالكم بأعمالكم، فإنكم مرتهنون بما أسلفتم ومدينون بما قدمتم.
- لا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا.
- لا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق.
- الجاهل يُعرف بست خصال: الغضب من غير شيء، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضعها، وألا يعرف صديقه من عدوه، وإفشاء السر، والثقة بكل أحد.
- لا يكونَنّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء؛ فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة.
- أشرف الأشياء العلم، والله تعالى عالِمٌ يُحب كل عالم.
- اختر أن تكون مغلوباً وأنت منصف ولا تختر أن تكون غالباً وأنت ظالم.
- ليس شيء أحسن من عقل زانه علم، ومن علم زانه صدق، ومن صدق زانه رفق، ومن رفق زانه تقوى.
- إلهي، كفاني فخراً أن تكون لي ربّاً، وكفاني عزّاً أن أكون لك عبداً، أنت كما أريد، فاجعلني كما تريد.



المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ تفسير محمد بن علي بن محمد الشوكاني.

٣ ـ تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير والنسفي والبيضاوي.

٤ ـ سيرة النبي: عبد الملك بن هشام.

٥ ـ أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين.

٦ ـ شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد.

٧ ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار: الشيخ سيد الشبلنجي.

٨ ـ الفتنة الكبرى: الدكتور طه حسين.

٩ ـ عبقرية الإمام: الأستاذ عباس محمود العقاد.

١٠ ـ ينابيع المودة: الشيخ سليمان الحسيني البلخي القندوزي.

١١ ـ الكامل: ابن الأثير.

١٢ ـ حياة أمير المؤمنين في عهد النبي: الأستاذ محمد صادق الصدر.

١٣ ـ حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني.

١٤ ـ البداية النهاية: ابن كثير.

١٥ ـ الإمام علي: الأستاذ جورج جرداق.

١٦ ـ الإمامة والسياسة: ابن قتيبة.

١٧ ـ اليقين في إمرة أمير المؤمنين: ابن طاووس.

١٨ ـ خصائص أمير المؤمنين: الشريف الرضى.

١٩ ـ الشرف المؤبد لآل محمد: يوسف النبهاني.

٢٠ ـ معاوية في الميزان: الأستاذ عباس العقاد.

٢١ ـ ملخص تاريخ الخوارج: الشيخ محمد شريف سليم.

٢٢ ـ الخلفاء أمراء المؤمنين: السيوطي.

٢٣ ـ الرياض النضرة: محب الدين الطبري.

٢٤ ـ الإرشاد: الشيخ المفيد.

٢٥ ـ عائشة والسياسة: الأستاذ سعيد الأفغاني.

٢٦ ـ حرب الجمل وحرب صفين: السيد محسن الأمين.

٢٧ ـ البيان والتبيين: الجاحظ.

٢٨ ـ طبقات ابن سعد: ابن سعد.

٢٩ ـ نظرية الإمامة: الدكتور أحمد صبحي.

٣٠ ـ الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني.

٣١ ـ الاستيعاب: ابن عبد البر.

٣٢ ـ تاريخ الطبري.

٣٣ ـ تاريخ ابن الأثير.

٣٤ ـ مولد أمير المؤمنين في الكعبة: الشيخ محمد علي الأور دبادي.

٣٥ ـ **النص والاجتهاد**: السيد عبد الحسين شرف الدين.

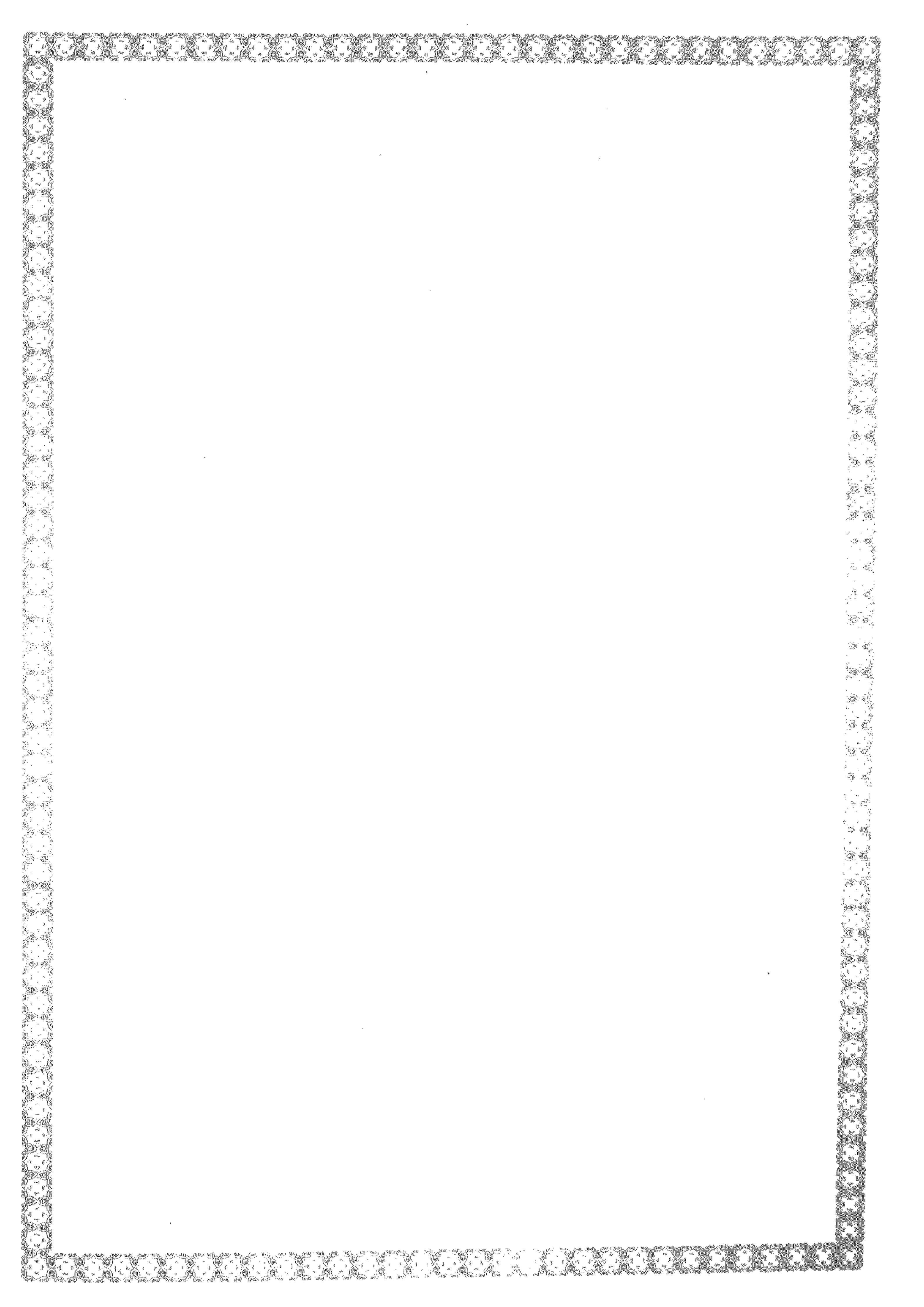
٣٦ ـ **قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**: الشيخ محمد تقي التستري.

٣٧ ـ **المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية**: السيد محسن الأمين الحسيني العاملي.

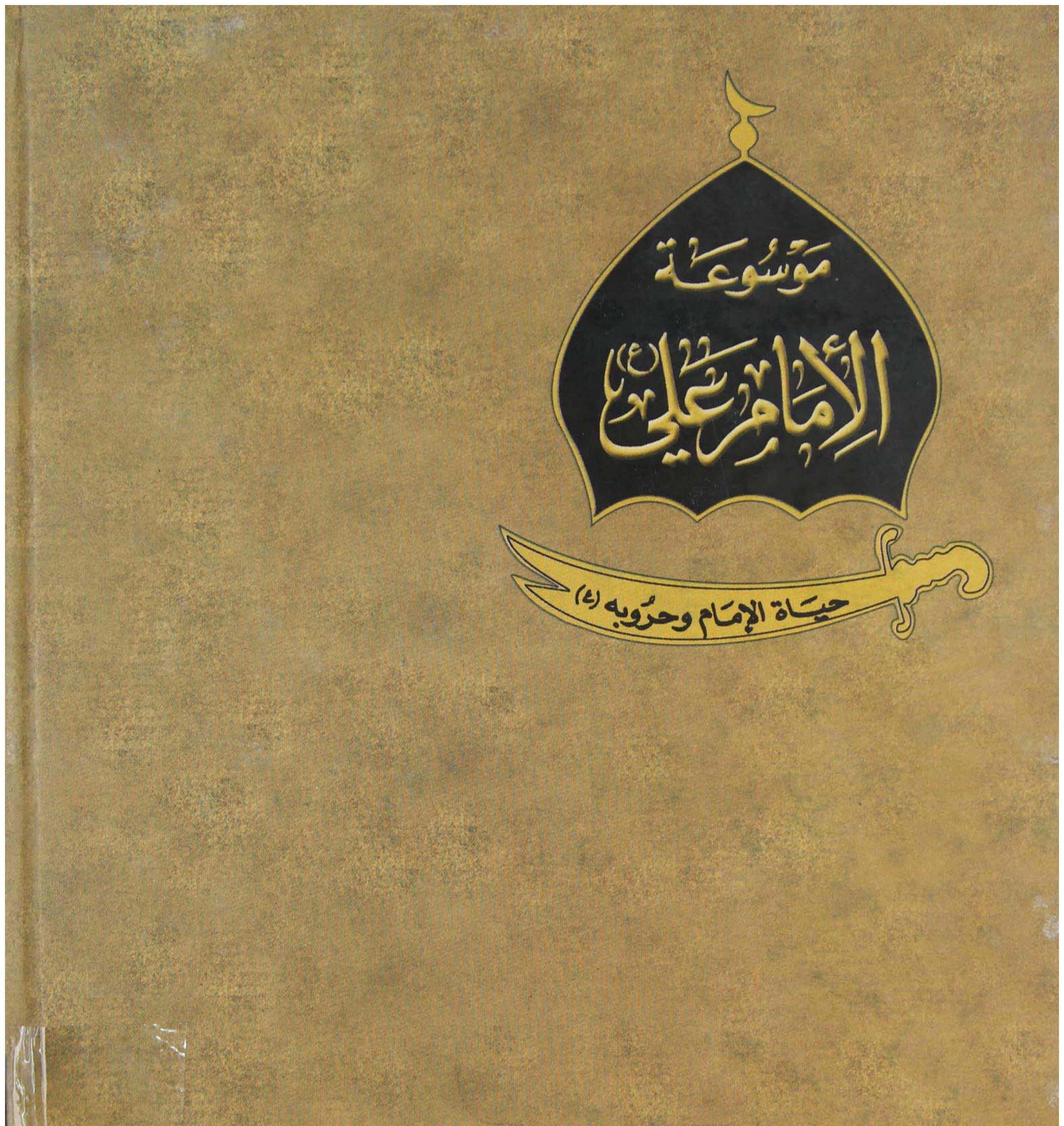
٣٨ ـ **الإمام علي بن أبي طالب**: الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود.

٣٩ ـ **الفتنة ووقعة الجمل**: سيف بن عمر الضبي الأسدي.

٤٠ ـ **كشف الغمة**: الشيخ عبد الوهاب الشعراني.



الفهرس


موسوعة
الإمام علي (ع)
حياة الإمام وحروبه (ع)